

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية

في

القرآن الكريم

" سورة الروم "

(30)

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

| | |
|-----|------------------|
| 2 | الفهرس |
| 9 | مقدمة سورة الروم |
| 13 | الروم 1-10 |
| 33 | الروم 11-27 |
| 70 | الروم 28-32 |
| 127 | الروم 33-45 |
| 154 | الروم 46-60 |

الفهرس (2)

- 2 _____ الفهرس
- 3 _____ الفهرس (2)
- 9 _____ مقدمة سورة الروم
- 9 _____ { وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ }
- 11 _____ دين الاسلام هو الأكمل والأفضل
- 12 _____ يجب على كل ولى أمر ان يستعين بأهل الصدق والعدل

الروم 1-10 13

- 13 _____ أسماء الحروف (فواتح السور)
- 14 _____ الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه
- 17 _____ الكفار بعضهم دون بعض
- 18 _____ الإيمان يزيد وينقص
- 21 _____ وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التى لا مبدل لها
- 21 _____ الذكاء والفتنة والأخلاق لا توجب السعادة والنجاة في حال مخالفة الرسل
- 24 _____ { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }
- 25 _____ حرم الله على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة
- 26 _____ ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب
- 27 _____ الانسان هو فاعل السيئات وانه يستحق عليها العقاب
- 27 _____ حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه
- 28 _____ السنة لا تتبدل ولا تتحول
- 29 _____ أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنعتر بها ونتعظ
- 30 _____ المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى
- 31 _____ السيئات منشؤها الجهل والظلم
- 31 _____ لطائف لغوية

الروم 11-27 33

- 33 _____ يستدل على امكان المعاد بالانشأة الاولى
- 34 _____ الشفاعة المنفية فى القرآن

- 37 _____ التنعم بالشئ في الآخرة لا يقتضي أن يكون مباحا في الدنيا
- 37 _____ العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه
- 39 _____ " كلمة رضىها الله لنفسه وأمر بها ملائكته وفزع إليها الأخيار من خلقه " _____
- 40 _____ كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم
- 41 _____ التسبيح قرين التحميد
- 41 _____ الانتباه حياة بعد الموت
- 41 _____ الوقت فى كتاب الله وسنة رسول الله نوعان
- 42 _____ { وَحِينَ تَصْبِحُونَ } _____
- 43 _____ { وَحِينَ تَضَاهُونَ } _____
- 44 _____ أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته
- 44 _____ أسماء الله وصفاته مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره
- 45 _____ القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل
- 45 _____ الاطمئنان هو السكون
- 46 _____ بين القرآن أن من كان يعقل أو كان يسمع فإنه يكون ناجيا وسعيدا
- 47 _____ سمع الحق يوجب قبوله
- 47 _____ يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب
- 48 _____ مدح الله وأثنى على من كان له عقل
- 49 _____ العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم
- 49 _____ القنوت دوام الطاعة لله
- 51 _____ ان الله غنى عن العالمين حتى قيوم
- 52 _____ القنوت والتسبيح أمر زائد على فقر المخلوقات الى الله
- 53 _____ يستعمل في حق الله سبحانه قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولاً
- 55 _____ الرب تعالى لا كفؤ له ولا سمي له ولا مثل له
- 56 _____ الرب تعالى بائن من مخلوقاته
- 56 _____ إثبات صفات الكمال له طرق
- 57 _____ الله سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السماوات وأهل الأرض
- 60 _____ فى قلوب العباد وأرواحهم يظهر المعروف المحبوب المعظم واسماؤه
- 61 _____ الله سبحانه قادر على اماته البشر والجن ثم إحيائهم
- 62 _____ " كما بدأكم فخلقكم فى الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء " _____
- 66 _____ طريقة القرآن فى بيان امكان المعاد
- 67 _____ ذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة
- 69 _____ لطائف لغوية

- 70 بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره
- 71 العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل ولا بقياس شمولي تستوي أفراده
- 73 يستعمل في حق الله قياس الأولى
- 73 الفرق بين الإمكان الذهني والإمكان الخارجي
- 74 القياس الفاسد
- 76 جعل المشركون لله مالا يرضونه لأنفسهم
- 77 كل من عمل سوءا فهو جاهل
- 78 الذين يتبعون أهواءهم اتبعوا محبتهم وارادتهم من غير علم
- 79 اتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات
- 80 الذين أخبر القرآن بشركهم كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض
- 82 الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له
- 82 طب الاديان يحتذى حذو طب الابدان
- 84 يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا
- 85 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد
- 86 {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا }
- 88 { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }
- 90 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته
- 93 ان الله فطر عباده على الحق
- 95 الرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها
- 97 الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى
- 98 الله سبحانه قد تفضل على بنى آدم بأمرين هما أصل السعادة
- 99 القلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه والا كان مشركا
- 101 حقيقة الحنيفية ان تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك
- 102 أهل الضلال غيروا الفطرة في العلم والارادة جميعا وخالفوا العقل والنقل
- 104 جميع الرسل بعثوا بدين الاسلام
- 105 دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم
- 106 الأسماء الشرعية
- 107 الشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفي الاسم إلا لانتفاء بعض واجباته
- 108 من أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة

- 109 _____ أمر الله سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة وذم المصلين الساهين عنها
- 112 _____ " من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة "
- 112 _____ ذم أهل التفرق والاختلاف
- 113 _____ كل مبتدع ديننا خالف به سنة الرسول لا يتبع الا ديننا مبدلاً او منسوخاً
- 114 _____ المختلفون كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق
- 116 _____ ينبغي للانسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به
- 117 _____ لا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل ولا سمع
- 119 _____ من عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد
- 120 _____ سبب الإجماع والألفة وسبب الفرقة
- 122 _____ " أن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا "
- 123 _____ الأحزاب هم أصناف الأمم الذين تحزبوا
- 124 _____ لطائف لغوية

127 _____ الروم 33-45

- 127 _____ ذم الله سبحانه حزبين
- 128 _____ الدعاء قصد المدعو والتوجه إليه
- 129 _____ لفظ الذوق مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر
- 129 _____ أخبر الله بالضلال والعذاب لمن ترك إتباع ما أنزله وإن كان له نظر واجتهاد
- 130 _____ يصف أهل الشرك بالفرية ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان
- 131 _____ القول بلا علم حرام بالنص والإجماع
- 131 _____ طالبهم بالدليل الشرعي على أن الله شرع ان يعبد غيره
- 132 _____ لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب منزل
- 133 _____ { سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ } او أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب
- 134 _____ في كل موضع ما يبين المراد باللفظ
- 135 _____ يحمد ويذم على مساعي القلوب وأعمالها
- 135 _____ اذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير
- 136 _____ { وَأَوْلَانِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
- 137 _____ اسم الوجه مذكور في تقرير ألوهيته لا في تقرير الوجدانية
- 138 _____ المراباة حرام بالكتاب والسنة والاجماع
- 139 _____ ان الله يمحق الربا كما يربي الصدقات
- 141 _____ الظالمون يمنعون الزكاة ويأكلون الربا
- 142 _____ الإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس

- 143 النية عمل القلب وهى أصل العمل
- 144 من أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية
- 145 ضرب الأمثال لله بيان أن لا مثل له فى صفاته ولا أفعاله
- 146 الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب
- 146 كل شر فى العالم سببه مخالفة الرسول والدعوة إلى غير الله
- 147 السنة لا تتبدل ولا تتحول فى غير موضع
- 148 إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزما لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه
- 149 الباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال
- 150 أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي
- 151 الصادق فى قوله آمنت لا بد أن يقوم بالواجب
- 152 لطائف لغوية

154 الروم 46-60

- 154 لفظ الذوق مستعمل فى الإحساس بالملائم والمنافر
- 155 أن الله جعل على نفسه حقا لعباده المؤمنين
- 156 الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه
- 158 ليس للمخلوق على الله حق بالقياس والإعتبار على خلقه
- 159 ليس لمخلوق على الله حق إلا ما أحقه هو على نفسه المقدسة
- 160 نصرُ الله للمُؤْمِنِينَ واقع لامحالة واجب بحكم إيجابه ووعده
- 160 لم يخبر الله فى كتابه بمخلوق إلا من مادة
- 162 يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب
- 163 إن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة
- 165 تارة يستدل فى بيان امكان المعاد بخلق النبات
- 166 العلم الحقيقي الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه
- 166 ايجاب علم القلب حركة القلب
- 167 الموتى لا يجب أن ينفى عنهم جميع السماع المعتاد كالكفار
- 168 السمع المنفى عن الميت سمع القبول والامتثال
- 169 تقرير التوحيد وتقرير مقصود الرسالة
- 169 القلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر
- 170 لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص
- 170 أن للإسلام صوى ومنارا كمنار الطريق
- 172 العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك

- 173 وصف الهرم بالضعف
- 173 إثبات القوى والطباع التي جعلها الله في الحيوان
- 174 الخير كله أصله وفصله منحصر في العلم والإيمان
- 174 ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه
- 175 جاء القرآن بخلاصة الأدلة العقلية على أحسن وجه
- 176 العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح
- 177 أمثال القرآن
- 179 ضرب الأمثال هو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده
- 180 أخبر الله أنه ضرب لجميع الناس في هذا القرآن من كل مثل
- 181 { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }
- 182 قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموما وخصوصا
- 182 يحصل اليقين بثلاثة أشياء
- 183 لطائف لغوية

~ §§ الروم (مكية) 60 §§ ~

مقدمة سورة الروم

{ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ }

ولما كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل صلى الله عليه وسلم رسله إلى جميع الطوائف فأرسل إلى النصرى نصارى الشام ومصر فأرسل إلى هرقل ملك الروم وقد قيل إن هرقل هذا هو الذي زادت النصرى له في صومهم عشرة أيام لما اقتتل الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصرى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا خطيئته بما زادوه في الصوم وكانت الفرس مجوسا والروم نصرى وكانت المجوس الفرس غلبت النصرى أولا وكان هذا في أوائل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل ففرح المشركون بانتصار الفرس لأنهم أقرب إليهم فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بانتصار الفرس على الروم فأنزل الله تعالى {الم} {1} غَلَبَتِ الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} سورة الروم الآيات 1 5 وكان هذا مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون فكان كما أخبر ولما ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون قال سنيد في تفسيره وهو شيخ البخاري حدثنا حجاج عن ابن أبي الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي أنه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ألم غلبت الروم إلى قوله وهو العزيز الرحيم خرج أبو بكر وهو يقرأها بمكة رافعا بها صوته {الم} {1} غَلَبَتِ الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} سورة الروم الآيات 1 5 فقال له رؤوس أهل مكة ما هذا يا ابن ابي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك قال لا والله ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى قالوا فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين قال ابن مكرم وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث فأنزل الله تعالى سورة الروم الآيات 1 5 وهذا الحديث رواه الترمذي في جامعه فقال حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا اسماعيل بن اويس قال حدثني ابن ابي الزناد عن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال لما نزلت سورة الروم الآيات 1 4 فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وذلك قوله تعالى { فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} سورة الروم الآيات 1 4 وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت فلما أ

نزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة **سورة الروم الآية 1 4** قال ناس من قريش لأبي بكر فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسا في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس في بضع سنين وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد يعني غريبا من هذا الوجه وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير والمغازي والحديث والفقهاء والقصة متواترة عند الناس وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن سفيان عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس لأنهم أهل أوثان قال فذكروا ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله **سورة الروم الآيات 1 4** فذكره أبو بكر للمشركين فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فإن غلبوا كان لك كذا وكذا وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين فذكر ذلك أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له هلا احتطت أفلا جعلته دون العشرة قال سعيد بن جبيرة والبضع ما دون العشر قال فغلبت الروم ثم غلبت فذلك قوله **ألم غلبت الروم** وهذا أيضا أخرجه الترمذي حدثنا الحسين بن حريث حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس وقال هذا حديث حسن صحيح غريب إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة ورواه أيضا من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه أيضا من حديث الأعمش عن عطية عن أبي سعيد وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر وذهب آخرون أنه يوم الحديبية وهذا هو الصحيح وهرقل كان قد مشى شكرا لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره على الفرس فوافاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس ففرح النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين قال علماء السير فلما انتصرت الروم وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشيا على قدميه إلى بيت المقدس متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلي فيه فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلى فيه قدم عليه حينئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبي يدعو إلى الإسلام قال ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال حدثني أبو سفيان قال كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني التي عقدت يوم الحديبية فلما عقدت الهدنة أمنا فخرجت في نفر من قريش تاجرا إلى الشام وكان وجه متجرنا فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس فأخرجهم منها وانتزع له صليبه الأعظم وقد كانوا سلبوه إياه فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله فخرج منها على قدميه متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس وبسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأساقفته قال وقدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم واسلم يؤتلك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين يعني الأكارين قال ابن إسحاق وقال ابن شهاب حدثني أسقف النصارى في زمان عبد الملك بن مروان زعم لي أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر هرقل وعقله قال لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذته فجعله على خصرته ثم كتب إلى رجل برومية

كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ويخبره ما جاء منه قال فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له في دسكرة ملكه وأمر بها فأشربت عليهم أبوابها ثم اطلع عليهم من عالية وخافهم على نفسه وقال يا معشر الروم إني قد جمعتكم لخير إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه وإنه والله للرجل الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا فهل فلننتبعه لنصدقه فتسلم لنا دنيانا وأخرتنا فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابندروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال كروهم علي وخافهم على نفسه فكروا عليه وقال يا معشر الروم إنما قلت لكم هذه المقالة التي قلت لكم لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي حدث فقد رأيت منكم الذي اسر به فوقعوا سجودا وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن حفظ مالا يحفظه غيره قال ابن إسحاق وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله في قسبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح¹

دين الاسلام هو الأكل والافضل

إن الله سبحانه وتعالى كانت سنته قبل إنزال التوراة إذا كذب نبي من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بعذاب من عنده كما أهلك قوم نوح بالغرق وقوم هود بالريح الصرصر وقوم صالح بالصيحة وقوم شعيب بالظلة وقوم لوط بالحاصب وقوم فرعون بالغرق قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} القصص 43 فلما أنزل التوراة أمر أهل الكتاب بالجهاد فمنهم من نكل ومنهم من أطاع وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} الصف 9 فقول هؤلاء (بعض النصارى) إن التوراة جاءت بالعدل والإنجيل بالفضل فلا حاجة إلى غيرهما لو قدر أنه حق إنما يستقيم إذا كان الكتابان لم يبدا بل كانا متبعين علما وعملا وكان أهلها مع ذلك منصورين مؤيدين على من خالفهم فكيف وكل منهما قد بدل كثير مما فيه وأهلها غير منصورين على سائر الكفار بل الكفار ظاهرون عليهم في أكثر الأرض كأرض اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب وأرض العراق وخراسان والمغرب وأرض الهند والسند والترك وكان بأيدي أهل الكتاب الشام ومصر وغير ذلك ومع هذا فكانت الفرس قد غلبتهم على ذلك ثم إن الله أظهر النصارى عليهم فكان ظهورهم توطئة وتمهيدا لإظهار دين الإسلام فإن الفرس المجوس لما غلبوا الروم ساء ذلك النبي والمؤمنين به وفرح بذلك مشركوا العرب وكانوا أكثر من المؤمنين لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس والمجوس أقرب إلى المشركين منهم إلى أهل الكتاب ووعد الله المؤمنين أن تغلب الروم بعد ذلك وأنه يومئذ { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } 4 { بِنَصْرِ اللَّهِ } 5 { لروم 4-5 } فأضاف النصر إلى اسم الله ولم يقل بنصر الله إياهم وذلك أنه حين ظهرت الروم على فارس كان النبي وأصحابه قد ظهروا على المشركين واليهود وأرسل النبي إذ ذاك يدعو ملوك النصارى بالشام ومصر إلى الإيمان به فعرفوه وعرفوا أنه النبي

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 270-282

المبشر به وكان ذلك أول ظهور دينه ثم أرسل طائفة من أصحابه إلى غيرهم ثم خرج بالمسلمين بنفسه معهم عام تبوك إلى الشام ثم فتح هذه البلاد أصحابه فكان تأييد دين الله وظهوره وإذلال المشركين والمجوس وغيرهم من الكفار على يديه وبدي أمته لا على يد اليهود والنصارى فلو قدر أن شرع أولئك كامل لا تبديل فيه لكان مغلوبا مقهورا وكان الله قد أرسل من يؤيد دينه ويظهره فكيف وهو مبدل ولو لم يبذل فدين أحمد أكمل وأفضل منه فذاك مفضل مبدل وهذا فاضل لم يبذل وذلك مغلوب مقهور هذا مؤيد منصور وبيعض هذا تحصل الفائدة في إرساله فكان من أجل الفوائد إرسال محمد فكيف يقال إنه لا فائدة في إرساله¹

وجوب إستعانة ولي الأمر بأهل الصدق والعدل

يجب على كل ولي أمر ان يستعين بأهل الصدق والعدل واذا تعذر ذلك استعان بالامثل فالامثل وإن كان فيه كذب وظلم فان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم والواجب انما هو فعل المقدور وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أو عمر ابن الخطاب من قلد رجلا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين فالواجب انما هو الارضى من الموجود والغالب انه لا يوجد كامل فيفعل خير الخيرين ويدفع شر الشرير ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول اشكوا إليكم جلد الفاجر وعجز الثقة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس وكلاهما كافر لأن أحد الصنفين أقرب الى الاسلام وأنزل الله في ذلك سورة الروم لما اقتتل الروم وفارس والقصة مشهورة وكذلك يوسف كان نائبا لفرعون مصر وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ودعاهم الى الايمان بحسب الامكان²

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 102

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 68

الروم 1-10

{الم {1} غَلَبَتِ الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {6} يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ {7} أُولَئِكَ يَتفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ {8} أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاوُوا السَّوَأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ {10}

أسماء الحروف (فواتح السور)

قال تعالى {الم {1} غَلَبَتِ الرُّومُ {2} الروم 1-2} ليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران والثانية في سورة الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْعَمِّ أَمَنَةً} آل عمران 154 الآية و {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} الفتح 29 الآية¹

أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الإسمية و الفعلية و انما هي أسماء موقوفة و لهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد و التركيب و إنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء و لهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا ز ا قال نطقتم بالإسم و إنما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء و في الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي

¹ - مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 448-449

صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه وسلم و أصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسما و فعلا و حرفا و لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل فإنه لما كان معروفا من اللغة أن الإسم حرف و الفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم و لا فعل و هذه حروف المعانى التى يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد و ينطق بها غير معربة و لا يقال فيها معرب و لا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله و كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم فى معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفا و هي المتشابهة كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب و أيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابهة و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء¹

الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة

فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلية وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى { غَلِبَتِ الرُّومُ } 2 { فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } 3 { سورة الروم الآيات 2 3 } ثم قال { فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ } 4 { بَنَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } 5 { وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 6 { سورة الروم الآيات 4-6 } فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل وكان كما أخبر²

ولما كان بعد عام الحديبية ومهادنة قريش أرسل صلى الله عليه وسلم رسله إلى جميع الطوائف فأرسل إلى النصارى نصارى الشام ومصر فأرسل إلى هرقل ملك الروم وقد قيل إن هرقل هذا هو الذي زادت النصارى له في صومهم عشرة أيام لما اقتتل الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا خطيئته بما زادوه في الصوم وكانت الفرس مجوسا والروم نصارى وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا وكان هذا في أوائل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل ففرح المشركون بانتصار الفرس لأنهم أقرب إليهم فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بانتصار الفرس على الروم فأنزل الله تعالى { الم { 1 } غَلِبَتِ الرُّومُ } 2 { فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } 3 {

¹ - مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 420-421 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 411 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص:

فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} سورة الروم الآيات 5 1 وكان هذا مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون فكان كما أخبر ولما ذكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون قال سنيد في تفسيره وهو شيخ البخاري حدثنا حجاج عن ابن أبي الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي أنه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم **ألم غلبت الروم إلى قوله وهو العزيز الرحيم** خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعا بها صوته **سورة الروم الآيات 4 1** فقال له رؤوس أهل مكة ما هذا يا ابن ابي قحافة لعله مما يأتي به صاحبك قال لا والله ولكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى قالوا فذلك بيننا وبينك إن ظهرت الروم على فارس في بضع سنين فراهنهم أبو بكر ففتح الله للروم على فارس دون التسع فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين قال ابن مكرم وإنما كانت قریش تستفتح يومئذ بالفرس لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث وأهل أصنام وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث فأنزل الله تعالى سورة الروم الآيات 4 5 وهذا الحديث رواه الترمذي في جامعه فقال حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا اسماعيل بن اويس قال حدثني ابن ابي الزناد عن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال لما نزلت **سورة الروم الآيات 4 1** فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وذلك قوله تعالى **{ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} سورة الروم الآيات 5 4** وكانت قریش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة سورة الروم الآية 1 4 قال ناس من قریش لأبي بكر فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسا في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس في بضع سنين وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد يعني غريبا من هذا الوجه وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير والمغازي والحديث والفقهاء والقصة متواترة عند الناس وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن سفيان عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس أنه قال كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس لأنهم أهل أوثان قال فذكروا ذلك لأبي بكر فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله **سورة الروم الآيات 4 1** فذكره أبو بكر للمشركين فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فإن غلبوا كان لك كذا وكذا وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين فذكر ذلك أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له هلا احتطت أفلا جعلته دون العشرة قال سعيد بن جبیر والبضع ما دون العشر قال فغلبت الروم ثم غلبت فذلك قوله **ألم غلبت الروم** وهذا أيضا أخرجه الترمذي حدثنا الحسين بن حريث حدثنا معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق الفزاري عن

سفيان عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس وقال هذا حديث حسن صحيح غريب إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة ورواه أيضا من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه أيضا من حديث الأعمش عن عطية عن أبي سعيد وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر وذهب آخرون أنه يوم

الحديبية وهذا هو الصحيح وهرقل كان قد مشى شكرا لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره على الفرس فوافاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس ففرح النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين قال علماء السير فلما انتصرت الروم وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشيا على قدميه إلى بيت المقدس متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلي فيه فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلى فيه قدم عليه حينئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبي يدعو إلى الإسلام قال ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال حدثني أبو سفيان قال كنا قوما تجارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني التي عقدت يوم الحديبية فلما عقدت الهدنة أمنا فخرجت في نفر من قريش تاجرا إلى الشام وكان وجه متجرنا فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس فأخرجهم منها وانتزع له صليبه الأعمى وقد كانوا سلبوه إياه فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ له وكانت حمص منزله فخرج منها على قدميه متشكرا لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلي في بيت المقدس وبسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأساقفته قال وقد قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبي فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فأسلم تسلم واسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين يعني الأكارين قال ابن إسحاق وقال ابن شهاب حدثني أسقف النصارى في زمان عبد الملك بن مروان زعم لي أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر هرقل وعقله قال لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذه فجعله على خاصرته ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ويخبره ما جاء منه قال فكتب إليه صاحب رومية أنه النبي الذي تنتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقته فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له في دسكرة ملكه وأمر بها فأشرجت عليهم أبوابها ثم اطلع عليهم من عليّة وخافهم على نفسه وقال يا معشر الروم إني قد جمعتكم لخير إنه قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه وإنه والله للرجل الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا فهل فلننتبعه لنصدقته فتسلم لنا دنيانا وأخرتنا فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابعدوا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال كروهم علي وخافهم على نفسه فكروا عليه وقال يا معشر الروم إنما قلت لكم هذه المقالة التي قلت لكم لأنظر كيف صلابتكم على دينكم لهذا الأمر الذي حدث فقد رأيت منكم الذي أسر به فوقعوا سجودا وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن حفظ مالا يحفظه غيره قال ابن إسحاق وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله في قسبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح¹

ففي المسند والترمذي وغيرهما من كتب الحديث والتفسير والمغازي الحديث المشهور لما اقتتلت فارس والروم وانتصرت الفرس ففرح بذلك المشركون لأنهم من جنسهم ليس لهم كتاب واستبشر

¹الجواب الصحيح ج: 1 ص: 270-282 و الجواب الصحيح ج: 4 ص: 348

بذلك أصحاب النبي لكون النصارى أقرب إليهم لأن لهم كتابا وأنزل الله تعالى {الم} {1} غَلِبَتْ
الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بَضْعِ سِنِينَ {4} الروم 1-4 الآية
وهذا يبين أن المجوس لم يكونوا عند النبي وأصحابه لهم كتاب وأيضا ففي حديث الحسن بن محمد
بن الحنيفة وغيره من التابعين أن النبي أخذ الجزية من المجوس وقال سنوا بهم سنة أهل
الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم وهذا مرسل¹

الكفار بعضهم دون بعض

فالكفار بعضهم دون بعض ولهذا يذكر الفقهاء في باب الردة والإسلام انتقال الرجل كأحد الزوجين
من دين إلى دين آخر انتقال إلى دين خير من دينه أو دون دينه أو مثل دينه فيقولون إذا صار الكتابي
مجوسيا أو مشركا فقد انتقل إلى شر من دينه وإذا صار المشرك أو المجوسي كتابيا فقد انتقل إلى
خير من دينه وإذا تهود النصراني أو بالعكس فقد انتقل إلى نظير دينه والتمجس يقر عليه بالاتفاق
وأما الإشراف فلا يقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء والصابئة نوعان عند المحققين وعلى
قولين عند آخرين ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها في مواضع كثيرة لمعرفة مراتب الحسنات
والفقهاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم وفي دمائهم وقراراتهم
بالجزية المضروبة عليهم ونحو ذلك من الأحكام التي جاء بها الكتاب والسنة في أهل الملل
والأحزاب الذين قال الله فيهم ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده سورة هود 17 وقد
قال الله تعالى لنبيه {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} الشورى 15 والعدل وضع كل شئ في موضعه كما أن الظلم وضع الشئ في غير
موضعه ولهذا لما اقتتلت فارس المجوس والروم النصارى وكان النبي ص بمكة إذ ذاك وهو في
طائفة قليلة ممن آمن به كان هو وأصحابه يحبون أن تغلب الروم لأنهم أهل كتاب وكان المشركون
يحبون أن تغلب فارس لأنهم من جنسهم ليسوا أهل كتاب فأنزل الله في ذلك {الم} {1} غَلِبَتْ الرُّومُ {2}
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} والقصة مشهورة في كتب الحديث والتفسير
والمغازي وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة فينتقل إلى ما هو أقل منها
شرا وأقرب إلى الخير فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة مثال ذلك أن
الظلم كله حرام مذموم فأعلاه الشرك فإن الشرك لظلم عظيم والله لا يغفر أن يشرك به وأوسطه ظلم
العباد بالبغي والعدوان وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله فإذا كان الرجل مشركا كافرا فأسلم
باطنا وظاهرا بحيث صار مؤمنا وهو مع إسلامه يظلم الناس ويظلم نفسه فهو خير من أن يبقى على
كفره ولو كان تاركا لذلك الظلم وأما إذا أسلم فقط وهو منافق في الباطن فهذا في الآخرة في
الدرك الأسفل من النار وأما في الدنيا فقد يكون أضر على المسلمين منه لو بقى على كفره وقد لا
يكون كذلك فإن إضرار المنافقين بالمؤمنين يختلف باختلاف الأحوال لكن إذا أسلم نفاقا فقد

¹مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 188

يرجى له حسن الإسلام فيصير مؤمنا كمن أسلم تحت السيف وكذلك من أسلم لرغبة أو لرهبة أو نحو ذلك فالإسلام والإيمان أصل كل خير وجماعة وكذلك من كان ظالما للناس في نفوسهم واموالهم وأعراضهم فانتقل عن ذلك الى ما يظلم به نفسه خاصة من خمر وزنا فهذا أخف لأثمة وأقل لعذابه¹

الإيمان يزيد وينقص

قال تعالى {الم} {1} غُلِبَتِ الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} الروم 51 كان أهل السنة والحديث على أن الايمان يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما روى عن مالك في احدى الروايتين ومنهم من يقول يتفاضل كعبدالله بن المبارك وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن ابي جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمي وهو من أصحاب رسول الله قال الإيمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته وما نقصانه قال اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه وروى اسماعيل بن عياش عن جرير بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن ابا الدرداء قال ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الايمان أم ينقص وان من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتية وروى اسماعيل بن عياش عن صفوان بن عمرو عن عبدالله بن ربيعة الحضرمي عن ابي هريرة قال الايمان يزيد وينقص وقال أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن ذر قال كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه هلموا نردد ايماننا فيذكرون الله عز وجل وقال ابو عبيد في الغريب في حديث على أن الايمان يبدو لمظة في القلب كما ازداد الايمان ازدادت اللمظة يروى ذلك عن عثمان بن عبدالله عن عمرو بن هند الجملى عن على قال الأصمعى اللمظة مثل النكتة أو نحوها وقال أحمد بن حنبل حدثنا وكيع عن شريك عن هلال عن عبدالله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود يقول في دعائه اللهم زدنا ايماننا ويقينا وفقها وروى سفيان الثوري عن جامع بن شداد عن الأسود بن هلال قال كان معاذ بن جبل يقول لرجل اجلس بنا نؤمن نذكر الله تعالى وروى أبو اليمان حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد أن عبدالله بن رواحة كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول قم بنا نؤمن ساعة فنحن في مجلس ذكر وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله وصح عن عمار بن ياسر أنه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان الانصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم ذكره البخارى في صحيحه وقال جندب بن عبدالله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فإزدادنا ايماننا والآثار في هذا كثيرة رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة قال مالك بن دينار الإيمان يبدو في القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة فان صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 464-465

الصالحة واماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه أو شك أن ينمو أو يزداد ويصير له اصل وفروع وثمره وظل الى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال وان صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنز فنتفتها أو صبى فذهب بها وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو اهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان وقال خيثمة بن عبدالرحمن الايمان يسمن فى الخصب ويهزل فى الجذب فخصبه العمل الصالح وجذبه الذنوب والمعاصى وقيل لبعض السلف يزداد الايمان وينقص قال نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال وينقص حتى يصير أمثال الهباء وفى حديث حذيفة الصحيح حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان وفى حديثه الآخر الصحيح تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر اسود مرابادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما اشرب هواه وفى حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية فانه من أعظم الأدلة على زيادة الايمان ونقصانه لانه وصفهم بقوة الايمان وزيادته فى تلك الخصال التى تدل على قوة ايمانهم وتوكلهم على الله فى أمورهم كلها وروى أبو نعيم من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن عبدالله اليزنى عن أبى رافع أنه سمع رجلا حدثه أنه سأل رسول الله عن الإيمان فقال أتحب أن أخبرك بصريح الايمان قال نعم قال اذا أسأت أو ظلمت أحدا عبدك أو أمتك أو احدا من الناس حزنت وساءك ذلك واذا تصدقت أو أحسنت استبشرت وسرك ذلك ورواه بعضهم عن يزيد عن سمع النبى أنه سأل عن زيادة الايمان فى القلب ونقصانه فذكر نحوه وقال البزار حدثنا محمد بن ابى الحسن البصرى ثنا هانىء بن المتوكل ثنا عبدالله بن سليمان عن اسحاق عن أنس مرفوعا ثلاث من كن فيه استوجب الثواب وإستكمل الايمان خلق يعيش به فى الناس وورع يحجزه عن معصية الله وحلم يرد به جهل الجاهل و أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا فالخصال الاولى تدل على زيادة الإيمان وقوته والاربعة الاخر تدل على ضعفه ونقصانه وقال ابو يعلى الموصلى ثنا عبدالله القواريرى ويحيى بن سعيد قال ثنا يزيد بن زريع ويحيى بن سعيد قال حدثنا عوف حدثنى عقبة بن عبدالله المزنى قال يزيد فى حديثه فى مسجد البصرة حدثنى رجل قد سماه ونسى عوف اسمه قال كنت بالمدينة فى مسجد فيه عمر بن الخطاب فقال لبعض جلسائه كيف سمعتم رسول الله يقول فى الاسلام فقال سمعته يقول الإسلام بدأ جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سداسيا ثم باز لا فقال عمر فما بعد البزول الا النقصان كذا ذكره أبو يعلى فى مسند عمر وفى مسند هذا الصحابى المبهم ذكره أولى قال أبو سليمان من أحسن فى ليله كوفى فى نهاره ومن أحسن فى نهاره كوفى فى ليله والزيادة قد نطق بها القرآن فى عدة آيات كقوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } الأنفال2 وهذه زيادة اذا تليت عليهم الآيات أى وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات زاد فى قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل فى قلبه من الرغبة فى الخير والرغبة من الشر ما لم يكن فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الايمان وقال تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران173 فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده وقال تعالى { وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {124} وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } {125} التوبة124-125 وهذه الزيادة ليست

مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم ايمانا بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال {وَهُمْ يَسْتَنْبِشُونَ} {124} التوبة 124 والاستبشار غير مجرد التصديق وقال تعالى {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} الرعد 36 والفرح بذلك من زيادة الايمان قال تعالى {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا} يونس 58 وقال تعالى {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} {4} **بِنَصْرِ اللَّهِ** {5} الروم 4-5 وقال تعالى {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} المدثر 31 وقال {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ} الفتح 4 وهذه نزلت لما رجع النبي وأصحابه من الحديبية فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} التوبة 26 وقال تعالى {ثَانِي أُنْتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} التوبة 40 ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار وانما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم دل على أن الايمان المزيد حال للقلب وصفة له وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين يكون ريبا في العلم وريبا في طمأنينة القلب ولهذا جاء في الدعاء المأثور اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا وفي حديث الصديق الذي رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن النبي أنه قال سلوا الله العافية واليقين فما أعطى أحد بعد اليقين شيئا خيرا من العافية فسلوهما الله تعالى فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينه القلب وطمأنينته وتسليمه وهذا من تمام الايمان بالقدر خيره وشره كما قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} {التغابن 11} قال علقمة ويروى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقوله تعالى {يَهْدِ قَلْبَهُ} {التغابن 11} هداه لقلبه هو زيادة في ايمانه كما قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} محمد 17 وقال {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} {الكهف 13} ولفظ الايمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيدا فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به بل يجعل موجبا للوازمه وتمام ما امر به وحينئذ يتناوله الاسم المطلق قال تعالى {آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} {7} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {8} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ {9} الحديد 7-9 وقال تعالى في آخر السورة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ لِلَّهِ إِنَّكُمْ سَوْفَ تُرْجَوْنَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَسَبِّحُوا لِلَّهِ فِي بُيُوتِكُمْ وَأَبْوَابِكُمْ لِلَّهِ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ كُلُّهَا وَسُبِّحْ لِلَّهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَالْأُولَى} الحديد 1-10 وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى أنها خطاب لقريش وفي الثانية أنها خطاب لليهود والنصارى وليس كذلك فإن الله لم يقل قط للكفار يا ايها الذين آمنوا ثم قال بعد ذلك {لَيْتَ يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {29} الحديد 29 وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة وقد قال {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {الحديد 8} وهذا لا يخاطب به كافر وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم وانما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبي كما بايعه الانصار ليلة العقبة وانما دعاهم الى تحقيق الايمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا كما نسال الله ان يهدينا

الصراط المستقيم فى كل صلاة وان كان قد هدى المؤمنين للاقرار بما جاء به الرسول جملة لكن الهداية المفصلة فى جميع ما يقولونه ويفعلونه فى جميع أمورهم لم تحصل وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هى من الإيمان المأمور به وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور¹

وعد الله الذى وعده رسله من كلماته التى لامبدل لها

و قد تواتر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه كان يستعيز و يأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات و فى بعض الأحاديث التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وقال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {62} الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {63} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {64} يونس 62-64 وقال تعالى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ } {الأنعام 34 فأخبر فى هذه الآية أيضا أنه لامبدل لكلمات الله عقب قوله { فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } {الأنعام 34 و ذلك بيان أن وعد الله الذى وعده رسله من كلماته التى لامبدل لها لما قال فى أوليائه { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } يونس 64 فانه ذكر أنه لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا و فى الآخرة فوعدهم بنفى المخافة و الحزن و بالبشرى فى الدارين وقال بعد ذلك { لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } يونس 64 فكان فى هذا تحقيق كلام الله الذى هو وعده كما قال { فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَوَعْدَهُ رُسُلُهُ } إبراهيم 47 وقال تعالى { وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {6} يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } {7} الروم 6-7 وقال المؤمنون { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } آل عمران 194 فإخلاف ميعاده تبديل لكلماته و هو سبحانه لامبدل لكلماته والقوم وان كان لهمال نكاه و فطنة وفيهم زهد وأخلاق فهذا القدر لا يوجب السعادة والنجاة من العذاب²

الذكاء والأخلاق لا توجب السعادة والنجاة فى حال مخالفة الرسل

قال تعالى { وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {6} يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } {7} الروم 6-7 فى القرآن فى مواضع يبين أن الرسل امرؤا بعبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة شىء من المخلوقات سواه وأن أهل السعادة هم أهل التوحيد وان المشركين هم اهل الشقاوة ويبين أن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون فعلم أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان وكذلك الإيمان باليوم الآخر فالثلاثة متلازمة ولهذا يجمع بينهما فى مثل قوله { وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } {الأنعام 150 واخبر فى غير موضع أن الرسالة عمت جميع بنى آدم فهذه الأصول الثلاثة توحيد الله والإيمان برسله وباليوم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 223-230

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 498

الآخر أمور متلازمة ولهذا قال سبحانه {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} {112}

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} {113} {الأنعام 112-113} فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء وهم شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض القول المزخرف وهو المزين المحسن يغرون به والغرور التلبيس والتمويه وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل من أمر المتكلمة وغيرهم من الأولين والآخرين ثم قال {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} {الأنعام 113} فعلم أن مخالفة الرسل وترك الإيمان بالآخرة متلازمان فمن لم يؤمن بالآخرة أصغى إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل كما هو موجود في أصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة وغيرها ولهذا قال تعالى {وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ} {الأعراف 52} إلى قوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ} {الأعراف 53} فأخبر أن الذين تركوا الكتاب وهو الرسالة يقولون إذا جاء تأويله وهو ما أخبر به جاءت رسل ربنا بالحق وهذا كما قال تعالى {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} {124} {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} {125} {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} {126} {طه 124-126} أخبر أن الذين تركوا إتباع آياته يصيبهم ما ذكر فقد تبين أن أصل السعادة والنجاة من العذاب هو توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح وهذه الأمور ليست في حكمتهم ليس فيها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والنهي عن عبادة المخلوقات بل كل شرك في العالم إنما حدث برأى جنسهم فهم الأمرون بالشرك والفاعلون له ومن لم يأمر بالشرك منهم فلم يمه عنه بل يقر هؤلاء وهؤلاء وإن رجح الموحدين ترجيحاً ما فقد يرجح غيره المشركين وقد يعرض عن الأمرين جميعاً فتدبر هذا فإنه نافع جداً وقد رأيت من مصنافتهم في عبادة الكواكب والملائكة وعبادة الأنفس المفارقة أنفس الأنبياء وغيرهم ما هو أصل الشرك وهم إذا ادعوا التوحيد فإنما توحيدهم بالقول لا بالعبادة والعمل والتوحيد الذي جاءت به الرسل لا بد فيه من التوحيد بإخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له وهذا شيء لا يعرفونه والتوحيد الذين يدعونه إنما هو تعطيل حقائق الأسماء والصفات وفيه من الكفر والضلال ما هو من أعظم أسباب الإشراف فلو كانوا موحدين بالقول والكلام وهو أن يصفوا الله بما وصفته به رسله لكان معهم التوحيد دون العمل وذلك لا يكفي في السعادة والنجاة بل لا بد أن يعبدوا الله وحده ويتخذوه إلهاً دون ما سواه وهذا معنى قول لا إله إلا الله فكيف وهم في القول والكلام معطلون جاحدون لا موحدون ولا مخلصون فإذا كان ما تحصل به السعادة والنجاة من الشقاوة ليس عندهم أصلاً كان ما يأمرهم به من الأخلاق والأعمال والسياسات كما قال تعالى {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} {الروم 7} و {قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} {الطلاق 3} والقوم وإن كان لهم ذكاء وفتنة وفيهم زهد وأخلاق فهذا القدر لا يوجب السعادة والنجاة من العذاب إلا بالاصول المتقدمة من الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص عبادته والإيمان برسله واليوم الآخر والعمل الصالح وإنما قوة الذكاء بمنزلة قوة البدن وقوة الإرادة فالذي يؤتي فضائل علمية وإرادية بدون هذه الأصول يكون بمنزلة من يؤتي قوة في جسمه وبدنه بدون هذه الأصول وأهل الرأي والعلم بمنزلة أهل الملك والإمارة وكل من هؤلاء وهؤلاء لا ينفعه ذلك شيئاً إلا أن يعبد الله وحده لا شريك له ويؤمن برسله وباليوم الآخر وهذه الأمور متلازمة فمن عبد الله وحده لزم أن يؤمن برسله ويؤمن باليوم الآخر فيستحق الثواب والإيمان من أهل الوعيد يخلد في العذاب هذا إذا قامت عليه الحجة بالرسول ولما كان كل واحد من أهل الملك والعلم قد يعارضون الرسل وقد يتابعونهم ذكر الله ذلك في كتابه في غير موضع فذكر فرعون

والذي حاج ابراهيم في ربه لما آتاه الله الملك والملا من قوم نوح وعاد وغيرهم من المستكبرين
المكذبين للرسول وذكر قول علمائهم كقوله { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } {83} فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّةً وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ } {84} فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْكَافِرُونَ } {85} غافر 83-85 وقال تعالى { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ
تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ } {4} كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْجِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } {5} غافر 4-5 الى قوله { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
جِبَارٍ } غافر 35 والسُّلْطَانُ هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله
{ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35 وقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ } الأعراف 71 وقال ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو الحجة ذكره البخارى في
صحيحه وقد ذكر في هذه السورة سورة حم غافر من حال مخالفي الرسل من الملوك والعلماء
مثل مقول الفلاسفة و علمائهم ومجادلتهم واستكبارهم ما فيه عبرة مثل قوله { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ
فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ } غافر 56 ومثل قوله { أَلَمْ تَرِ
إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَى يُصْرَفُونَ } {69} الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلْنَا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ } {70} إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ } {71} فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ } {72} غافر 69-72 الى قوله { دَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَمْرَحُونَ } غافر 75 وختم السورة بقوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ
الْعِلْمِ } غافر 83 وكذلك في سورة الانعام والأعراف وعمامة السور المكية وطائفة من السور
المدنية فانها تشتمل على خطاب هؤلاء وضرب الامثال ومقاييس لهم وذكر قصصهم وقصص
الانبياء واتباعهم معهم فقال سبحانه { وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا
وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } الأحقاف 26 فأخبر بما مكنهم فيه من اصناف الادراكات والحركات
واخبر ان ذلك لم يغن عنهم حيث جحدوا بآيات الله وهى الرسالة التي بعث بها رسله ولهذا حدثنى ابن
الشيخ الحصري عن والده الشيخ الحصري شيخ الحنيفة فى زمنه قال كان فقهاء بخارى يقولون فى
ابن سينا كان كافرا ذكيا وقال الله تعالى { أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذْتَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } غافر 21 الآية والقوة نعم قوة الادراك النظرية وقوة الحركة العمليه وقال فى الآية
الأخرى { كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ } غافر 82 فأخبر بفضلهم فى الكم
والكيف وانهم اشد فى انفسهم وفى آثارهم فى الارض وقال تعالى { فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ } {82} فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ } غافر 82-83 وقال تعالى { وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ } {6} يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } {7} أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ
مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
لَكَافِرُونَ } {8} أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا
يَسْتَهْزِئُونَ } {10} اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {11} الروم 6-11 وقال تعالى { فَفَقَدَ }

كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ {الأنعام 5} الى قوله {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ قَرْنٌ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ {الأنعام 6} وقد قال سبحانه عن اتباع هؤلاء الاثمه من اهل الملك والعلم المخالفين للرسل {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا {68} الاحزاب 66-68} وقال تعالى {وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ {غافر 47} الى قوله {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ {غافر 48} ومثل هذا فى القرآن كثير يذكر فيه من اقوال اعداء الرسل وافعالهم وما اوتوه من قوى الادراكات والحركات التى لم تتفهم لما خالفوا الرسل وقد ذكر الله سبحانه ما فى المنتسبين الى اتباع الرسل من العلماء والعباد والملوك من النفاق والضلال فى مثل قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ {التوبة 34} يستعمل لازما يقال صد صدودا اى اعرض كما قال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا {النساء 61} ويقال صد غيره يصدده والوصفان يجتمعان فيهم ومثل قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا {النساء 51} وفى الصحيحين عن ابي موسى عن النبي قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الاترجه طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظله طعمها مر ولا ريح لها فبين ان فى الذين يقرءون القرآن مؤمنين ومنافقين¹

{أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }

قال تعالى {أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ {8} أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ {10} الروم 8-10} وقال تعالى { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ {35} فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ {36} وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ {37} الذاريات 35-37} وقال فى سفينة نوح {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ {القمر 15} فأخبر أنه أبقى آيات و هي العلامات و الدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين و حسن عاقبتهم فى الدنيا و أخبار الكفار و سوء عاقبتهم فى الدنيا هو من باب الآيات و الدلالات التى يستدل بها و يعتبر بها علما و وعظا فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل و يفيد

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص:36- 42 ومجموع الفتاوى ج: 18 ص: 57-59

الترغيب و الترهيب و يدل ذلك على أن الله يرضي عن أهل طاعته و يكرمهم و يغضب على أهل معصيته و يعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل و يستدل بأحكام الأفعال على علمه لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل و بالتخصيص على مشيئته لأن التخصيص مستلزم لإرادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لأن تخصيص الفعل بما هو محمود فى العاقبة مستلزم للحكمة و يستدل بتخصيص الأنبياء و إتباعهم بالنصر و حسن العاقبة و تخصيص مكذبيهم بالخزي و سوء العاقبة على أنه يأمر و يحب و يرضي ما جاءت به الأنبياء و يكره و يسخط ما كان عليه مكذبوهم لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام و النجاة و الذكر الحسن و الدعاء و تخصيص الآخر بالعذاب و الهلاك و قبح الذكر و اللعنة يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول و بغض ما فعله الصنف الثانى¹

حرم الله على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة

قال تعالى { **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** } {8} **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } {9} **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** } {10} **الروم 8-10** فانه سبحانه وتعالى حرم على نفسه الظلم و الظلم ممتنع من الله سبحانه وتعالى بإتفاق المسلمين وقيل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً قال تعالى { **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا** } طه 112 قال المفسرون هو أن يحمل عليه سيئات غيره و يعاقب بغير ذنبه والهضم أن يهضم من حسناته²

أن سائر أهل السنة الذين يقرون بالقدر ليس فيهم من يقول إن الله تعالى ليس بعدل ولا من يقول إنه ليس بحكيم ولا فيهم من يقول إنه يجوز أن يترك واجبا ولا أن يفعل قبيحا فليس في المسلمين من يتكلم بمثل هذا الكلام الذي أطلقه ومن أطلقه كان كافرا مباح الدم باتفاق المسلمين ولكن هذه مسألة القدر والنزاع فيها معروف بين المسلمين فأما نفاة القدر كالمعتزلة ونحوهم فقولهم هو الذي ذهب إليه متأخرو الإمامية وأما المثبتون للقدر وهو جمهور الأمة وأئمتها كالصحابية والتابعين لهم بإحسان وأهل البيت وغيرهم فهؤلاء تنازعوا فى تفسير عدل الله وحكمته والظلم الذي يجب تنزيهه عنه وفى تحليل أفعاله وأحكامه ونحو ذلك فقالت طائفة إن الظلم ممتنع منه غير مقدور وهو محال لذاته كالجمع بين النقيضين وإن كل ممكن مقدور فليس هو ظلما وهؤلاء هم الذين قصدوا الرد عليهم وهؤلاء يقولون إنه لو عذب المطيعين ونعم العصاة لم يكن ظلما وقالوا الظلم التصرف فيما ليس له والله تعالى له كل شيء أو هو مخالفة الأمر والله لا أمر له وهذا قول كثير من أهل الكلام

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 121

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

المثبتين للقدر ومن وافقهم من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وقال طائفة بل الظلم مقدور ممكن والله تعالى منزّه لا يفعل له عدله ولهذا مدح الله نفسه حيث أخبر أنه لا يظلم الناس شيئاً والمدح إنما يكون بترك المقدور عليه لا بترك الممتنع قالوا وقد قال تعالى { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } طه 112 قالوا الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره والهضم أن يهضم حسناته وقال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَفْسُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } 100 { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابَعٍ } 101 { هود 100-101 فأخبر أنه لم يظلمهم لما أهلكهم بل أهلكهم بذنوبهم وقال تعالى { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } الزمر 69 فدل على أن القضاء بينهم بغير القسط ظلم والله منزّه عنه وقال تعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } الأنبياء 47 أي لا تنقص من حسناتها ولا تعاقب بغير سيئاتها فدل على أن ذلك ظلم ينزّه الله عنه وقال تعالى { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَِّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ } 28 { مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيِّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 29 { ق 28-29 وإنما نزّه نفسه عن أمر يقدر عليه لا عن الممتنع لنفسه ومثل هذا في القرآن في غير موضع مما يبين أن الله ينتصف من العباد ويقضي بينهم بالعدل وأن القضاء بينهم بغير العدل ظلم ينزّه الله عنه وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره وقال تعالى { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } الأنعام 164 فإن ذلك ينزّه الله عنه بل لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا فقد حرم على نفسه الظلم كما كتب على نفسه الرحمة في قوله { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الحديث الصحيح لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي والأمر الذي كتبه الله على نفسه أو حرمه على نفسه لا يكون إلا مقدوراً له سبحانه فالممتنع لنفسه لا يكتبه على نفسه ولا يحرمه على نفسه وهذا القول قول أكثر أهل السنة والمثبتين للقدر من أهل الحديث والتفسير والفقهاء والكلام والتصوف من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم¹

ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب

قال تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } 8 { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } 9 { ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُوا السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } 10 { الروم 8-10 والتحقيق أن ظلم النفس جنس عام يتناول كل ذنب وفي الصحيحين أن أبا بكر قال يا رسول الله علمني دعاء أَدْعُو به في صلاتي فقال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من

¹ منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 135-137

عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي كان يقول في استفتاحه اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت وقد قال أبو البشر وزوجته { قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقال موسى { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقال ذوالنون يونس { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } الأنبياء 87 وقالت بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقد قال عن أهل القرى المعذبين { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ } هود 101¹

الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب

قال تعالى { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ } {8} أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ } {10} الروم 8-10 أن الانسان هو فاعل السيئات و انه يستحق عليها العقاب و الله ينعم عليه بالحسنات عملها و جزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء و إذا كانت جزاء و هي من الله فالعمل الصالح الذى كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد إلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه و الله تعالى قد فرق بين النوعين فى الكتاب و السنة كما فى الحديث الصحيح الالهى عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و قد أمروا أن يقولوا فى الصلاة { اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } {7} الفاتحة 6-7²

حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه

وقد روى كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما ذنبان جائعان أرسلتا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف لدينه قال الترمذي حديث حسن صحيح فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزرية الغنم وقد أخبر الله تعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يقول ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 692- 693

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 248

و غاية مرید الریاسة أن یكون کفرعون وجامع المال أن یكون کقارون وقد بین الله تعالی فی کتابه حال فرعون وقارون فقال تعالی { **أَوْلَمْ يَنْفَكُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** } {8} **أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } {9} **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** } {10} **الرُّومِ 8-10** وقال تعالی { **أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** } فاطر 44 وقد روى كعب بن مالك عن النبي صلی الله علیه وسلم أنه قال ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف لدينه قال الترمذي حديث حسن صحيح فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزريرة الغنم وقد أخبر الله تعالی عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يقول ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه و غاية مرید الریاسة أن یكون کفرعون وجامع المال أن یكون کقارون وقد بین الله تعالی فی کتابه حال فرعون وقارون فقال تعالی { **أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** } فاطر 44 وقال تعالی تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلی الله علیه وسلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه ذرة من إيمان فقال رجل يا رسول الله إني أحب أن يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنا أفمن الكبر ذاك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق و غمط الناس فبطر الحق دفعه وجحده و غمط الناس احتقارهم وازدراؤهم وهذا حال من يريد العلو والفساد¹

السنة لا تتبدل ولا تتحول

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر وإهلاك قوم صالح بالصيحة وإهلاك قوم شعيب بالظلة وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم ورجمهم بالحجارة وكإهلاك قوم فرعون بالغرق وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ** } الشعراء 67 ثم ذكر قصة إبراهيم وقال في آخرها { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ** } الشعراء 103 وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم كما قال تعالی لما ذكر قصة نوح عليه السلام { **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** } {78} **سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ** } {79} الصافات 78-79 ولهذا قال تعالی لمحمد صلی الله علیه وسلم { **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } هود 49 فأخبر أن العاقبة للمتقين ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة كما قال عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي**

¹السياسة الشرعية ج: 1 ص: 137-138

أَصْحَابِ السَّعِيرِ {الملك} 10 كما ذكر الله الطريقين في قوله تعالى {أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} {8} أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا السُّؤَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} الروم 8-10¹

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع و السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} {الحشر} 2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} آل عمران 137²

وقد أيد الله سبحانه وتعالى تأييدا لا يؤيد به إلا الانبياء بل لم يؤيد أحد من الانبياء كما أيد به كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره وكل من أيد به الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقا كما أيد نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان بل وأيد شعيبا وهودا وصالحا فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته يعرف بها ما يصنع ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب علي تأييدا لا يمكن أحدا معارضته وهكذا أخبرت الانبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ولا يؤيده فصار هذا معلوما من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جعل العاقبة للانبياء وأتباعهم وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم قال تعالى {أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ آسَأُوا السُّؤَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} سورة الروم الأيتان 9 10³

آثار المكذبين للعظة والعبرة

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 391

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

³الجواب الصحيح ج: 1 ص: 412

قال تعالى {أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} {8} أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} الروم 8-10 قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذة بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاؤوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقى الله سبحانه آثار المكذبين لنتعبر بها ونتعظ لنئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {34} وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {35} العنكبوت 34-35 وقال تعالى {ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ} {136} وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ} {137} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {138} الصافات 136-138 أي تمررون عليهم نهارا بالصباح وبالليل ثم قال {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {138} الصافات 138 وقال تعالى في مدائن قوم لوط {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} {74} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} {75} وَإِنَّهَا لَئِسْجِيلٌ مُّقِيمٌ} {76} الحجر 74-76 يعني مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} {يوسف 109} وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} {190} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} {191} الشعراء 190-191 فختم القصة باسمين من اسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم برحمته¹

المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى

قال تعالى {أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} {8} أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُوا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} الروم 8-10 والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 98

يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى قال تعالى {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} الروم 10¹

السيئات منشؤها الجهل والظلم

قال تعالى {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} {8} أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {9} ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} الروم 8-10 المقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات كعبادة الله وحده وترك السيئات كترك الشرك أمر وجودي وفعل السيئات مثل {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ} {10} الروم 10 فأما عدم الحسنات والسيئات فجزاؤه عدم الثواب والعقاب وإذا فرض رجل أمن بالرسول مجملًا وبقي مدة لا يفعل كثيرًا من المحرمات ولا سمع أنها محرمة فلم يعتقد تحريمها مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك فهذا لا يثاب ولا يعاقب ولكن إذا علم التحريم فاعتقده أثيب على اعتقاده وإذا ترك ذلك مع دعاء النفس إليه أثيب ثوابًا آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها فهذا يثاب ثوابًا آخر بحسب نهيه لنفسه وصبره على المحرمات واشتغاله بالطاعات التي ضدها فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات وإذا تبين هذا فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من السيئات فهو الذي حُبب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وأما السيئات فمنشؤها الجهل والظلم فإن أحدًا لا يفعل سيئة قبيحة إلا لعدم علمه بكونها سيئة قبيحة أو لهواه وميل نفسه إليها ولا يترك حسنة واجبة إلا لعدم علمه بوجودها أو لبعض نفسه لها²

لطائف لغوية

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 25

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 59 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 286

1-قال تعالى { **بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } **الروم 5** عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب¹

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الروم 11-27

{ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {11} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ
الْمُجْرِمُونَ } {12} وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ
كَافِرِينَ } {13} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ } {14} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } {15} وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ } {16} فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
تُصْبِحُونَ } {17} وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } {18}
يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } {19} وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تُنْتَشِرُونَ } {20} وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {21} وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ } {22}
وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ } {23} وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فِيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {24} وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ
تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ
تَخْرَجُونَ } {25} وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ } {26} وَهُوَ الَّذِي
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {27}

يستدل على امكان المعاد بالانشأة الاولى

قال تعالى { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {الروم 11}

والايمان بالله واليوم الآخر يتضمن الايمان بالمبدأ والمعاد وهو الايمان بالخلق والبعث كما جمع
بينهما في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } البقرة 8 وقال
تعالى { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } لقمان 28 وقال تعالى { اللَّهُ يَبْدَأُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {الروم 11}

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 30

وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعاً في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجوداً ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } البقرة 55 قال { فَأَخَذْتُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {56} البقرة 55-56 وعن { الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } البقرة 243 وعن { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ } البقرة 259 وعن ابراهيم اذ قال { رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } البقرة 260 القصة وكما اخبر عن المسيح انه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج 5 وقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } {79} يس 78-79 { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } {الإسراء 51} في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } {الروم 27} وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فان خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما في قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } {الأحقاف 33} وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما في قوله { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا } {الأعراف 57} الى قوله { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } {الأعراف 57} ¹

والله سبحانه قادر على اماته البشر والجن ثم إحيائهم وقد قال سبحانه { اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {الروم 21} ²

الشفاعة المنفية في القرآن

قال تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ } {12} { وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءَ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ } {13} { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَدُ بِنَفْرَتِهِمْ } {14} {الروم 12-14}

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224-225 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 320

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 260

سمى الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء كما سماها شركاء في غير موضع ف قال تعالى { **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** } الروم 13 فالشفاعة المنفية في القرآن كقوله تعالى { **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** } الروم 13 وأمثال ذلك واحتج بكثير من الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب أو أن يخرج من النار من يدخلها ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة إثبات الشفاعة لأهل الكبائر والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وأيضا فالأحاديث المستفيضة عن النبي في الشفاعة فيها استنفاع أهل الموقف ليقضى بينهم وفيهم المؤمن والكافر وهذا فيه وع شفاعة للكفار وأيضا ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه يحوطك ويغضب لك قال نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وعن عبد الله بن الحارث قال سعت العباس يقول قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك قال نعم وجدته في غمرات من نار فأخرجته الى ضحضاح وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله ذكر عنده عمه أبو طالب فقال لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب بل في أن يجعل أهون أهل النار عذابا كما في الصحيح أيضا عن ابن عباس أن رسول الله قال أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أدنى أهل النار عذابا منتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه وعن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله يقول إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه وعنه قال قال رسول الله إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منها دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا¹

(**ناقص ن م**) وهذا السؤال الثانى يضعف جواب من تأول نفى الشفاعة على الشفاعة للكفار وإن الظالمين هم الكافرون فيقال الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق وهي أن يشفع الشفيع الى غيره ابتداء فيقبل شفاعته فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع لم يكن مستقلا بالشفاعة بل يكون مطيعا له أى تابعا له في الشفاعة وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للأمر المسؤل وقد ثبت بنص القرآن في غير آية أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه كما قال تعالى { **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** } البقرة 255 وقال { **يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا** } طه 109 وقال { **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى** } الأنبياء 28 وأمثال ذلك والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية أنه قال { **وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } الأنعام 51 وقال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ** } السجدة 4 فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع وأما نفى الشفاعة بدون إذنه

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 112- 113

فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه كما قال تعالى { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } {55} وَمَنْ يَتَّخِذِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } {56} المائدة 55-56 وأيضا فقد قال { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } {الزمر 43} { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أُولُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } {43} قُلِ اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {44} {الزمر 43-44} فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعا وأخبر أن الله الشفاعة جميعا فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد الا بإذنه وتلك فهي له وقد قال { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } {يونس 18} يوضح ذلك أنه نفي يؤمذ الخلة بقوله { مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } {البقرة 254} ومعلوم أنه إنما نفي الخلة المعروفة ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا كما قال { وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ } {17} { ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ } {18} { يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } {19} { الانفطار 17-19} وقال { لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ } {15} { يَوْمٌ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } {16} { غافر 16} لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه فإنه قد قال { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {66} { الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } {67} يَا عِبَادِ لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } {68} { الزخرف 66-68} الآيات وقد قال النبي يقول الله تعالى حقت محبتي للمتحابين في ويقول الله تعالى أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي فتعين أن الأمر كله عائد الى تحقيق التوحيد وأنه لا ينفع أحد ولا يضر الا بإذن الله وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ولا يستعان به من دون الله وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا في ربوبيته أو الهيته ولا من يدعى ذلك لغيره بخلاف الدنيا فإنه وإن لم يكن رب ولا اله الا هو فقد اتخذ غيره ربا والها وادعى مدعون وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ويكون خليله فيعيه ويفتدى نفسه من الشر فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا والنفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال وتارة بالإعانة وهي الشفاعة والأموال بالفداء فنفي الله هذه الأقسام الثلاثة قال تعالى { لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } {البقرة 48} وقال { لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ } {البقرة 254} كما قال { لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا } {لقمان 33} فهذا هذا والله أعلم وعاد ما نفاه الله من الشفاعة الى تحقيق أصلى الإيمان وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر التوحيد والمعاد كما قرن بينهما في مواضع كثيرة كقوله { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } {البقرة 8} وقوله { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } {البقرة 156} وقوله { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسًا وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } {لقمان 28} وقوله { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {البقرة 28} وأمثال ذلك¹

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 118-120

التنعم بالشئ في الآخرة لا يقتضى أن يكون مباحا في الدنيا

قال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } الروم 15 قد ورد عن طائفة من السلف أنه السماع الحسن في الجنة وان الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بأحسن منها لكن تنعيم الله تعالى لعباده بالأصوات الحسنة في الجنة واستماعها لا يقتضى أنه يشرع أو يبيح سماع كل صوت في الدنيا فقد وعد في الآخرة بأشياء حرمها في الدنيا كالخمر والحريير واواني الذهب والفضة بل قال صلى الله عليه وسلم من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة وقال من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة وقال لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة وهذه الأحاديث من الصحاح المشاهير المجمع على صحتها فقد أخبر أنه من استعمل هذه الامور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرها لم يستعمله في الآخرة فلو قيل له هذا السماع الحسن الموعود به في الجنة هو لمن نزه مسامعه في الدنيا عن سماع الملاهي لكان هذا أشبه بالحق والسنة وقد ورد به الأثر يقول الله يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشياطين أدخلوهم وأسمعوهم تحميدي وتمجيدي والثناء على وأخبروهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون¹

جاء عن مجاهد في تفسير قوله تعالى { فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } الروم 15 أنه السماع من الحور العين بأصوات شهية نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا وهذا فيه أنهم ينعمون في الآخرة بالسماع وقد تقدم الكلام على هذا وأن التنعم بالشئ في الآخرة لا يقتضى أن يكون عملا حسنا أو مباحا في الدنيا²

العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه

أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن اصل الإيمان هو ما فى القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذى فى القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما فى القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس فى مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل فى المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل فى الأول وقالوا هذا فى كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقوله { وَالَّذِينَ

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 232-233

² الاستقامة ج: 1 ص: 419

أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ {محمد2} فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا} {محمد2} وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} {البقرة238} وقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} {البينة5} والصلاة والزكاة من العبادة فقوله {أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} {البقرة277} كقوله {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} {البينة5} فإنه قصد أولاً أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولاً لأنه الأصل الذي لا بد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضاً من تمام الدين لا بد منه فلا يظن الظان اكتفائه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصاً بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلاً على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتقياً لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في اسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصاً وتنصيماً ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحاً لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنتم لا بد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه عن سواهم¹

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم وتارة يكون لازماً للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجاً عنه كما في حديث جبريل وإن كان لازماً له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} {البقرة82} فقد يقال اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازماً له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول كما يقال صدق عمله وقوله ومنه قول النبي العيانان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه¹

قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ } التوبة 33 فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ } الروم 15²

" كلمة رضيها الله لنفسه "

قال تعالى { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } 17 { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } 18 { الروم 17-18 } والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضي التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا ابن نفيل الحراني ثنا النضر ابن عربي قال سألت رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به و يحاشي به من سوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من سوء و عن الضحاك عن ابن عباس في قوله { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا } {الإسراء 1} قال عجب و عن أبي الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول ابن عباس أنه تنزيه نفسه من سوء و روي في ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشي به من سوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبي صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن سوء و قال حدثنا الضحاك ابن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال ابن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضيها الله لنفسه وأمر بها ملائكته و فرغ إليها الأخيار من خلقه³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 125-126

والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله تعالى { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } {17} **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } {18} الروم 17-18** وقوله { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال كنا جلوسا عند رسول الله إذ نظر القمر ليلة البدر فقال إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا ثم قرأ قوله تعالى { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يُقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى } طه 130 وهذا معنى قول داود سبحانه الله تسبيحا جديدا والتساييح التي شرعها الله جديدا كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديدا ولما أقامها جبريل للنبي قال هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات¹

كل امر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم

قال تعالى { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } {17} **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } {18} الروم 17-18**

فان الله سبحانه اخبر ان له الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب²

فالمصلي فى آخر القيام بعد الركوع يقول ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الارض الى قوله أهل الثناء والمجد احق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وقوله احق ما قال العبد خبر مبتدأ محذوف أى هذا الكلام احق ما قال العبد فتبين ان حمد الله والثناء عليه احق ما قاله العبد وفى ضمنه توحيد له اذا قال ولك الحمد أى لك لا لغيرك وقال فى آخره لا مانع لما اعطيت ولا معطى لما منعت وهذا يقتضى انفراد بالعبادة والمنع فلا يستعان الا به ولا يطلب الا منه ثم قال ولا ينفع ذا الجد منك الجد فبين ان الانسان وان اعطى الملك والغنى والرئاسة فهذا لا ينجيه منك انما ينجيه الايمان والتقوى وهذا تحقيق قوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 فكان هذا الذكر فى آخر القيام لأنه ذكر أول القيام وقوله احق ما قال العبد يقتضى ان يكون حمد الله احق الاقوال بان يقوله العبد وما كان احق الاقوال كان أفضلها وواجبها على الانسان ولهذا افترض الله على عباده فى كل صلاة ان يفتنحوها بقولهم { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 234

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 84

الْعَالَمِينَ} الفاتحة 2 وامرهم ايضا ان يفتتحوا كل خطبة بالحمد لله فامرهم ان يكون مقدا على كل كلام سواء كان خطابا للخالق او خطابا للمخلوق ولهذا يقدم النبي الحمد أمام الشفاعة يوم القيامة ولهذا أمرنا بتقديم الثناء على الله في التشهد قبل الدعاء وقال النبي كل امر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم وأول من يدعى الى الجنة الحمدون الذين يحمدون الله على السراء والضراء وقوله { الْحَمْدُ لِلَّهِ } الفاتحة 1 حمد مطلق فان الحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية فالثناء كميته وتكبيره وتعظيمه كيفيته¹

التسبيح قرين التحميد

ومعلوم أن الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن أربع سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وهي شطران فالتسبيح قرين التحميد ولهذا قال النبي كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم اخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة وقال فيما رواه مسلم عن أبي ذر أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده وفي القرآن { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } البقرة 30 { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } النصر 3 فكان النبي يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن هكذا في الصحاح عن عائشة فجعل قوله سبحانك اللهم وبحمدك تأويل { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } النصر 3 وقد قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 وقال { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } 17 { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } 18 { الروم 17-18 } والآثار في اقتترانهما كثيرة²

الانتباه حياة بعد الموت

قال تعالى { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } 17 { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } 18 { الروم 17-18 }

فتارة يبدأ أول النهار وتارة بأوسطه وتارة بأول الليل ولان النائم إذا استيقظ بأول النهار كان بمنزلة الخلق الجديد فإن الانتباه حياة بعد الموت ونشور بعد السكون فما فعله حينئذ كان أول أعماله³

الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوحان

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 265-266

²مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 232

³شرح العمدة ج: 4 ص: 148

وأما الوقت فالأصل في ذلك ان الوقت في كتاب الله وسنة رسول الله نوعان وقت إختيار ورفاهية ووقت حاجة وضرورة أما الأول فالأوقات خمسة وأما الثاني فالأوقات ثلاثة فصلاتا الليل وصلاتا النهار وهما اللتان فيهما الجمع والقصر بخلاف صلاة الفجر فإنه ليس فيها جمع ولا قصر لكل منهما وقت مختص وقت الرفاهية والإختيار والوقت مشترك بينهما عند الحاجة والإضطرار لكن لا تؤخر صلاة نهار إلى ليل ولا صلاة ليل إلى نهار ولهذا وقع الأمر بالمحافظة على الصلاة الوسطى صلاة العصر وقال النبي فيها من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله وقال فكأنما وتر أهله وماله وقد دل على هذا الأصل ان الله في كتابه ذكر الوقوت تارة ثلاثة وتارة خمسة أما الثلاثة ففي قوله {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ} هود 114 وفي قوله {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ} الإسراء 78 وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} 48 {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} 49 الطور 48-49 وأما الخمس فقد ذكرها أربعة في قوله {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} 17 {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ} 18 {الرَّوْمِ 17-18} وقوله {فَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} طه 130 وقوله {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} 39 {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ السُّجُودِ} 40 {ق 39-40} والسنة هي التي فسرت ذلك وبينته وأحكمته وذلك أنه قد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي أنه كان يصلي الصلوات الخمس في خمس مواقيت في حال مقامه بالمدينة وفي غالب أسفاره حتى أنه في حجة الوداع آخر أسفاره كان يصلي كل صلاة في وقتها ركعتين وإنما جمع بين الظهر والعصر بعرفة وبين العشاءين بمزدلفة ولهذا قال ابن مسعود ما رأيت رسول الله صلى صلاة لغير وقتها إلا المغرب ليلة جمع والفجر بمزدلفة وإنما قال ذلك لأنه غلس بها تغليسا شديدا وقد بين جابر في حديثه انه صلاها حين طلع الفجر ولهذا إتفق المسلمون على الجمع بين الصلاتين بعرفة ومزدلفة لأن جمع هاتين الصلاتين في حجة الوداع دون غيرهما مما صلاه بالمسلمين بمنى أو بمكة هو من المنقول نقلا عاما متواترا مستفيضا وثبت عنه أنه بين مواقيت الصلاة بفعله لمن سأله عن المواقيت بالمدينة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى وحديث بريدة بن الحصيب وبين له جبريل المواقيت بمكة كما رواه جابر وابن عباس وروى مسلم في صحيحه المواقيت من كلام النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عبدالله بن عمر وهو أحسن أحاديث المواقيت لأنه بيان بكلام النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال وقت الفجر مالم تطلع الشمس ووقت الظهر مالم يصر ظل كل شيء مثله ووقت العصر مالم تصفر الشمس ووقت المغرب مالم يسقط نور الشفق ووقت العشاء إلى نصف الليل وقد روى نحو ذلك من حديث أبي هريرة مرفوعا وفيه نظر وعلى هذه الأحاديث إعتد الإمام أحمد لكثرة إطلاع على السنن وأما غيره من الأئمة فبلغه بعض هذه الأحاديث دون بعض فاتبع ما بلغه ومن إتبع ما بلغه فقد أحسن وما على المحسنين من سبيل¹

{ وَحِينَ تُصْبِحُونَ }

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 84-86

و أول وقتها من طلوع الفجر الثاني كما تقدم في أحاديث المواقيت كلها مع قوله { طَرَفِي النَّهَارِ } هود 114 وقوله { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } الإسراء 78 وقوله { وَحِينَ تُصْبِحُونَ } الروم 17 وقوله { قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } طه 130 وغير ذلك وهما فجران فالأول المستند المستطيل في طول السماء كذنب السرحان وهو الذنب ويسمى الفجر الأول ولا عبرة به في شيء من الأحكام ثم يسود الأفق بعده ثم يطلع الفجر الصادق بعده معترضا في الأفق منتشرا لا ظلمة بعده ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يمنعنكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق وقد تقدم و قد روى أبو حفص والدارقطني عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الفجر فجران فجر تحل فيه الصلاة ويحرم فيه الطعام وفجر تحرم فيه الصلاة ويحل فيه الطعام أما الذي يكون كذنب السرحان فلا تحل الصلاة فيه ولا يحرم فيه الطعام وأما الذي يذهب مستطيلا في الأفق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام ويمتد وقتها في حال الاختيار والاضطرار إلى طلوع الشمس فإذا بدا حاجب الشمس خرج وقتها هذا ظاهر المذهب وهو المنصوص عنه¹

{ وَحِينَ تَظْهَرُونَ }

قال تعالى { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } 17 { وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهَرُونَ } 18 { الروم 17-18

الظهر أربع ركعات بالنقل العام المستفيض والإجماع المستيقن في حق المقيم فأما المسافر فيذكر إن شاء الله في موضعه وتسمى الظهر والهجير والأولى وأول وقتها هو زوال الشمس عن كبد السماء وهذا مما أجمعت عليه الأمة وجاءت به السنة المستفيضة من ذلك ما روى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فقال قم فصله فصلى الظهر حين زالت الشمس ثم جاءه العصر فقال قم فصله فصلى العصر حين صار كل ظل شيء مثله ثم جاء المغرب فقال قم فصله فصلى المغرب حين وجبت الشمس ثم جاءه العشاء فقال قم فصله فصلى العشاء حين غاب الشفق ثم جاء الفجر فقال قم فصله فصلى الفجر حين برق الفجر أو قال سطع ثم جاءه من الغد للظهر فقال قم فصله فصلى الظهر حين صار ظل كل شيء مثله ثم جاءه العصر فقال قم فصله فصلى حين صار ظل كل شيء مثليه ثم جاءه المغرب وقتا واحدا لم يزل عنه ثم جاءه العشاء حين ذهب نصف الليل أو قال ثلث الليل فصلى العشاء ثم جاءه حين أسفر جدا فقال قم فصله فصلى الفجر ثم قال ما بين هذين وقت رواه احمد والنسائي والترمذي وقال البخاري هو اصح شيء في المواقيت وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أماني جبريل عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفجر مثل الشراك ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وافطر الصائم ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم وصلى المرة الثانية الظهر حين صار ظل كل شيء مثل لوقت العصر بالأمس ثم صلى العصر حين صار ظل كل شيء مثليه ثم صلى المغرب لوقته الأول ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل ثم صلى الصبح حين أسفرت الأرض ثم التفت إلى جبريل فقال يا محمد هذا

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 183

وقت الأنبياء من قبلك الوقت فيما بين هذين الوقتين رواه احمد وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن وقد دل على ذلك قوله تعالى { **أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ** } الإسراء 78 وقوله { **وَحِينَ تَضَاهُونَ** } الروم 18 وقوله تعالى { **وَأَطْرَافَ النَّهَارِ** } طه 130 ومعنى زوال الشمس أن تحاذي رأس المصلي ثم تميل عنه يقال زالت وزاغت ودلكت ودحضت ويعرف ذلك بازدياد الظل بعد كمال نقصانه¹

أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته

أن الجسد إذا صح من مرضه قيل قد اعتدل مزاجه والمرض إنما هو انحراف المزاج مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخطا لا سبيل إليه ولكن الأمتل فالأمتل فهكذا صحة القلب وصلاحه في العدل ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس و الظلم ثلاثة أنواع والظلم كله من أمراض القلوب والعدل صحتها وصلاحها قال أحمد بن حنبل لبعض الناس لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من المخلوق هو من مرض فيك كمرض الشرك والذنوب وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع قال تعالى { **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } الروم 19 ومن أنواعه أن يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضا اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذها قبورا²

أسماء الله وصفاته مختصة به إذا اضيفت إليه لا يشركه فيها غيره

{ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } الروم 19 سمي الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به إذا اضيفت إليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال { **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** } البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال { **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ** } الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي اسم لله مختص به وقوله { **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** } الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 151

² أمراض القلوب ج: 1 ص: 8

ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطاة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى¹

القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل

ومن المعلوم أن القرآن لم يخبر بفناء العالم في المستقبل قط كما لم يخبر بأن الله خلق السموات والأرض من غير شيء بل أخبر سبحانه وتعالى بخلق السموات والأرض كما أخبر بخلق الإنسان والجن وغير ذلك من المخلوقات وأخبر أنه خالق كل شيء قال الله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } الروم 20 وفي الصحيح عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خلقت الملائكة من نور وخلقت الجن من نار وخلق آدم مما وصف لكم فأنه سبحانه قد أخبر بخلق الإنسان الذي هو آدم وبخلق ذريته شيئا بعد شيء في غير آية وأخبر أن ذلك مخلوق من غيره فالأصل مخلوق من الطين من التراب والماء ثم جعل صلصالا فييس وجف وذلك بالهواء ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم حسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه فإن كان لا بد فاعلا فتلت للطعام وتلت للشراب وتلت للنفس وأخبر أنه خلق الجن من النار وأنه خلق الملائكة من النور ولم يذكر أنه خلق هذه الأصناف لا من شيء²

الاطمئنان هو السكون

قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } {21} وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ } {22} الروم 21-22 وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة كان كل منهما يود الآخر ويرحمه³

والحركة والطمأنينة التي توصف بها النفس ليست مماثلة لما يوصف به الجسم قال تعالى { أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ } الرعد 28 والاطمئنان هو السكون قال الجوهرى اطمأن الرجل اطمئنانا وطمأنينة أى سكن قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {27} ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً } {28} الفجر 27-28 وكذلك للقلوب سكونة تناسبها قال تعالى { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } الفتح 4 وكذلك الريب حركة النفس للشك ومنه الحديث أن النبي مر بطبي حاقف فقال لا يريبه أحد ويقال رابني منه ريب و دع ما

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 10

²الصفدية ج: 2 ص: 75

³النبوات ج: 1 ص: 79

يريبك الى ما لا يريبك وقال الكذب ريبة والصدق طمأنينة فجعل الطمأنينة ضد الريبة وكذلك اليقين ضد الريب واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون ومنه ماء يقن وكذلك يقال انزعج وازعجه فانزعج أى أفلقه ويقال ذلك لمن قلقت نفسه ولمن فلق بنفسه وبدنه حتى فارق مكانه وكذلك يقال فلقلت نفسه واضطربت نفسه ونحو ذلك من أنواع الحركة ويسمى ما يألفه جنس الانسان ويحبه سكنا لأنه يسكن اليه ويقال فلان يسكن الي فلان ويطمئن اليه ويقال القلب يسكن الي فلان ويطمئن اليه اذا كان مأمونا معروفا بالصدق فان الصدق يورث الطمأنينة والسكون وقد سميت الزوجة سكنا قال تعالى { خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا } الروم 21 وقال { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } الأعراف 189 فيسكن الرجل الي المرأة بقلبه وبدنه جميعا وقد يكون بدن الشخص ساكنا ونفسه متحركة حركة قوية وبالعكس قد يسكن قلبه وبدنه متحرك والمحب للشئ المشتاق اليه يوصف بأنه متحرك اليه ولهذا يقال العشق حركة نفس فارغة فالقلوب تتحرك الي الله تعالى بالمحبة والانابة والتوجه وغير ذلك من أعمال القلوب وان كان البدن لا يتحرك الي فوق فقد قال النبي أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ومع هذا فبدنه أسفل ما يكون فينبغي أن يعرف ان الحركة جنس تحته أنواع مختلفة باختلاف الموصوفات بذلك وما يوصف به نفس الانسان من ارادة ومحبة وكراهة وميل ونحو ذلك¹

قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ } الروم 22

الناجي والسعيد

وقال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ } 23 { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 24 { الروم 23-24 قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الأبواب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 570

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

وان الذين يستحقون العذاب هم الذين لا يسمعون ولا يعقلون كما قال الله تعالى { } {أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَ هُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44 وقال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } الروم 23 وقال { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** } ق 37 فقد بين القرآن أن من كان يعقل أو كان يسمع فانه يكون ناجيا وسعيدا ويكون مؤمنا بما جاءت به الرسل وقد بسطت هذه الامور في غير موضع والله أعلم¹

سمع الحق يوجب قبوله

وقال تعالى { **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } الروم 23 أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذي يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خيرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا فيقال فلان يسمع لفلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله { **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ** } البقرة 171 وقوله { **وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْتِ الدُّعَاءِ** } الأنبياء 45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { **إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ** } الأنعام 36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعانى السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم²

يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب

قال تعالى { **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } الروم 24 و قد خلق الله تعالى الأشياء بأسباب³ ومع علم المؤمن أن الله رب كل شىء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب كما جعل المطر سببا لإنبات النبات وكما جعل الشمس والقمر سببا لما يخلقه بهما وكما جعل الشفاعة والدعاء سببا لما

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 246

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 199

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 80

يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه¹

أهل السنة وجمهورهم فيقولون بما دل عليه الشرع والعقل قال الله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتَ سَحَابًا نَقَّالًا سَفَّنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 وقال { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 وقال { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16 ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب²

وجماهير المسلمين يقرون بالأسباب التي جعلها الله أسبابا في خلقه وأمره و يقرون بحكمة الله التي يريد بها في خلقه وأمره ويقولون كما قال الله في القرآن حيث قال { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 24 وقال { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } البقرة 26 ومثل هذا كثير في الكتاب و السنة و جمهور المسلمين على ذلك يقولون أن هذا فعل بهذا لا يقولون كما يقول نفاة الأسباب فعل عندها لا بها³

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 24

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة⁴

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ } الفجر 5 أى لدى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } البقرة 197 وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 137

²منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 114

³مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 430

⁴مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

هُمُ الْعَاقِلُونَ { الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا { الفرقان 44¹

العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ { الروم 24

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا { الحج 46 وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ { آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ { الملك 10 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا { الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء²

القنوت دوام الطاعة لله

قال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ { 26 } وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { 27 } الروم 26-27

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل وهو الذي يطيع الله دائما سواء كان في حال الإنتصاب أو في حال السجود كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} الزمر 9¹

قال ابن قتيبة لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة لأن جميع الخلال من الصلاة والقيام فيها والدعاء وغير ذلك يكون عنها وقال أبو الفرج قال الزجاج القنوت هو في اللغة بمعنيين أحدهما القيام والثاني الطاعة والمشهور في اللغة والإستعمال أن القنوت الدعاء في القيام فالقانت القائم بأمر الله ويجوز أن يقع في جميع الطاعات لأنه وإن لم يكن قياما على الرجلين فهو قيام بالنية قلت هذا ضعيف لا يعرف في اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتا والرجل يقوم ماشيا وقائما في أمور ولا يسمى قانتا وهو في الصلاة يسمى قانتا لكونه مطيعا عابدا ولو قنت قاعدا وقائما سمي قانتا وقوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 يدل على أنه ليس هو القيام وإنما هو صفة في القيام يكون بها القائم قانتا وهذه الصفة تكون في السجود أيضا كما قال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما والقنوت في اللغة دوام الطاعة والمصلى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت في ذلك كله فقول القائل إن المشهور في اللغة أنه الدعاء في القيام إنما اخذه من كون هذا المعنى شاع في اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا في القنوت والصلاة وهذا عرف خاص ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو قاعدا أو مضطجعا لكن لما كان الفرض ليس يصح أن يصليه إلا قائما وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم صار القنوت في القيام أكثر وأشهر وإلا فلفظ القنوت في القرآن واللغة ليس مشهورا في هذا المعنى بل ولا أريد به هذا المعنى ولا هو أيضا مشتركا بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ولهذا يفسره المفسرون بذلك وقد روى في ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبي حاتم من النسخة المصرية التي يروى منها الترمذي وغيره من حديث ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة فهذا تفسير السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لألفاظ القنوت في القرآن فصل وكذلك فسروا القنوت في قوله {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} البقرة 116 لكن تنوع كلامهم في طاعة المخلوقات كلها لما رأوا أن من الجن والإنس من يعصي أمر الله الذي بعث به رسله فذكر كل واحد نوعا من القنوت الذي يعم المخلوقات قال ابن أبي حاتم اختلف في قوله {كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ} على أوجه وروى بإسناده الحديث المرفوع كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة وروى عن ابن أبي نجیح عن مجاهد قانتون قال مطيعون يقول طاعة الكافر في سجوده سجود ظله وهو كاره وأيضا عن شريك عن خصيف عن مجاهد {كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ} قال مطيعون كن إنسانا فكان وقال كن حمارا فكان ففسرها مجاهد بالسجود طوعا وكرها وفسر الكره بسجوده ظله وفسرها أيضا بطاعة أمره الكوني وهو قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} يس 82 وهذا الأمر الكوني لا يخرج عنه أحد وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر وهذان الوجهان ذكرهما ابن

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 240 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 548

الأنباري مع ذكره وجها آخر أنها خاصة قال أبو الفرج فإن قيل كيف عم بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع ففيه ثلاثة أجوبه أحدها أن يكون ظاهرها العموم ومعناها معنى الخصوص والمعنى كل أهل الطاعة له قانتون والثاني أن الكفار تسجد ظلالم لله بالغدو والأصال والعشيات فنسب القنوت إليهم بذلك والثالث أن كل مخلوق قانت له بأثر صنعه فيه وجرى أحكامه عليه فذلك دليل على إله كونه ذكرهن ابن الأنباري قال ابن أبي حاتم الوجه الثاني حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال قانتون مصلون قلت وهذا من جنس وصفها بالسجود له والتسبيح قال تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } النور 41 لكن قد يقال فالصلاة صلاة المخلوقات والمؤمنين ولم يرد أن الكافرين يصلون فتكون الآية خاصة ولهذا حكى عن ابن عباس أنه قال هي خاصة قال والوجه الثالث ثم روى بالإسناد المروي عن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة كل له قانتون قال مقرون بالعبودية قال وروى عن أبي مالك نحوه قلت وهذا إخبار عما فطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَسْأَلَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } الأعراف 172 فإن هذه الآية بينه في إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التي فطروا عليها أن الله ربهم وقال صلى الله عليه وسلم كل مولود موله على الفطرة¹

وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت في سورة الروم مجرداً عن الولد فقال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ } الروم 25 ثم قال { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ } 26 { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 27 { الروم 26-27 } فبين أن له ما في السماوات والأرض وأن كلا له قانتون وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولد فاسد ظاهر الفساد وكذلك تخصيصه بالمؤمنين فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والإقتداء وخضوع المخلوقات كلها له فلو خص به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود²

ان الله غنى عن العالمين حي قيوم

ومقتضى كلام بعض الملحددين (مثل ابن حموية) هذا أنه جعل وجوده مشروطاً بوجود العالم وان كان له وجود ما غير العالم كما أن نور العين مشروط بوجود الأجفان وان كان قائماً بالحدقة فعلى هذا يكون الله مفتقراً الى العالم محتاجاً اليه كاحتياج نور العين الى الجفنين وقد قال الله تعالى { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } آل عمران 181 فإذا كان هذا قوله فيمن وصفه بأنه فقير إلى أموالهم ليعطيها الفقراء فكيف قوله فيمن جعل ذاته مفتقرة الى مخلوقاته بحيث لولا مخلوقاته لانتشرت ذاته وتفرقت

¹رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 3

²رسالة في قنوت الأشياء ج: 1 ص: 23

وعدمت كما ينتشر نور العين ويتفرق ويعدم إذا عدم الجفن وقد قال في كتابه { إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتْمَا فَفَطَرَهُمْ إِذْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَاللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلِيمٌ } وقال { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } البقرة 255 لا يؤده لا يثقله ولا يكرثه وقد جاء في الحديث حديث أبي داود ما السماوات والارض وما بينهما في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسي في العرش كذلك الحلقة في الفلاة وقد قال في كتابه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } الزمر 67 وقد ثبت في الصحاح من حديث أبي هريرة وابن عمرو وابن مسعود إن الله يمسك السماوات والارض بيده فمن يكون في قبضته السماوات والارض وكرسيه قد وسع السماوات والارض ولا يؤده حفظهما

وبأمره تقوم السماء والارض وهو الذي يمسكهما ان تزولا أيكون محتاجا اليهما مفتقرا اليهما إذا زالا تفرق وانتشر وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول ان السماوات ثقله او تظله لما في ذلك من احتياجه الى مخلوقاته فمن قال انه في استوائه على العرش محتاج الى العرش كاحتياج المحمول الى حامله فانه كافر لأن الله غنى عن العالمين حتى قيوم هو الغنى المطلق وما سواه فقير اليه مع أن أصل الاستواء على العرش ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الامة وأئمة السنة بل هو ثابت في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل فكيف بمن يقول أنه مفتقر الى السماوات والارض وأنه إذا ارتفعت السماوات والارض تفرق وانتشر وعدم فأين حاجته في الحمل إلى العرش من حاجة ذاته إلى ما هو دون العرش¹

الفتوت والتسبيح أمر زائد على فقر المخلوقات الى الله

قال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } 26 { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 27 { الرُّوم 26-27 قال تعالى { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } آل عمران 83 { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا } الرعد 15 الآية وقال { بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } البقرة 116 فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا

لا يقال طوعا وكرها فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعا وكرها فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له ساجد أو قانت بل ولا مسلم بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم وهم خاضعون مستسلمون قانتون مضطرون من وجوه منها علمهم بحاجتهم وضرورتهم اليه ومنها دعاؤهم إياه عند الإضطرار ومنها خضوعهم واستسلامهم لما يجرى عليهم من أقداره ومشيتته ومنها انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه وهو مما أمر الله به وعصيانهم له في بعض ما أمر به وإن كان هو التوحيد لا

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 186-188

يمنع كونهم قانتين خاضعين مستسلمين كرعا كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم فإنهم خاضعون للدين الذي بعث به رسله وإن كانوا يعصونه في أمور والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعا وكذلك لما يقدره من المصائب فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعا فهو مسلم لله طوعا خاضع له طوعا والسجود مقصوده الخضوع وسجود كل شيء بحسبه سجودا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب وأما فقر المخلوقات الى الله بمعنى حاجتها كلها اليه وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به فهذا أول درجات الإفتقار وهو إفتقارها الى ربوبيته لها وخلقه وإتقانه وبهذا الإعتبار كانت مملوكة له وله سبحانه الملك والحمد وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب فالحدوث دليل إفتقار الأشياء الى محدثها وكذلك حاجاتها الى محدثها بعد احداثه لها دليل إفتقارها فإن الحاجة الى الرزق دليل إفتقار المرزوق الى الخالق الرازق والصواب أن الأشياء مفتقرة الى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه بل فقرها لازم لها لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غنى فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنيا وفقر الأشياء الى الخالق وصف لها وهي معدومة وهي موجودة فاذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر الى الخالق كان معناه أنه لا يوجد الا بالخالق هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل وما أثبتته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف ولكن طائفة تدعى أن افتقارها وخضوعها وخلقها وجريان المشيئة عليها هو تسبيحها وقنوتها وان كان ذلك بلسان الحال ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله وقل للأرض من فجر أنهارها وغرس أشجارها وأخرج نباتها وثمارها فان لم تجبك حوارا والا أجابتك اعتبارا وهذا يقوله الغزالي وغيره وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله {كُلُّ لَه قَانِتُونَ} البقرة 116 قال كل مخلوق قانت له بأمر صنعته فيه وجرى أحكامه عليه فذلك دليل على ذل لربه وهو الذي ذكره الزجاج في قوله {وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} آل عمران 83 قال اسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلهم لا يقدر أحد يمتنع من جيلة جبله الله عليها وهذا المعنى صحيح لكن الصواب الذي عليه جمهور علماء السلف والخلف أن القنوت والاستسلام والتسبيح أمر زائد على ذلك وهذا كقول بعضهم ان سجود الكاره وذل وانقياده لما يريد الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر وكما قال بعضهم في قوله وإن من شيء الا يسبح بحمده قال تسبيحه دلالة على صانعه فتوجب بذلك تسبيحا من غيره والصواب أن لها تسبيحا وسجودا بحسبها والمقصود أن فقر المخلوقات الى الخالق ودلالاتها عليه وشهادتها له أمر فطري فطر الله عليه عباده كما فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات كما قد بسط الكلام على هذا في مواضع¹

يستعمل في حق الله سبحانه قياس الأولى سواء كان تمثيلا أو شمولا

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } الروم 27 فإن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44-47

أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمي الله آيتي موسى برهانين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل والفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } النحل 60 مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المربوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربّه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه وإمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجود لم يلزم من تقديره وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فالحمد لله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء 99 وقوله { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 وقوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الأحقاف 33 وقوله { لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } غافر 57 فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق بني آدم والقدرة عليه أبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك وكذلك استدلاله على ذلك بالنشأة الأولى في مثل قوله { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } الروم 27 ولهذا قال بعد ذلك { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } الروم 27 وقال { إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج 5 الآية وكذلك ما ذكره في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ {79} يس 79-78 الآيات فإن قوله تعالى { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78 قياس حذف إحدى

مقدمته لظهورها والأخرى سالبة كلية قرن معها دليلها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } {78} يس 78 وهذا استفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميما يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبنها على الحرارة والرطوبة ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها ولنحو ذلك من الشبهات والتقدير هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها ولكن هذه السالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء وبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال { يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } يس 79 وقد أنشأها من التراب ثم قال { وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } يس 79 ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء واستحال ثم قال { الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا } يس 80 فبين أنه أخرج النار الحارة اليابسة من البارد الرطب وذلك أبلغ في المنافاة لأن اجتماع الحرارة والرطوبة أيسر من اجتماع الحرارة واليبوسة فالرطوبة تقبل من الانفعال مالا تقبله اليبوسة ثم قال { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ } يس 81 وهذه مقدمة معلومة بالبديهة ولهذا جاء باستفهام التقرير الدال على أن ذلك مستقر معلوم عند المخاطب كما قال سبحانه { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان 33 ثم بين قدرته العامة بقوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82¹

الرب تعالى لا كفو له ولا سمي له ولا مثل له

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبدالله عن جعفر عن سعيد بن جبيرة قال تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {الزمر 67} فجعل صفته التي وصفه بها شركا وقال حدثنا أبي ثنا ابو نعيم ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن قال عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } {الزمر 67} وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره وقوله { عَمَّا يُشْرِكُونَ } {الزمر 67} فكل من جعل مخلوقا مثلا للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه والرب تعالى لا كفو له ولا سمي له ولا مثل له ومن جعله مثل المعدم والممتنع فهو شر من هؤلاء فإنه معطل ممثّل والمعطل شر من المشرك والله ثنى قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس الى الاعتبار بها فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والالهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين وكانت عاقبته الى ما ذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمثيل ولا قياس الشمول الذي

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 446-448 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 299

تستوى أفراده فان ذلك شرك اذ سوى فيه بالمخلوق بل قياس الأولى فانه سبحانه { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
{ الروم 27 فهو أحق من غيره بصفات الكمال وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص¹

الرب تعالى بائن من مخلوقاته

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 ان الله سبحانه أحق بصفات الكمال من كل أحد { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { الروم 27²

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ { الزخرف 84 أى هو إله من فى
السموات وإله من فى الأرض كما قال الله تعالى { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 وكذلك قوله تعالى { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ { الأنعام 3 كما
فسره أئمة العلم كالامام احمد وغيره انه المعبود فى السموات والأرض واجمع سلف الأمة وأئمتها
على ان الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير
تحريف ولا تعطيل ومن غير تكبير ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم انه
ليس كمثل شىء فى صفات الكمال كما قال الله تعالى { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ {2} { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ
يُولَدْ {3} { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4} { الاخلاص 1-4 قال ابن عباس الصمد العليم الذى كمل فى
علمه العظيم الذى كمل فى عظمته القدير الكامل فى قدرته الحكيم الكامل فى حكمته السيد الكامل فى
سؤدده وقال ابن مسعود وغيره هو الذى لا جوف له و الاحد الذى لا نظير له فاسمه الصمد
يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفى النقائص عنه واسمه الاحد يتضمن اتصافه انه لا مثل له³

إثبات صفات الكمال له طرق

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 إثبات صفات الكمال له طرق أحدها ما نبهنا عليه من أن
الفعل مستلزم للقدرة و لغيرها فمن النظر من يثبت أولا القدرة و منهم من يثبت أولا العلم و منهم من
يثبت أولا الإرادة و هذه طرق كثير من أهل الكلام و هذه يستدل عليها بجنس الفعل و هي طريقة
من لا يميز بين مفعول و مفعول كجهنم بن صفوان و من إتبعه و هؤلاء لا يثبتون حكمة و لا
رحمة إذ كان جنس الفعل لا يستلزم ذلك لكن هم أثبتوا بالفعل المحكم المتقن العلم و كذلك تثبت بالفعل
النافع الرحمة و بالغايات المحمودة الحكمة و لكن هم متناقضون فى الإستدلال بالإحكام و الإتيان
على العلم إذ كان ذلك إنما يدل إذا كان فاعلا لغاية يقصدها وهم يقولون إنه يفعل لا لحكمة ثم

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 163-170

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 194

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 250-251

يستدلون بالأحكام على العلم و هو تناقض كما تناقضوا في المعجزات حيث جعلوها دالة على صدق النبي إما للعلم الضروري بذلك وإما لكونه لو لم تدل لزم العجز وهي إنما تدل إذا كان الفاعل يقصد إظهارها ليدل بها على صدق الأنبياء فإذا قالوا إنه لا يفعل شيئاً لشيء تناقضوا وأما الطريق الأخرى في إثبات الصفات وهي الإستدلال بالأثر على المؤثر وأن من فعل الكامل فهو أحق بالكمال والثالثة طريقة قياس الأولى وهي الترجيح والتفضيل وهو أن الكمال إذا ثبت للمحدث الممكن المخلوق فهو للواجب القديم الخالق أولى والقرآن يستدل بهذه وهذه وهذه فالإستدلال بالأثر على المؤثر أكمل كقوله تعالى { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْنا قُوَّةً } فصلت 15 قال الله تعالى { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً } فصلت 15 وهكذا كل ما في المخلوقات من قوة و شدة تدل على أن الله أقوى وأشد وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم وما فيها من علم و حياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة وهذه طريقة يقر بها عامة العقلاء حتى الفلاسفة يقولون كل كمال في المعلوم فهو من العلة وأما الإستدلال بطريق الأولى فكقوله { وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } النحل 60 ومثل قوله { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 وأمثال ذلك مما يدل على أن كل كمال لا نقص فيه يثبت للمحدث المخلوق الممكن فهو للقديم الواجب الخالق أولى من جهة أنه أحق بالكمال لأنه أفضل و ذلك من جهة أنه هو جعله كاملاً وأعطاه تلك الصفات وإسمه العلى يفسر بهذين المعنيين يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً فهو أحق بصفات الكمال ويفسر بأنه العالى عليهم بالقهر و الغلبة فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون وهذا يتضمن كونه خالفاً لهم وربما لهم وكلاهما يتضمن أنه نفسه فوق كل شيء فلا شيء فوقه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء فلا يكون شيء قبله ولا بعده ولا فوقه ولا دونه كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وأنتى به على ربه وإلا فلو قدر أنه تحت بعض المخلوقات كان ذلك نقصاً وكان ذلك أعلى منه وإن قيل إنه لا داخل العالم ولا خارجه كان ذلك تعطيلاً له فهو منزّه عن هذا وهذا هو العلى الأعلى مع أن لفظ العلى والعلو لم يستعمل في القرآن عند الإطلاق إلا في هذا وهو مستلزم لذينك لم يستعمل في مجرد القدرة و لا في مجرد الفضيلة ولفظ العلو يتضمن الإستعلاء وغير ذلك من الأفعال إذا عدى بحرف الإستعلاء دل على العلو كقوله { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } الأعراف 54 فهو يدل على علوه على العرش والسلف فسروا الإستواء بما يتضمن الإرتفاع فوق العرش كما ذكره البخاري في صحيحه عن أبي العالية في قوله { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف 54 قال إرتفع وكذلك رواه ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم رواه من حديث آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر عن أبي الربيع عن أبي العالية { ثُمَّ اسْتَوَى } الأعراف 54 قال إرتفع¹

الله سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السماوات وأهل الأرض

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 356-359

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {الروم 27}

وأما قرب الرب من قلوب المؤمنين وقرب قلوبهم منه فهذا أمر معروف لا يجهل فان القلوب تصعد اليه على قدر ما فيها من الايمان والمعرفة والذكر والخشية والتوكل وهذا متفق عليه بين الناس كلهم بخلاف القرب الذي قبله فان هذا ينكره الجهمي الذي يقول ليس فوق السموات رب يعبد ولا اله يصلى له ويسجد وهذا كفر وفند والاول تنكره الكلابية ومن يقول لا تقوم الامور الاختيارية به ومن اتباع الأشعري من اصحاب أحمد وغيره من يجعل الرضا والغضب والفرح والمحبة هي الارادة وتارة يجعلونها صفات أخرى قديمة غير الارادة وهذا القرب الذي فى القلب المتفق عليه هو قرب المثل العلمى فى الحقيقة وذلك مستلزم لمحبتة فان من احب شخصا تمثل فى قلبه ووجده قريبا الى قلبه واذا ذكره حضر فى قلبه وقد يحصل للانسان بمحبة المخلوق فناء عن نفسه كما قال القائل غبت بك عنى فظننت أنك أنى ومنه قول القائل حاضر فى القلب أبصره لست أنساه فاذكره وقول الآخر مثالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب وهذا هو المثل الأعلى الذى قال الله فيه { وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ } {الروم 27} وكقوله { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } {الزخرف 84} { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } {الأنعام 3} وهو المثل فى قوله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } {الشورى 11} فانه سبحانه لا يماثله شىء اصلا فنفسه المقدسة لا يماثلها شىء من الموجودات وصفاتها لا يماثلها شىء من الصفات وما فى القلوب من معرفته لا يماثله شىء من المعارف ومحبتة لا يماثلها شىء فله المثل الأعلى كما أنه فى نفسه الأعلى وقد قال تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } {البقرة 17} { وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } {البقرة 265} وغير ذلك ويشبه مثل هذا بمثل هذا وذلك يتضمن تشبيه ذات هذا بذات هذا فان الخبر عن الأشياء انما يكون بعد معرفتها وهو سبحانه أخير اولا عن المثل العلمى الذى يسمى الصورة الذهنية ثم اذا كان الخبر صادقا فانه يستدل به على أن الحقيقة مطابقة لما تصوره ولهذا كان الناس انما يعبرون عن الشىء ويصفونه بما يعرفونه وتتنوع اسماؤه عندهم لتنوع ما يعرفونه من صفاته ومن رأى الله عز وجل فى المنام فانه يراه فى صورة من الصور بحسب حال الرأى ان كان صالحا رآه فى صورة حسنة ولهذا رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة والمشاهدات التى قد تحصل لبعض العارفين فى اليقظة كقول ابن عمر لابن الزبير لما خطب اليه ابنته فى الطواف أتحدثنى فى النساء ونحن نترأى الله عز وجل فى طوافنا وأمثال ذلك انما يتعلق بالمثال العلمى المشهود لكن رؤية النبى لربه فيها كلام ليس هذا موضعه فان ابن عباس قال رآه بفؤاده مرتين فالنبى مخصوص بما لم يشركه فيه غيره وهذا المثال العلمى يتنوع فى القلوب بحسب المعرفة بالله والمحبة له تنوعا لا ينحصر بل الخلق فى ايمانهم بالله وكتابه وسوله متنوعون فلكل منهم فى قلبه للكتاب والرسول مثال علمى بحسب معرفته مع اشتراكهم فى الايمان بالله وبكتابه وبرسوله فهم متنوعون فى ذلك متفاضلون وكذلك ايمانهم بالمعاد والجنة والنار وغير ذلك من أمور الغيب وكذلك ما يخبر به الناس بعضهم بعضا من أمور الغيب هو كذلك بل يشاهدون الأمور ويسمعون الأصوات وهم متنوعون فى الرؤية والسمع فالواحد منهم يتبين له من حال المشهود ما لم يتبين للآخر حتى قد يختلفون فيثبت هذا ما لا يثبت الآخر فكيف فيما اخبروا به من الغيب والنبى صلى الله عليه وسلم أخبرهم عن الغيب بأحاديث كثيرة وليس كلهم سمعها مفصلة والذين سمعوا ما سمعوا ليس كلهم فهم مراده بل هم

متفاضلون في السمع والفهم كتفاضل معرفتهم وإيمانهم بحسب ذلك حتى يثبت أحدهم أموراً كثيرة والآخر لا يثبتها لا سيما من علق بقلبه شبه النفاة فهو ينفى ما اثبتته الكتاب والسنة وما عليه أهل الحق وهذا يبين لك أن هؤلاء كلهم مؤمنون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر وإن كانوا متفاضلين في الإيمان إلا من شاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين ثم هم يتفاضلون في العلم والارادة فإذا كان أحدهم أكثر محبة لله وذكره وعبادة كان الإيمان عنده أقوى وارسخ من حيث المحبة والعبادة لله وإن كان لغيره من العلم بالأسماء والصفات ما ليس له فصاحب المحبة والذكر والتأله يحصل له من حضور الرب في قلبه وأنسه به ما لا يحصل لمن ليس مثله وكذلك الإيمان بالرسول قد يكون أحد الشخصين أعلم بصفاته والآخر أكثر محبة له وكذلك الأشخاص المشهورون قد يكون الرجل أعلم بما رأى والآخر أكثر محبة له والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وتعارفها تناسبها وتشابهها فيما تعلمه وتحبه وتكرهه¹

فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ويقال هو في قلوبهم والمراد معرفته ومحبته وعبادته وهو المثل العلمي ليس المراد نفس ذاته كما يقول الإنسان لغيره أنت في قلبي وما زلت في قلبي وبين عيني ويقال ساكن في القلب يعمره لست أنساه فأذكره²

فهو سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السماوات وأهل الأرض ومن هذا الباب ما يرويه النبي عن ربه قال يقول الله أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفناه فأخبر أن شفنيه تتحرك به أي باسمه وكذلك قوله في الحديث الصحيح عبدي مرضت فلم تعدني فيقول العبد رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده فقال لوجدتني عنده ولم يقل لوجدتني إياه وهو عنده أي في قلبه والذي في قلبه المثل العلمي وقال تعالى عبدي جعت فلم تطعمني فيقول وكيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي ولم يقل لوجدتني قد أكلته وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي قال يقول الله تعالى من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وفي رواية فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولإن سألتني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام أو الاتحاد العام أو وحدة الوجود وقد يحتج به من يقول بالخاص من ذلك كأشباه النصارى والحديث حجة على الفريقين فإنه قال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب فأثبت ثلاثة وليا له وعدوا يعادي وليه ويميز بين نفسه وبين وليه وعدو وليه فقال من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ولكن دل ذلك على أن وليه الذي والاه فصار

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 250-253

²القواعد النورانية ج: 3 ص: 367

يحب ما يحب ويبغض ما يبغض ويوالي من يوالي ويعادي من يعادي فيكون الرب مؤذنا بالحرب لمن عاداه بأنه معاد لله ثم قال تعالى وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ففرق بين العبد المتقرب والرب المتقرب إليه ثم قال ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض ثم قال فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره وبطنه وظهره ورأسه وشعره وهو كل شيء أو في كل شيء قبل التقرب وبعده وعند الخاص وأهل الحلول صار هو وهو كالنار والحديد والماء واللبن لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل ثم قال تعالى فبي يسمع وببي يبصر وببي يبطش وببي يمشي وعلى قول هؤلاء الرب هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي والرسول إنما قال فبي ثم قال ولئن سألتني لآعطيته ولئن استعذني لأعيذنه فجعل العبد سائلا مستعيذا والرب مسؤولا مستعادا به وهذا يناقض الاتحاد وقوله فبي يسمع مثل قوله ما تحركت بي شفاته يريد به المثال العلمي وقول الله فيكون الله في قلبه أي معرفته ومحبته وهده وموالاته وهو المثل العلمي فبذلك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشي والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا فيقول أنت في قلبي وفي فؤادي وما زلت بين عيني ومنه قول القائل مثالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب وقول الآخر ومن عجبني أني أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقيهم قلبي وهم بين أضلعي ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو في نفسه ليست ذاته في عين محبه ولا في قلبه ولكن قد يشتهه هذا بهذا حتى يظن الغالطون أن نفس المحبوب المعبود في ذات المحب العابد ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل فجعلوا المعقول والعقل والعاقل شيئا واحدا ولم يميزوا بين حلول مثال المعلوم وبين حلول ذاته وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته وبمحبوبه عن محبته وبمشهوده عن شهادته وبمعبوفه عن معرفته فيفنى من لم يكن عن شهود العبد لا أنه نفسه يعدم ويفنى في من لم يزل في شهوده فينبغي أن يعرف هذا النوع من الكلام فإنه تتحل به إشكالات كثيرة فإن هذا موجود في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين في عامة الطوائف مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنى صحيح كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد إذا كانا متفقين فيما يحببان ويبغضان ويواليان ويعاديان فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان وبينهما اتحاد ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر كاتحاد النار والحديد والماء واللبن أو النفس والبدن وكذلك لفظ الحلول والسكنى والتخلل وغير ذلك¹

في قلوب العباد وأرواحهم يظهر المعروف المحبوب المعظم واسماؤه

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} أن المعروف المحبوب في قلب العارف المحب له أحكام واخبار

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 333-337

صادقة كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } الزخرف 84
 وقوله تعالى { **وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { الروم 27}** وقوله تعالى { **وَأَنَّهُ تَعَالَى**
جَدُّ رَبِّنَا { الجن 3} وقوله { **سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى { الأعلى 1}** وقوله في الاستفتاح سبحانك اللهم
 وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ويحصل لقلوب العارفين به استواء وتجل لا
 يزول عنها يقربه كل أحد لكن أهل السنة يقرون بكثير مما لا يعرفه أهل البدعة كما يقرون باستوائه
 على العرش ومثل قوله عبدى مرضت فلم تعدنى فيقول اى رب كيف أعودك وانت رب
 العالمين فيقول اما علمت ان عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده فقد أخبر أنه عند
 عبده وجعل مرضه مرضه والانسان قد تكون عنده محبة وتعظيم لامير أو عالم أو مكان بحيث يغلب
 على قلبه ويكثر من ذكره وموافقته فى اقواله واعماله فيقال ان أحدهما الآخر كما يقال ابو يوسف ابو
 حنيفة ويشبه هذا من بعض الوجوه ظهور الاجسام المستنيرة وغيرها فى الأجسام الشفافة كالمرآة
 المصقولة والماء الصافى ونحو ذلك بحيث ينظر الانسان فى الماء الصافى السماء والشمس والقمر
 والكواكب كما قال بعضهم اذا وقع السماء على صفاء كدر انى يحركه النسيم ترى فيه
 السماء بلا امتراء كذلك كذاك البدر يبدو والنجوم وكذا قلوب ارباب التجلى يرى فى صفوها الله
 العظيم وكذلك ترى فى المرآة صورة ما يقابلها من الشمس والقمر والوجوه وغير ذلك ثم قد
 يحاذى تلك المرآة مرآة اخرى فتري فيها الصورة التى رؤيت فى الاولى ويتسلل الامر فيه وهذه
 المرآى المنعكسة تشبه من وجه بعيد ظهور اسم المحبوب المعظم فى الورق بالخط والكتابة سواء
 كان بمداد او بتنقيير او بغير ذلك فانه هنا لم يظهر الا حروف اسمه فى جسم لا حس له ولا حركة
 وفى الأجسام الصقيلة ظهرت صورته لكن من غير شعور بالمظهر ولا حركة فالاول مظهر اسمه
 وهذا مظهر ذاته واما فى قلوب العباد وأرواحهم فيظهر المعروف المحبوب المعظم واسماؤه فى
 القلب الذى يعلمه ويحبه وذلك نوع أكمل وارفع من غيره بل ليس له نظير والى ذلك اشار بقوله
 { **كُنْتُ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ { المجادلة 22}**

الله سبحانه قادر على اماته البشر والجن ثم احيائهم

قال تعالى { **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ { 26}** } **وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ**
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { 27} } الروم 26-27
 وقد نطق القرآن بأنه سبحانه يعيدهم ويعيد امثالهم إذا شاء وكلاهما واحد²

و القرآن و سائر الكتب تنطق بأن الملائكة عبيد مدبرون كما قال سبحانه { **لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ**
أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا
{ النساء 172} } وقال تعالى { **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ { 26}** } لا يسبقونه
 بالقول وهم بأمره يعملون { **27** } يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى { **28** }
 الانبياء 26-28 } وقال تعالى { **وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَنْ**

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 28

²دقائق التفسير ج: 3 ص: 26

يَأْتِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى { النجم 26 و الله سبحانه و تعالى قادر على أن يميتهم ثم يحييهم كما هو قادر على إماتة البشر و الجن ثم إحيائهم و قد قال سبحانه { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 و قد ثبت الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم من غير وجه و عن غير واحد من أصحابه أنه قال إن الله إذا تكلم بالوحي أخذ الملائكة غشي و في رواية إذا سمعت الملائكة كلامه صعقوا و في رواية سمعت الملائكة كجر السلسلة على صفوان فيصعقون فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق فينادون الحق الحق فقد أخبر في هذه الأحاديث الصحيحة أنهم يصعقون صعوق الغشي فإذا جاز عليهم صعوق الغشي جاز عليهم صعوق الموت¹

" كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء "

"

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { الروم 27 و القول الذي عليه السلف و جمهور العقلاء من أن الأجسام تتقلب من حال إلى حال إنما يذكره عن الفلاسفة و الأطباء و هذا القول و هو القول في خلق الله للأجسام التي يشاهد حدوثها أنه يقبلها و يحيلها من جسم إلى جسم هو الذي عليه السلف و الفقهاء قاطبة و الجمهور ولهذا يقول الفقهاء في النجاسة هل تطهر بالإستحالة أم لا كما تستحيل العذرة رمادا و الخنزير و غيره ملحا و نحو ذلك و المنى الذي في الرحم يقبله الله علقه ثم مضغه و كذلك الثمر يخلق بقلب المادة التي يخرجها من الشجرة من الرطوبة مع الهواء و الماء الذي نزل عليها غير ذلك من المواد التي يقبلها ثمرة بمشيئته و قدرته و كذلك الحبة يفلقها و تتقلب المواد التي يخلقها منها سنبله و شجرة و غير ذلك و هكذا خلقه لما يخلقه سبحانه و تعالى كما خلق آدم من الطين فقلب حقيقة الطين فجعلها عظما و لحما و غير ذلك من أجزاء البدن و كذلك المضغة يقبلها عظما و غير عظام قال الله تعالى { وَاقْدُرْ خَلْقَنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ { 12 } ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ { 13 } ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ { 14 } ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ { 15 } ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ { 16 } } المؤمنون 12-16 و كذلك النار يخلقها بقلب بعض أجزاء الزناد نارا كما قال تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا { يس 80 } فنفس تلك الأجزاء التي خرجت من الشجر الأخضر جعلها الله نارا من غير أن يكون كان في الشجر الأخضر نار أصلا كما لم يكن في الشجرة ثمرة أصلا و لا كان في بطن المرأة جنين أصلا بل خلق هذ الموجود من مادة غيره بقلبه تلك المادة إلى هذا و بما ضمه إلى هذا من مواد آخر و كذلك الإعادة يعيده بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم و منه يركب وهو إذا أعاد الإنسان في النشأة الثانية لم تكن تلك النشأة مماثلة لهذه فإن هذه كائنة فاسدة و تلك كائنة لا فاسدة

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 35- 36 مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 260

بل باقية دائمة و ليس لأهل الجنة فضلات فاسدة تخرج منهم كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال أهل الجنة لا يبولون و لا يتغوطون و لا يبصقون و لا يتمخطون وإنما هو رشح كرشح المسك و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال يحشر الناس حفاة عراة غرلا ثم قرأ {ي كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ عَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} {الأنبياء 104} فهم يعودون غلفا لا مختونين وقال الحسن البصري ومجاهد كما بدأكم فخلقكم في الدنيا و لم تكونوا شيئا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة بدأهم من التراب و إلى التراب يعودون كما قال تعالى {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} طه 55 و قال {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} {الأعراف 25} وهو قد شبه سبحانه إعادة الناس في النشأة الأخرى بإحياء الأرض بعد موتها في غير موضع كقوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُفِّتَ بِهِ السُّفُنَاءُ لِيَلِدَ مِنْهُ مِائِدٌ مِّنَ السَّمَاءِ فَاخْرَجْنَا بِهِ مِنَ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {الأعراف 57} و قال {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا هَا وَأَقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} {ق 7} إلى قوله {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} {ق 11} و قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَ تَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ} {5} {ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {الحج 5-6} و قال تعالى {وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} {فاطر 9} وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق و أنه يحيى العظام و هي رميم و أنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} {الروم 27} و يخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} {98} {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ} {99} {الاسراء 98-99} و قال تعالى {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} {49} {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا} {50} {أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} {51} {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا} {52} {الاسراء 49-52} و قال تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {يس 81} و قال تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {الأحقاف 33} و قال {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} {58} {أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} {59} {نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} {60} {عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَ نُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} {61} {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} {62} {الواقعة 58-62} و المراد بقدرته على خلق مثلهم هو قدرته على إعادتهم كما أخبر بذلك في قوله {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} {الأحقاف 33} فإن القوم ما كانوا ينازعون في أن الله يخلق في هذه الدار ناسا أمثالهم فإن هذا هو الواقع المشاهد يخلق قرنا بعد قرن يخلق الولد من الوالدين و هذه هي النشأة الأولى و قد علموها و بها إحتج عليهم على قدرته على النشأة الآخرة كما قال {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} {الواقعة 62} و قال {وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ} {78} {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} {79} {يس 78-79} و قال {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَاقَةِ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِيِّنَ لَكُمْ {الحج 5} ولهذا قال
{ عَلَى أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَالُكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } الواقعة 61 قال الحسن بن الفضل البجلي الذي
عندي في هذه الآية { وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ } {61} وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى {62}
الواقعة 61- 62 أي أخلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون كيف شئت و ذلك أنكم علمتم
النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات و ليست الأخرى كذلك و معلوم أن النشأة الأولى كان
الإنسان نطفة ثم علقة ثم مضغة مخلقة ثم ينفخ فيه الروح و تلك النطفة من منى الرجل و المرأة وهو
يعذبه بدم الطمث الذي يربي به الجنين في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة و ظلمة الرحم و ظلمة البطن
و النشأة الثانية لا يكونون في بطن امرأة و لا يغذون بدوم و لا يكون أحدهم نطفة رجل و امرأة ثم
يصير علقة بل ينشئون نشأة أخرى و تكون المادة من التراب كما قال { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى } طه 55 و قال تعالى { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ
{الأعراف 25} {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} {17} ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} {18} {نوح 17-
18 و في الحديث أن الأرض تمطر مطرا كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات كما
قال تعالى { كَذَلِكَ الْخُرُوجُ } ق 11 { كَذَلِكَ النُّشُورُ } فاطر 9 { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس يتفقان و يتماثلان و يتشابهان من وجه
ويفترقان و يتنوعان من وجه آخر ولهذا جعل المعاد هو المبدأ و جعل مثله أيضا فباعتماد إتيان المبدأ
والمعاد فهو هو و بإعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله و هكذا كل ما أعيد فلفظ الإعادة يقتضي
المبدأ و المعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام و الأعراض كإعادة الصلاة و غيرها فإن النبي صلى الله
عليه و سلم مر برجل يصلي خلف الصف وحده فأمره أن يعيد الصلاة و يقال للرجل أعد كلامك و
فلان قد أعاد كلام فلان بعينه و يعيد الدرس فالكلام هو الكلام و إن كان صوت الثاني غير صوت
الأول و حركته و لا يطلق القول عليه أنه مثله بل قد قال تعالى { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى
أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } الإسراء 88 و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تكلم
بكلمة أعادها ثلاثا و إن كان يسمى مثلا مقيدا حتى يقال لمن حكي كلام غيره هكذا قال فلان
أي مثل هذا قال و يقال فعل هذا عودا على بدء إذا فعله مرة ثانية بعد أولى و منه البئر البدي و البئر
العادي فالبدي التي ابتدئت و العادي التي أعيدت و ليست بنسبة إلى عاد كما قيل و يقال إستعدته
الشيء فأعادته إذا سألته ان يفعله مرة ثانية و منه سميت العادة يقال عادة و إعتاده و تعوده أي صار
عادة له و عود كلبه الصيد فتعوده وهو المعاودة و المعاودة الرجوع إلى الأمر الأول و يقال الشجاع
معاود لأنه لا يمل المراس و عاودته الحمى و عاوده بالمسألة أي سأله مرة بعد مرة و تعاود القوم في
الحرب و غيرها إذا عاد كل فريق إلى صاحبه و العواد بالضم ما أعيد من الطعام بعد ما أكل منه
مرة أخرى و عواد بمعنى عد مثل نزال بمعنى أنزل ففي جميع هذه المواضع يستعمل لفظ
الإعادة بإعتبار الحقيقة فإن الحقيقة الموجودة في المرة الثانية هي الأولى و إن تعدد الشخص و لهذا
يقال هو مثله و يقال هذا هو هذا و كلاهما صحيح و أعني بالحقيقة الأمر الذي يختص بذلك الشخص
ليس المراد القدر المشترك بين الفاعلين فإن من فعل مثل فعل غيره لا يقال أعاده و إنما يقال حاكاه و
شابهه بخلاف ما إذا فعلا ثانيا مثل ما فعل أولا فإنه يقال أعاد فعله و كذلك يقال لمن أعاد كلام غيره
قد أعاده و لا يقال لمن أنشأ مثله قد أعاده ويقال قريء على هذا و أعاد على هذا وهذا يقرأ أي يدرس
و هذا يعيد و لو كان كلاما آخر مما يماثله لم يقل فيه يعيد و كذلك من كسر خاتما أو غيره من
المصوغ يقال أعده كما كان و يقال من هدم دارا أعدها كما كانت بخلاف من أنشأ أخرى مثلها فإن
هذا لا يسمى معيدا و المعاد يقال فيه هذا هو الأول بعينه و يقال هذا مثل الأول من كل وجه و نحو
ذلك من العبارات الدالة على أنه هو هو من وجه و هو مثله من وجه و بهذا تزول الشبهات

الواردة على هذا الموضوع كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان و نحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل و إنما يعاد بالإتيان بمثله و إن قال بعض المتكلمين أنه لا مغايرة أصلا بوجه من الوجوه و الإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب و هي الإعادة التي فهمها المشركون و المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و هي التي يدل عليها لفظ الإعادة و المعاد هو الأول بعينه و إن كان بين لوازم الإعادة و لوازم البداية فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أعيد الأول ليس الجسد الثاني مابينا للأول من كل وجه كما زعم بعضهم ولا أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم وكما إنه سبحانه خلق الإنسان ولم يكن شيئا كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئا وعلى هذا فالإنسان الذي صار ترابا و نبت من ذلك التراب نبات آخر أكله إنسان آخر وهلم جرا و الإنسان الذي أكله إنسان أو حيوان و أكل ذلك الحيوان إنسانا آخر ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان و هذا الإنسان و صار كل منهما ترابا كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا و يعاد هذا من التراب و إنما يبقى عجب الذنب منه خلق و منه يركب و أما سائر فعدم فيعاد من المادة التي إستحال إليها فإذا إستحال في القبر الواحد ألف ميت و صاروا كلهم ترابا فإنهم يعادون ويقومون من ذلك القبر و ينشئهم الله تعالى بعد أن كانوا عدما محضا كما أنشأهم أولا بعد أن كانوا عدما محضا و إذا صار ألف إنسان ترابا في قبر أنشأ هؤلاء من ذلك القبر من غير أن يحتاج أن يخلقهم كما خلقهم في النشأة الأولى التي خلقهم منها من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة و جعل نشأتهم بما يستحيل إلى أبدانهم من الطعام و الشراب كما يستحيل إلى بدن أحدهم ما يأكله من نبات و حيوان و كذلك لو أكل إنسانا أو أكل حيوانا قد أكل إنسانا فالنشأة الثانية لا يخلقهم فيها بمثل هذه الإستحالة بل يعيد الأجساد من غير أن ينقلهم من نطفة إلى علقة إلى مضغة و من غير أن يغذوها بدم الطمث و من غير أن يغذوها بلبن الأم و بسائر ما يأكله من الطعام و الشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي إستحالت إلي أبدانهم فقد غلط و حينئذ إذا أكل إنسان إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية و هو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية و معلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما و شرابا ثم يصير كلوسا كالثرثرة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله و يأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما و اللحم لحما و العرق عرقا و هذا في الرزق كإستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة و كما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا و فاكهة و لحما ثم يجعلها كلوسا و كيموسا ثم دما ثم عظما و لحما و عروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال {وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} الواقعة 61 و لا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الإستحالات التي كانت في النشأة الأولى و بهذا يظهر الجواب عن قوله البدن دائما في التحلل فإن تحلل البدن ليس بأعجب من إنقلاب النطفة علقة و العلقة مضغة و حقيقة كل منهما خلاف حقيقة الأخرى و أما البدن المتحلل فالأجزاء الثانية تشابه الأولى و تماثلها و إذا كان في الإعادة لا يحتاج إلى إنقلابه من حقيقة إلى حقيقة فكيف بإنقلابه بسبب التحلل و معلوم أن من رأي شخصا و هو شاب ثم رآه و هو شيخ علم أن هذا هو ذلك مع هذه الإستحالة و كذلك سائر الحيوان و النبات كمن غاب عن شجرة مدة ثم جاء فوجدها علم أن هذه هي الأولى مع أن التحلل و الإستحالة ثابت في سائر الحيوان و النبات كما هو في بدن الإنسان و لا يحتاج عاقل في إعتقاده أن هذه الشجرة هي الأولى و أن هذه الفرس هي التي كانت عنده من سنين و لا أن هذا الإنسان هو الذي رآه من عشرين سنة إلى أن يقدر بقاء أجزاء أصلية لم تتحلل و لا يخطر هذا ببال أحد و لا و لا يقتصر العقلاء في قولهم هذا هو ذلك على تلك الأجزاء التي لا تعرف و لا تتميز عن غيرها بل إنما يشيرون إلى جملة الشجرة و الفرس و الإنسان مع أنه قد يكون كان صغيرا فكبر و لا يقال إنما كان

هو ذلك باعتبار أن النفس الناطقة و احدة كما زعمه من ادعى أن البدن الثاني ليس هو ذلك الأول و لكن المقصود جزاء النفس بنعيم أو عذاب ففي أي بدن كانت حصل المقصود فإن هذا أيضا باطل مخالف للكتاب و السنة و إجماع السلف مخالف للمعقول من الإعادة فإننا قد ذكرنا أن العقلاء كلهم يقولون هذا الفرس هو ذلك و هذه الشجرة هي تلك التي كانت من سنين مع علم العقلاء أن النبات ليس له نفس ناطقة تفارقه و تقوم بذاتها و كذلك يقولون مثل هذا في الحيوان و في الإنسان مع أنه لم يخطر بقلوبهم أن المشار إليه بهذا و ذلك نفس مفارقة بل قد لا يخطر هذا بقلوبهم فدل على أن العقلاء كانوا يعلمون أن هذا البدن هو ذلك مع وجود الإستحالة و علم بذلك أن ما ذكر من الإستحالة لا ينافى أن يكون البدن الذي يعاد في النشأة الثانية هو هذا البدن و لهذا يشهد البدن المعاد بما عمل في الدنيا كما قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} يس65 و قال تعالى { حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {20} وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {21} فصلت 21- 22¹

طريقة القرآن في بيان امكان المعاد

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} والايمن بالله واليوم الآخر يتضمن الايمان بالمبدأ والمعاد وهو الايمان بالخلق والبعث كما جمع بينهما في قوله تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } {البقرة 8} وقال تعالى { مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } لقمان 28 وقال تعالى { اللَّهُ بِيَدِ الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } {الروم 211}²

وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا { لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } {البقرة 55} قال { فَأَخَذْتُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {56} {البقرة 55-56} وعن { الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ } {البقرة 243} وعن { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 248-259

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 30

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ تَمَّ بَعْتُهُ {البقرة 259} وعن ابراهيم اذ قال { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } البقرة 260 القصة وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما فى قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ {الحج 5} وقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } {78} قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ {79} يس 78-79 { قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } {الإسراء 51} فى قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } {الروم 27} وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فان خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما فى قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } {الأحقاف 33} وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما فى قوله { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا } {الأعراف 57} الى قوله { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } {الأعراف 57} ¹

ذكر اول الخلق ادل على إمكان الاعادة

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} فما لا يكون موجودا معيننا لا يعقل لا معيننا ولا مطلقا ولكن يقدر تقديرا فى الذهن كما تقدر الممتنعات يبين ذلك أن العلم بكون الشيء ممكنا فى الخارج يكون العلم بوجوده أو بوجود ما ذلك الشيء أولى بالوجود منه كما يذكره الله فى كتابه فى تقرير إمكان المعاد كقوله { لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } غافر 57 وقوله { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } {الروم 27} وقوله { أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ } {37} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ } {38} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ } {39} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ } {40} { القيامة 37-40} وقوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {الأحقاف 33} وقوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78 الى قوله { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } يس 81 وأمثال ذلك مما يدل على أن إعادة الخلق أولى بالإمكان من ابتدائه وخلق الصغير أولى بالإمكان من خلق العظيم فأما مالا يعلم أنه ممكن إذا عرض على العقل ولم يعلم امتناعه فإمكانه ذهني بمعنى عدم العلم بالامتناع ليس إمكانه خارجيا بمعنى العلم بالإمكان فى الخارج ²

و قد قال فى سورة القيامة { أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ } {37} ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ } {38} فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ } {39} أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ } {40} { القيامة 37-40}

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224-225 و الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 320

²منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 370

فهنا نذكر هذا على إمكان النشأة الثانية التي تكون من التراب و لهذا قال في موضع آخر { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } الحج 5 ففي القيامة إستدل بخلقه من نطفة فإنه معلوم لجميع الخلق و في الحج ذكر خلقه من تراب فإنه قد علم بالأدلة القطعية و ذكر أول الخلق أدل على إمكان الإعادة و أما هنا فالمقصود ذكر ما يدل على الخالق تعالى إبتداء فذكر أنه خلق الإنسان من علق و هو من العلقة الدم يصير مضغة و هو قطعة لحم كاللحم الذي يمضغ بالقم ثم تخلق فتصور كما قال تعالى { ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ } الحج 5 فإن الرحم قد يذفها غير مخلقة فبين للناس مبدأ خلقهم و يرون ذلك بأعينهم و هذا الدليل و هو خلق الإنسان من علق يشترك فيه جميع الناس فإن الناس هم المستدلون و هم أنفسهم الدليل و البرهان و الآية فالإنسان هو الدليل و هو المستدل كما قال تعالى { وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } الذاريات 21 و قال { سَتُرَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ } فصلت 53 و هذا كما قال في آية أخرى { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } الطور 35 و هو دليل يعلمه الإنسان من نفسه و يذكره كلما تذكر في نفسه و فيمن يراه من بني جنسه فيستدل به على المبدأ و المعاد كما قال تعالى { وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أُنذَا مَا مِتَّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا } 66 { أَوَلَمْ يَذْكُرِ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } 67 { مريم 66-67 } و قال تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } 77 { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } 78 { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } 79 { يس 77-79 } وكذلك قال زكريا لما تعجب من حصول لد على الكبر فقال { قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا } 8 { قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } 9 { مريم 8-9 } و لم يقل إنه أهون عليه كما قال في المبدأ و المعاد **{ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ }**

{ الروم 27 } و قال سبحانه { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } العلق 2 بعد أن قال { الَّذِي خَلَقَ } العلق 1 فأطلق الخلق الذي يتناول كل مخلوق ثم عين خلق الإنسان فكان كلما يعلم حدوثه داخلا في قوله { الَّذِي خَلَقَ } العلق 1 و ذكر بعد الخلق التعليم الذي هو التعليم بالقلم و تعليم الإنسان ما لم يعلم فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة و لم يقل هنا هدى فيذكر الهدى العام المتناول للإنسان و سائر الحيوان كما قال في موضع آخر { سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } 1 { الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى } 2 { وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } 3 { الأعلى 1-3 } و كما قال موسى { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } طه 50 لأن هذا التعليم الخاص يستلزم الهدى العام و لا ينعكس و هذا أقرب إلى إثبات النبوة فإن النبوة نوع من التعليم و ليس جعل الإنسان نبيا بأعظم من جعله العلقة إنسانا حيا عالما ناطقا سميعا بصيرا متكلما قد علم أنواع المعارف كما أنه ليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته و القادر على المبدأ كيف لا يقدر على المعاد و القادر على هذا التعليم كيف لا يقدر على ذلك التعليم و هو بكل شيء عليم و لا يحيط أحد من علمه إلا بما شاء¹

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 261-267

لطائف لغوية

1-قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الروم 21 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹

2-قال تعالى { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } {26} وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {27} الروم 26-27 القنوت هو دوام الطاعة و الثبات عليه²

3-قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} عزيز منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب حكيم منزه عن السفه³

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {الروم 27} (ناقص ن م الموضوع غير واضح) وأما أفعاله المتعدية إلى المفعول به الحادثة كقوله وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ومثل هذا كثير في القرآن والاحتجاج به ظاهر على قول الجمهور الذين يجعلون الخلق غير المخلوق وهو الصواب فإن الذين يقولون الخلق هو المخلوق قولهم فاسد وقد بينا فساده في غير هذا الموضوع وشبهتهم أنه لو كان غيره لكان إن كان قديماً لزم قدم المخلوق وإن كان محدثاً احتاج إلى خلق آخر فيلزم التسلسل وإن كان قائماً به فيكون محلاً للحوادث وقد أجابهم الناس عن هذا كل قوم بجواب بين فساد قولهم وطائفة منعت قدم المخلوق كالإرادة فإنهم سلموا أنها قديمة مع حدوث المراد وطائفة منعت قيامه به وقالت لا يقوم به الخلق فلا يكون محلاً للحوادث فإذا قالوا إن الخلق هو المخلوق ولا يقوم به فلان يجوز أن يكون غير المخلوق ولا يقوم به أولى وطائفة قالت لا نسلم أنه إذا افتقر المخلوق المنفصل إلى خلق أن يفتقر ما يقوم به من الخلق إلى خلق آخر بل يكتفي فيه القدرة والمشية فإنكم إذا جوزتم وجود الحادث الذي يباينه بمجرد القدرة والمشية فوجود ما لا يباينه بها أولى بالجواز وهؤلاء وغيرهم يمانعونهم في قيام الحوادث ب⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²شرح العمدة ج: 4 ص: 157 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 224

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁴العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 66-68

الروم 28-32

{ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {29} فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {32}

بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {الروم 28} وقد بين الله سبحانه انه احق بالكمال من غيره وان غيره لا يساويه في الكمال في مثل قوله تعالى { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ {النحل 17} وقد بين ان الخلق صفة كمال وان الذي يخلق افضل من الذي لا يخلق وان من عدل هذا بهذا فقد ظلم وقال تعالى وقال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ {الروم 28} يقول تعالى اذا كنتم انتم لا ترضون بأن المملوك يشارك مالكة لما في ذلك من النقص والظلم فكيف ترضون ذلك لي وانا احق بالكمال والغنى منكم

وهذا يبين انه تعالى احق بكل كمال من كل احد ومثل هذا في القرآن متعدد من وصف الاصنام بسلب صفات الكمال كعدم التكلم والفعل وعدم الحياة ونحو ذلك مما يبين ان المتصف بذلك منتقص معيب كسائر الجمادات وان هذه الصفات لا تسلب الا عن ناقص معيب واما رب الخلق الذي هو اكمل من كل موجود فهو احق الموجودات بصفات الكمال وانه لا يستوى المتصف بصفات الكمال والذي لا يتصف بها وهو يذكر ان الجمادات في العادة لا تقبل الاتصاف بهذه الصفات فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف فقد جعله من جنس الاصنام الجامدة التي عابها الله تعالى وعاب عابديها ولهذا كانت القرامطة الباطنية من اعظم الناس شركا وعبادة لغير الله اذ كانوا لا يعتقدون في الههم انه يسمع او يبصر او يغنى عنهم شيئا والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال له بل ذكرها لبيان انه المستحق للعبادة دون ما سواه فأفاد الاصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما اثبات صفات الكمال ردا على اهل التعطيل وبيان انه المستحق للعبادة لا اله الا هو ردا على المشركين والشرك في العالم اكثر من التعطيل ولا يلزم من اثبات التوحيد المنافي للاشراك ابطال قول اهل التعطيل ولا يلزم من مجرد الاثبات المبطل لقول المعطلة الرد على المشركين الا ببيان اخر والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة كالرد على فرعون وامثاله ويذكر فيه الرد على المشركين وهذا اكثر لان القرآن شفاء لما في الصدور ومرض الاشراك اكثر في الناس من مرض التعطيل وايضا فان الله سبحانه اخبر ان له

الحمد وانه حميد مجيد وان له الحمد فى الاولى والاخرة وله الحكم ونحو ذلك من انواع المحامد
و الحمد نوعان حمد على احسانه الى عباده وهو من الشكر وحمد لما يستحقه هو بنفسه من
نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون الا على ما هو فى نفسه مستحق للحمد وانما يستحق ذلك من هو
متصف بصفات الكمال وهى امور وجودية فان الامور العدمية المحضة لا حمد فيها ولا خير ولا
كمال ومعلوم ان كل ما يحمد فانما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو
من الخالق والذى منه ما يحمد عليه هو احق بالحمد فثبت انه المستحق للمحامد الكاملة وهو احق من
كل محمود بالحمد والكمال من كل كامل وهو المطلوب¹

العلم الإلهى لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل ولا بقياس شمولى تستوي

أفراده

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 ان أصول الدين
إما أن تكون مسائل يجب إعتقادها قولاً أو قولاً وعملاً كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة
والمعاد أو دلائل هذه المسائل أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق
به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول
البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه
وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتام الواجب
والمستحب والحمد لله الذ بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكيها ويعلمنا الكتاب والحكمة
الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء
وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على
بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا { لَوْ كُنَّا
نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة
والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والمتصوفة وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل
الأصولية فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر
الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر ويجعلون ما بينى عليه صدق المخبر معقولات
محضة فقد غلطوا في ذلك غلطا عظيما بل ضلوا ضلالا مبينا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة إنما
هي بطريق الخبر المجرد بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه
وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء وقدره ونهاية ما
يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في
كتابه التي قال فيها { وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } الروم 58 فإن الأمثال

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 80-84

المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمى الله آيتي موسى برهانين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل و الفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثل شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المربوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربّه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب وجب فيه عن شيء ما من أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به وكل نقص ينزه عنه مخلوق فالخالق أولى أن ينزه عنه وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك قوله في التوحيد {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} الروم 28 أي كخيفة بعضكم بعضاً كما في قوله {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ} البقرة 85 وفي قوله {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} النور 12 وفي قوله {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الحجرات 11 {فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} البقرة 54 وفي قوله {وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ} البقرة 84 فإن المراد في هذا كله من نوع واحد فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه فيما له حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره بل تمتنعون أن يكون المملوك لكم نظيراً فكيف ترضون لي أن تجعلوا ما هو مخلوقي ومملوكي شريكاً لي يدعى ويعبد كما أدعى وأعبد

1

كانت العرب تحج إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وهم مع ذلك يحجون إلى البيت ويطوفون به ويقفون بعرفات ولهذا كانوا تارة يعبدون الله وتارة يعبدون غيره وكانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ولهذا قال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} الروم 28 يقول الله تعالى إذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكاً له مثل نفسه فكيف تجعلون مملوكي شريكاً لي وكل ما سوى الله من الملائكة

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 449-450 و درء التعارض ج: 1 ص: 37 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 117

و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 348

والنبيين والصالحين وسائر المخلوقات هو مملوك له وهو سبحانه لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير¹

يستعمل في حق الله قياس الأولى

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 فقد يستدل بالمعين على المعين المساوي له في العموم والخصوص كالاستدلال باحدى كواكب السماء على الملازم كما يستدل بالجدى على بنات نعش وبينات نعش على الجدى ويستدل بالجدى على جهة الشمال وبجهة الشمال على الجدى ويستدل بالشمس على المشرق وبالمشرق على الشمس ومن هذا الباب ما ذكر من اخبار نبينا صلى الله عليه وسلم في كتب الانبياء قبله فانها صفات مطابقة له ليست اعم منه ولا اخص منه وكذلك سائر الامور المتلازمة فانه يستدل بأحد المتلازمين على ثبوت الاخر وبانتفائه على انتفائه فاذا كان المدلول معيناً كانت الاية معينة وقد تكون الاية تستلزم وجود المدلول من غير عكس كآيات الخالق سبحانه وتعالى فانه يلزم من وجوده وجوده ولا يلزم من وجوده وجودها وهي كلها آيات دالة على نفسه المقدسة لا على أمر كلى لا يمنع تصويره من وقوع الاشتراك فيه بينه وبين غيره بل ذلك مدلول القياس والقرآن يستعمل الاستدلال ب الآيات ويستعمل ايضا في إثبات الالهية قياس الاولى وهو أن ما ثبت لموجود مخلوق من كمال لا نقص فيه فالرب احق به وما نزه عنه مخلوق من النقائص فالرب احق بتنزيهه عنه كما ذكر سبحانه وتعالى هذا في محاجته للمشركين الذين جعلوا له شركاء فقال { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ } الروم 28 وقال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ } {57} وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } {58} يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } {59} لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {60} النحل 57-60 وقال { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ } {19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ } {20} أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ } {21} تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ } {22} النجم 19-22 وكذلك في إثبات صفاته وإثبات النبوة والمعاد كما قد بسط في موضعه²

الفرق بين الإمكان الذهني والإمكان الخارجي

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 أنه سبحانه لما

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 354

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 349-351

أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه إمكانية أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجوده لم يلزم من تقدير وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فإله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله في التوحيد {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {الروم 28} أي كخيفة بعضكم بعضاً كما في قوله {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} {البقرة 85} وفي قوله {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} {النور 12} وفي قوله {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ} {الحجرات 11} وفي قوله {فَتُوبُوا إِلَى بَرِّكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ} {البقرة 54} وفي قوله {وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ} {البقرة 84} إلى قوله {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ} {البقرة 85} فإن المراد في هذا كله من نوع واحد فبين سبحانه أن المخلوق لا يكون مملوكه شريكه فيما له حتى يخاف مملوكه كما يخاف نظيره

بل تمتنعون أن يكون المملوك لكم نظيراً فكيف ترضون لي أن تجعلوا ما هو مخلوقي ومملوكي شريكاً لي يدعى ويعبد كما أدعى وأعبد كما كانوا يقولون في تلبيتهم ألبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك¹

القياس الفاسد

قال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {الروم 28} وكل واحد من طريقي النظر والتجرد طريق فيه منفعة عظيمة وفائدة جسيمة بل كل منهما واجب لا بد منه ولا تتم السعادة إلا به والقرآن كله يدعو إلى النظر والاعتبار والتفكير وإلى التزكية والزهد والعبادة وقد ذكر القرآن صلاح القوة النظرية العلمية والقوة الإرادية العملية في غير موضع كقوله {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} {التوبة 33} فالهدى كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} {ص 45} وقوله {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ}

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 302

مَنْهُ {المجادلة 22 وقوله { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 25 وقوله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ} فاطر 10 وفي خطبة النبي ان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد لكن النظر النافع أن يكون في دليل فإن النظر في غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه والدليل هو الموصل الى المطلوب والمرشد الى المقصود والدليل التام هو الرسالة والصنائع وكذلك العبادة التامة فعل ما أمر به العبد وما جاءت به الرسل وقد وقع الخطأ في الطريقتين من حيث أخذ كل منهما أو مجموعهما مجردا في الإبتداء عن الإيمان بالله وبرسوله بل إقتصار فيهما على مجرد ما يحصله نظر القلب وذوقه الموافق لما جاءت به الرسل تارة والمخالف لما جاءت به أخرى في مجرد النظر العقلي ومجرد العبادات العقلية أو الصعود عن ذلك الى النظر الملى والعبادات الملية والواجب أنه لا بد في كل واحد من النظر والعمل من أن يوجد فيه العقلي والملى والشرعى فلما قصرنا وقع كل من الفريقين إما في الضلال وإما في الغواية وإما فيهما وحاصلهم إما الجهل البسيط أو الكفر البسيط أو الجهل المركب أو الكفر المركب مع الجهل والظلم وذلك أن طريقة أهل النظر والقياس مدارها على مقدمة لا بد منها في كل قياس يسلكه الأدميون وهي مقدمة كلية جامعة تتناول المطلوب وتتناول غيره بمعنى أنها لا تمنع غيره من الدخول وإن لم يكن له وجود في الخارج فهي تتناول المطلوب لخاصيته بل بالقدر المشترك بينه وبين غيره والمطلوب بها هو الله تعالى فلم يصلوا إليه الا بجامع ما يشترك فيه هو وغيره من القضايا الإيجابية والسلبية والمشارك بينه وبين غيره لا يعرف بخصوصه اصلا فلم يعرفوا الله بل لما اعتقدوا فيه القدر المشترك صاروا مشركين به وحكموا على القدر المشترك بأحكام سلبية أو ايجابية فإنها تصح في الجملة لأن ما انتفى عن المعنى العام المشترك انتفى عن الخاص المميز وليس ما انتفى عن الخاص المميز انتفى عن الإنسان أو عن النبي انتفى عن الإنسان والرسول وليس ما نفىته عن الإنسان أو الرسول انتفى عن الحيوان أو النبي ولهذا كان قوله لا نبي بعدى ينفي الرسول وكذلك ما ثبت للمعنى المشترك بصفة العموم ثبت للخاص وما ثبت له بصفة الإطلاق لم يجب أن يثبت للخاص فإذا ثبت حكم لكل نبي دخل فيه الرسول وأما اذا ثبت للنبي مطلقا لم يجب أن يثبت للرسول وقد تتألف من مجموع القضايا السلبية والإيجابية أمور لا تصدق الا عليه ولا يصح أن يوصف بها غيره كما اذا وصف نبي بمجموع صفات لا توجد في غيره لكن هذا القدر يعرف انتفاء غيره أن يكون اياه وأما عينه فلا يعرف بمجموع تلك القضايا الكلية فلا يحصل للعقل من القياس في الرب الا العلم بالسلب والعدم إذا كان القياس صحيحا ولهذا جاءت الأمثال المضروية في القرآن وهي المقاييس العقلية دالة على النفي في مثل قوله {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} الروم 28 الآية ومثل قوله {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} النحل 76 الآيات وقوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَّثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} الحج 73 الآية وقوله {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} الإسراء 42 الآية وقوله {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} المؤمنون 91

وأمثال ذلك من الأمثال وهي القياسات التي مضمونها نفي الملزوم لانتفاء لازمه أو نحو ذلك ولهذا كان الغالب على أهل القياس من أهل الفلسفة والكلام في جانب الربوبية إنما هي المعارف السلبية ثم لم يقتصر على مقدار ما يعلمه العقل من القياس بل تعدوا ذلك فنفا أشياء مشبهة القياس

الفاسد مثل نفي الصفات النبوية الخبرية بل ونفي الفلاسفة والمعتزلة للصفات التي يثبتها متكلموا أهل الإثبات ويسمونها الصفات العقلية لإثباتهم إياها بالقياس العقلي ومعلوم أن العقل لا ينفي بالقياس إلا القدر المشترك الذي هو مدلول القضية الكلية التي لا بد منها في القياس مثل أن ينفي الإرادة أو الرحمة أو العلم المشترك بين مسميات هذا الإسم والقدر المشترك في المخلوقين تلحقه صفات لا تثبت لله تعالى فينفون المعنى المشترك المطلق على صفات الحق وصفات الخلق تبعاً لانتفاء ما يختص به الخلق فيعطلون كما أن أهل التمثيل يثبتون ما يختص به الخلق تبعاً للقدر المشترك وكلاهما قياس خطأ ففي هذه الصفات بل وفي الذوات ثلاث اعتبارات أحدها ما تختص به ذات الرب وصفاته والثاني ما يختص به المخلوق وصفاته والثالث المعنى المطلق الجامع فاستعمال القياس الجامع في نفي الأول خطأ وكذلك استعماله في إثبات الثاني وأما استعماله في إثبات الثالث فيحتاج إلى ادراك العقل لثبوت المعنى الجامع الكلي وهذا أصل القياس والدليل فإن لم يعرف العقل بنفسه أو بواسطة قياس آخر ثبوت هذا وإلا لم يستقم القياس وكذلك في معارفهم الثبوتية لا يأتون إلا بمعاني مطلقة مجملة مثل ثبوت الوجود ووجوب الوجود أو كونه ربا أو صناعا أو أولا أو مبدأ أو قديما ونحو ذلك من المعاني الكلية التي لا يعلم بها خصوص الرب تعالى إذ القياس لا يدل على الخصوص فإنه إذا استدل بأن كل ممكن فلا بد له من موجب وبأن كل محدث فلا بد له من محدث كان مدلول هذا القياس أمرا عاما وقد بسطت هذا في غير هذا الموضوع¹

جعل المشركون لله ما لا يرضونه لأنفسهم

وقال تعالى {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} الزخرف 17 فإن الولد يماثل أباه وكذلك الشريك يماثل شريكه فهم ضربوا الإناث مثلا وهم جعلوا هذه شركاء لله سبحانه فكانوا يجعلونها أندادا لله والشريك كالأخ فجعلوا له أولادا إناثا وشركاء إناثا فجعلوا له بنات وأخوات وهم لا يحبون أن تكون لأحدهم أنثى لا بنت ولا أخت بل إذا كان الأب يكره أن تكون له بنت فالأخت أشد كراهة له منها ولم يكونوا يورثون البنات والأخوات فتبين فرط جهلهم وظلمهم إذ جعلوا لله ما لا يرضونه لأنفسهم فكانت أنفسهم عندهم أعظم من الله سبحانه وهذا كما ضرب لهم مثلا فقال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ} {56} وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ} {57} النحل 56-57 إلى قوله {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} النحل 60 {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} الروم 28²

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 60-63

²مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 365

كل من عمل سوءا فهو جاهل

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِيهِ مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى } طه 54 أي العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ } { الفجر 5 } أي لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الْبَقْرَةَ 197 } وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } { الأنفال 22 } وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } { يوسف 2 } فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } { الملك 10 } وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } { الأعراف 179 } وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } { الفرقان 44 }¹

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة والضرارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء ومعلوم أن الحي العالم لا يختار أن يحب ما يضره لكن يكون ذلك عن جهل وظلم فإن النفس قد تهوي ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم منها لها وقد تكون جاهلة بحالها به بأن تهوي الشيء وتحبه بلا علم منها بما في محبته من المنفعة والمضرة وتتبع هواها وهذا حال من اتبع هواه بغير علم وقد يكون عن اعتقاد فاسد وهو حال من اتبع الظن وما تهوي نفسه وكل ذلك من أمور الجاهلية²

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 16

ويعرفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون¹

الذين يتبعون أهواءهم اتبعوا محبتهم واراقتهم من غير علم

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 والهوى مصدر هوى يهوى هوى ونفس المهوى يسمى هوى ما يهوى فاتباعه كاتباع السبيل كما قال تعالى { بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 29 وكما في لفظ الشهوة فاتباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر أي اتباع ارادته ومحبته التي هي هواه واتباع الارادة هو فعل ما تهواه النفس كقوله تعالى واتبع سبيل من أناب الي وقوله { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } {153} وقال { وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } {الأعراف 3} فلفظ الاتباع يكون للأمر الناهي وللأمر والنهي وللمأمور به والمنهي عنه وهو الصراط المستقيم كذلك يكون للهوى أمر ونهي وهو أمر النفس ونهيا كما قال تعالى { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } {يوسف 53} ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتباع الأمر هو فعل المأمور واتباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذه يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها وذلك يفعل ما تشتهيه وتهواه بل قد يقال هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجودا بعد أن يشتهي ويهوى وإنما يذم الانسان اذا فعل ما يشتهي ويهوى عند وجود فهو حينئذ قد فعل ولا ينهى عنه بعد وجوده ولا يقال لصاحبه لا تتبع هواك وأيضا فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الانسان هو تابع لشهوته وهواه فليست الشهوة والهوى تابعة له فاتباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس واذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج الى أن يجعل في الخارج ما يشتهي والانسان يتبعه كالمرأة المطلوبة أو الطعام المطلوب وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضا كما في قوله صلى الله عليه وسلم كل عمل ابن آدم له الا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به يدع طعامه وطعامه وشرابه وشهوته من أجلي أي بترك شهوته وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في نفسه فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها وإنما يثاب اذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة و حقيقة الأمر أنهما متلازمان فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه فإن ذلك من آثار الارادة واتباع الارادة هو امتثال أمرها وفعل ما تطلبه كالمأمور الذي يتبع أمر أميره ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للانسان الأمرة له ولهذا يقال العلة الغائية علة فاعلية فإن الانسان للعلة الغائية

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

بهذا التصور والارادة صار فاعلا للفعل وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلا فيكون الانسان متبعا لها والشيطان يمد في الغي فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة كالمحسوب من الصور والطعام والشراب وتتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب والشيطان والنفس تحب ذلك وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج فإن أول الفكر آخر العمل وأول البغية آخر الدرك ولهذا يبقى الانسان عند شهوته وهواه أسيرا لذلك مقهورا تحت سلطان الهوى أعظم من قهر كل قاهر فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه لا يمكنه مفارقتها البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه وتمثله لها في نفسها فو متبع للارادة وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور في نفسه والمشتهى الموجود في الخارج له محرران التصور والمشتهى هذا يحركه تحريك طلب وأمر وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره فاتباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله بخلاف كل قاهر ينفصل عن الانسان فإنه يمكنه مفارقتها مع بقاء نفسه على حالها وهذا انما يفارقه بتغير صفة نفسه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والصدق في الفقر والغنا وكلمة الحق في الغضب والرضا وقوله في الحديث هوى متبع فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس كقوله في الشح المطاع وجعل الشح مطاعا لأنه هو الأمر وجعل الهوى متبعا لأن المتبع قد يكون اماما يقتدى به ولا يكون أمرا { **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } الروم 29 والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم اتبعوا محبتهم واراقتهم من غير علم فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار¹

اتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في الشهوات

قال تعالى { **ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } {28} **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } {29} الروم 28-29 فان من الناس من يكون حبه وبغضه واراقتهم وكرهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا من نوع الهوى فان اتبعه الانسان فقد اتبع هواه { **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** } القصص 50 فان أصل الهوى محبة النفس ويتبع ذلك بغضها ونفس الهوى وهو الحب والبغض الذي في النفس لا يلام عليه فان ذلك قد لا يملك وإنما يلام على اتباعه كما قال تعالى { **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** } ص 26 وقال تعالى { **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ** } القصص 50 وقال النبي ثلاث منجيات خشية الله في السر والعلانية والصدق في الفقر والغنى وكلمة الحق في الغضب والرضا وثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والحب والبغض بتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغض ووجد واردة وغير ذلك فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو

¹ الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 28-31

ممن اتبع هواه بغير هدى من الله بل قد يصعد به الأمر الى أن يتخذ الهه هواه واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الاهواء فى الشهوات فان الأول حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون كما قال تعالى {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} القصص 50 وقال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} الروم 28 الآية الى ان قال **{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** {الروم 29} وقال تعالى {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الأنعام 119 الآية وقال تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} المائدة 77 وقال تعالى {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} البقرة 120 وقال تعالى فى الآية الأخرى {وَلَئِنَّ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} البقرة 145 وقال {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} المائدة 49 ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد يجعل من أهل الاهواء كما كان السلف سمونهم أهل الاهواء وذلك ان كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه والعلم بالدين لا يكون الا بهدى الله الذى بعث به رسوله ولهذا قال تعالى فى موضع {وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} الأنعام 119 وقال فى موضع آخر {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} القصص 50 فالواجب على العبد أن ينظر فى نفس حبه وبغضه ومقدار حبه وبغضه هل هو موافق لأمر الله ورسوله وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض لا يكون متقدما فيه بين يدى الله ورسوله فانه قد قال {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} الحجرات 1 ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله ومجرد الحب والبغض هوى لكن المحرم اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله ولهذا قال {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الدِّينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} ص 26 فأخبر أن من اتبع هواه أضله ذلك عن سبيل الله وهو هداه الذى بعث به رسوله وهو السبيل اليه¹

الذين أخبر القرآن بشركهم كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض

قال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {28} **{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ}** {29} {الروم 28-29} و التوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 131-134

غَيْرُهُ { هود 50 وفي المسند عن بن عمر عن النبي أنه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم والمشركون من قريش وغيرهم الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي دماءهم وأموالهم وسبى حريمهم وأوجب لهم النار كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعا ويتقربون بعبادتهم اليه كما قال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ } {29} فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِّنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 28-32 بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ } الروم 28 يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم¹

فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول إن العالم له خالقان ولا إن الله معه إله يساويه في صفاته هذا لم يقله أحد من المشركين بل كانوا يقولون بأن خالق السموات والأرض واحد وكانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {الروم 28} وكانوا يتخذون آلهتهم وسائط تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم كما قال تعالى { وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } {الزمر 3²

وقال الله تعالى { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } {الزمر 43} وكانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالق الأصنام كما قال تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} لقمان 25 وقال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 قال ابن عباس تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله ثم يعبدون غيره³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 156 و قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 156

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 443

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 129

الحق يظهر صحته بالمثل المضروب له

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له والباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما في نفس محبوبه أو مكروهه من حمد وذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس في كتابه لما في ذلك من البيان والإنسان لا يرى نفسه وأعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها في مرآة وتمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } {23} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ } {24} ص 23-24 الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } الزمر 27 وقال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } العنكبوت 43 وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25¹

طب الاديان يحتذى حذو طب الابدان

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 وعمى القلب وبكمه ان يبصر الحقائق ويميز ما ينفعه ويضره كعمى الجسم وخرسه عن ان يبصر الامور المرتبة ويتكلم بها ويميز بين ما ينفعه ويضره وكما أن الضرير إذا ابصر وجد ان الراحة والعافية والسرور امرا عظيما فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه الا الله وانما الغرض هنا تشبيه احد المرضين بالآخر فطب الاديان يحتذى حذو طب الابدان وقد كتب سليمان الى ابي الدرداء اما بعد فقد بلغنى انك قعدت طبيبا فايك ان تقتل والله انزل كتابه شفاء لما في الصدور وقال تعالى { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } الإسراء 82 ذلك ان الشفاء انما يحصل لمن يتعمد الدواء وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال اما شهوة مالا يحصل او يفقد الشهوة النافعة وينفر به عما يصلح ويفقد النفرة عما يضر ويكون بضعف قوة الادراك والحركة كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال وهي الهواء التي قال الله

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 347

فيها { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ } القصص 50 وقال **{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } الروم 29** كما يكون الجسد خارجا عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيهِ الجسم بلا قول الطبيب ويكون لضعف ادراك القلب وقوته حتى لا يستطيع ان يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له وكما ان المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون فلا يحتمون ولا يصبرون على الأدوية الكريهة لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره او يعجل الهلاك فكذا بنوا آدم هم جهال ظلموا انفسهم يستعجل احدهم ما ترغبه لذته ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له فيعقبهم ذلك من الآلام والعقوبات اما في الدنيا واما في الآخرة ما فيه عظم العذاب والهلاك الاعظم و التقوى هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه فان الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع يكون معه ايضا استعمالا لضرار فلا يكون صاحبه من المتقين واما ترك استعمال الضار والنافع فهذا يكون فان العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذيا بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك ولهذا كانت العقابة للتقوى وللمتقين لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الاسلام والكرامة وان وجدوا الما في الابتداء لتناول الدواء والاحتماء كفعل الاعمال الصالحة المكروهة كما قال تعالى **{ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 216** ولكثرة الاعمال الباطلة المشتهاة كما قال تعالى **{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } 40** فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ **{ 41 }** وكما قال **{ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ } الأنفال 7** فأما من لم يحتم فان ذلك سبب لضرره في العقابة ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو اصلح ممن احتمي حمية كاملة ولم يتناول الأشياء سرا فان الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات وقد قدمنا في قاعدة كبيرة ان جنس الحسنات انفع ترك السيئات كما ان جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء وبيننا ان هذا مقصود لنفسه وذلك مقصود لغيره بالانضمام الى غيره وكما ان الواجب الاحتماء عن سبب المرض قيل حصوله وازالته بعد حصوله فهكذا امراض القلب يحتاج فيها الى حفظ الصحة ابتداء والى اعادتها بان عرض له المرض دواما والصحة تحفظ بالمثل والمرض يزول بالضد فصحة القلب تحفظ باستعمال امثال ما فيها او هو ما يقوى العلم والايمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة وتزول بالضد فتزال الشبهات بالبينات وتزال حبة الباطل ببغضه ومحبية الحق ولهذا قال يحيى بن عمار العلوم خمسة فعلم هو حياة الدنيا وهو علم التوحيد وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج الى من غذاء الدين وهو علم التذكر بمعانى القرآن والحديث وعلم هو دواء الدين وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج الى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه فحفظ الصحة بالمثل وازالة المرض بالضد في مرض الجسم الطبيعى ومرض القلب النفسانى الدينى الشرعى قال النبى كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول ابو هريرة اقرؤا ان شئتم **{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30** اخرجاه فى الصحيحين قال الله تعالى **{ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } 26** **{ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 27** **{ 26-27** الروم الى قوله **{ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } 29** **{ 29** الروم الى قوله **{ فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30** فأخبر انه فطر عباده على اقامة الوجه حنيفا وهو عبادة الله وحده لا شريك له فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب وتركها ظلم عظيم اتبع اهله اهواءهم بغير علم

ولا بد لهذا الفطرة والخلقة وهي صحة الخلقة من قوت وغذاء يمدّها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علما وعملا ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملّة بالشريعة المنزلة وهي مآدبة الله كما قال النبي في حديث ابن مسعود ان كل أدب يحب أن تؤتى مآدبته وان مآدبة الله هي القرآن ومثله كم أنزل الله من السماء كما جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون القلوب مسقمون لها قد انزل الله كتابه شفاء لما في الصدور وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول اخلاطه الفاسدة كما قال النبي ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا خرن ولا غم ولا اذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها خطاياها وذلك تحقيق لقوله { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } النساء 123 ومن لم يظهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيؤب صحيحا والا احتاج ان يظهر منها في الآخرة فيعذبه الله كالذي اجتمعت فيه اخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه فتجتمع حتى يكون هلاكه بها ولهذا جاء في الأثر اذا قالوا للمريض اللهم ارحمه يقول الله كيف ارحمه من شئ به ارحمه وقال النبي المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها وكما ان امراض الجسم ما إذا مات الانسان منه كان شهيدا كالمطعون والمبطنون وصاحب ذات الجنب وكذلك الميت بغرق او حرق او هدم فمن أمراض النفس ما اذا اتقى العبد ربه فيه وصبر عليه حتى مات كان شهيدا كالجبان الذي يتقى الله ويصبر للقتال حتى يقتل فان البخل والجبن من امراض النفوس ان اطاعة أو جب له الألم وان عصاه تألم كامراض الجسم وكذلك العشق فقد روى من عشق فعف وكنم وصبر ثم مات مات شهيدا فانه مرض في النفس يدعو الى ما يضر النفس كما يدعو الى تناول ما يضر فان اطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا ايضا وان عصى الهوى بالعفة الكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها فاذا مات من ذلك المرض كان شهيدا هواه يدعو الى النار فيمنعه كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها فهذه الأمراض إذا كان معها ايمان وتقوى كانت كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان اصابته سراء فشكر كان خيرا له وان اصابته ضراء فصبر خيرا له والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين وسلم تسليما¹

يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته و ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن و هو الذي يعطى و يمنع ويخفض ويرفع ويعز و يذل و يغني و يفقر و يضل و يهدي و يسعد و يشقى و يولى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء و يشرح صدر من يشاء للإسلام و يجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء و هو يقلب القلوب ما من قلب من قلوب العباد إلا و هو بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه و إن شاء أن يزيغه أزاعه و هو الذي حبيب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر و الفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون وهو الذي جعل المسلم مسلما و

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 143-147 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 30-32

المصلي مصليا قال الخليل { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ } البقرة 128 و قال { رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } إبراهيم 40 و قال تعالى { وَاجْعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } السجدة 24 و قال عن آل فرعون { وَاجْعَلْنَا هُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } القصص 41 و قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا } {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } {21} المعارج 19-21 و قال { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا } هود 37 و قال { وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ } هود 38 و الفلك مصنوعة لبني آدم و قد أخبر الله تبارك و تعالى أنه خلقها بقوله { وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } يس 42 و قال { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ } النحل 80 الآيات و هذه كلها مصنوعة لبني آدم و قال تعالى { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } {95} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } {96} الصافات 95-96 فما بمعنى الذي و من جعلها مصدرية فقد غلط لكن إذا خلق المنحوت كما خلق المصنوع و الملبوس و المبنى دل على أنه خالق كل صانع و صنعته و قال تعالى { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } {الكهف 17} و قال { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } الأنعام 125 و هو سبحانه خالق كل شيء و ربه و مليكه و له فيما خلقه حكمة بالغة و نعمة سابغة و رحمة عامة و خاصة و هو لا يسأل عما يفعل و هم يسألون لا لمجرد قدرته و قهره بل لكمال علمه و قدرته و رحمته و حكمته فإنه سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و أرحم الراحمين و هو أرحم بعباده من الوالدة بولدها و قد أحسن كل شيء خلقه و قال تعالى { وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ } النمل 88 و قد خلق الأشياء بأسباب كما قال تعالى { وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 و قال { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } الأعراف 57 و قال تعالى { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مِنَ النَّبْعِ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16¹

عامه الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد

قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {28} بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } {29} الروم 28-29 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرب الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَا هُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 78-80

والهدى هنا هو الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا اطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا ولفظ الضلال اذا اطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله {إِنَّهُمْ أَفْوًا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ} {69} فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} {71} الصافات 69- 71 وقوله {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} الأحزاب 67- 68 وقوله {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه 123 ثم يقرن بالغى والغضب كما فى قوله {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} النجم 2 وفى قوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} الفاتحة 7 وقوله {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} القمر 47¹

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انا معاشر الانبياء ديننا واحد وهو الاسلام وهو الاستسلام لله لا لغيره بأن تكون العبادة والطاعة له والذل وهو حقيقة لا اله الا الله ولا ريب أن ما سوى هذا لا يقبل وهو سبحانه يطاع فى كل زمان بما امر به فى ذلك الزمان فلا اسلام بعد مبعث محمد الا فيما جاء به وطاعته وهى ملة ابراهيم التى لا يرغب عنها الا من سفه نفسه وهو الأمة الذى يؤتم به كما أن القدوة هو الذى يقتدى به وهو الامام كما فى قوله {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} البقرة 124 وهو القانت والقنوت دوام الطاعة وهو الذى يطيع الله دائما والحنيف المستقيم الى ربه دون ما سواه²

وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له فى قوله { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} النساء 125 وقوله قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا} {الروم 30} وذكر توجيه الوجه له فى قوله {إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض لان الوجه إنما يتوجه الى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فاذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجها اليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزما لاسلام القلب وإقامته وتوجيهه وذلك يستلزم اسلام كله لله وتوجيهه كله لله وإقامة كله لله³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166-167

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 239

³النبوات ج: 1 ص: 75

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة الا فى محبة الله والتقرب اليه بما يحبه ولا تمكن محبته الا بالاعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهى ملة ابراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين وكان النبي يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } فصلت 6 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } الأحقاف 13 قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائنا من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره¹

قال تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } 111 { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 112 { البقرة 111-112 } وقوله { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء 125 فقد انكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين وهو اسلام الوجه لله مع الاحسان وأخبر ان كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يخزنون أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لم زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة الا متهود او متنصر وهذان الوصفان وهما اسلام الوجه لله والاحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة وذلك ان اسلام الوجه لله هو متضمن للقصد ونية الله كما قال بعضهم استغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ إسلام الوجه واقامة الوجه كقوله تعالى { وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } الأعراف 29 وقوله { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30 وتوجيه الوجه كقول الخليل { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 79 وكذلك كان النبي يقول فى دعاء الاستفتاح فى صلاته وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وفى الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم مما يقول اذا أوى الى فراشه اللهم اسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك فالوجه يتناول المتوجه اليه ويتناول المتوجه نحوه كما يقال أى وجه تريد أى وجهة وناحية تقصد وذلك أنهما متلازمان فحيث توجه الإنسان توجه وجهه ووجهه مستلزم لتوجهه وهذا فى باطنه وظاهره جميعا فهذه أربعة أمور والباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال والشعار فاذا توجه قلبه الى شئ تبعه وجهه الظاهر فاذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه الى الله فهذا اصلاح ارادته وقصده فاذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحا ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

يشرك بعبادة ربه أحدا وهو قول عمر رضى الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا والعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به والذى أمر الله به هو الذى شرعه الله وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله فقد أخبر الله تعالى انه من أخلص قصده لله وكان محسنا فى عمله فانه مستحق للثواب سالم من العقاب ولهذا كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل ابن عياض فى قوله تعالى {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} {هود7} قال أخلصه وأصوبه فقبل يا أبا على ما أخلصه وأصوبه فقال ان العمل اذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل واذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وقد روى ابن شاهين واللالكائى عن سعيد بن جبیر قال لا يقبل قول وعمل الا بنية ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة ورويا عن الحسن البصرى مثله ولفظه لا يصلح مكان يقبل وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا فأخبر أنه لا بد من قول وعمل اذا الايمان قول وعمل لا بد من هذين كما قد بسطناه فى غير هذا الموضوع وبيننا أن مجرد تصديق القلب واللسان مع البغض والاستكبار لا يكون ايمانا باتفاق المؤمنين حتى يفتن بالتصديق عمل وأصل العمل عمل القلب وهو الحب والتعظيم المنفى للبغض والاستكبار ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل الا بنية وهذا ظاهر فان القول والعمل اذا لم يكن خالصا لله تعالى لم يقبله الله تعالى ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة وهى الشريعة وهى ما أمر الله به ورسوله لأن القول والعمل والنية الذى لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به يكون بدعة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله ولا يصلح مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب ولفظ السنة فى كلام السلف يتناول السنة فى العبادات وفى الإعتقادات وان كان كثير ممن صنف فى السنة يقصدون الكلام فى الاعتقادات وهذا كقول ابن مسعود وأبى بن كعب وابى بن كعب وابى الدرداء رضى الله عنهم اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد فى بدعة وأمثال ذلك والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله الطاهرين وأصحابه أجمعين¹

{ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }

أرسل الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم بالحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا أرسله إلى جميع الثقيلين الجن والإنس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم وأنزل عليه كتاب أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم به إلى صراط مستقيم صراط الذي له ما فى السموات وما فى الأرض وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهو دين الله الذى بعث به الرسل قبله كما قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32²

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 175-178

²الجواب الصحيح ج: 1 ص: 68

وإنما دين الحق هو تحقيق العبودية بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة وكل عمل لا يراد به وجه فهو باطل فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله إلا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون إلا ما جمع الوصفين أن يكون لله وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف 110 فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد أن يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال النبي صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد وقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه وهذا الأصل هو أصل الدين وبحسب تحقيقه يكون الدين وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وإليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه أمر وفيه رغب وهو قطب الدين الذي تدور عليه رحاه والشرك غالب على النفوس وهو كما جاء في الحديث وهو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وفي حديث آخر قال أبو بك الجواب يا رسول الله كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بك الجواب ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم وكان عمر يقول في دعائه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها وعبوديتها له وإخلاص دينها له كما قال شداد بن أوس يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قيل لأبي داود السجستاني وما الشهوة الخفية قال حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه قال الترمذي حديث حسن صحيح فبين صلى الله عليه وسلم أن الحرص على المال والشرف في فساد الدين لا ينقص عن فساد الذنبيين الجائعين لزريبة الغنم وذلك بين فإن الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته ومحبتة له لم يكن شيء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه وبذلك يصرف عن أهل الإخلاص السوء والفحشاء كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فإن المخلص ذاق من حلاوة عبوديته ما يمنعه من عبوديته لغيره ومن حلاوة محبتة ما يمنعه عن محبة غيره إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا أذى ولا أطيّب ولا أليّن ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبتة له وإخلاصه الدين له وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفا منه راغبا راهبا كما قال تعالى { مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ } ق 33 إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرغوبه فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء قال تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ }

وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {الإسراء 57} وإذا كان العبد مخلصا له اجتباه ربه فيحیی قلبه واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ضد ذلك بخلاف القلب الذي لم يخلص لله فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادي من يذمه ولو بالحق وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ إلهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ومن لم يكن خالصا عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا وإلا استعبده الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه فالقلب إن لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه وإلا كان مشركا قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30 إلى قوله { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } الروم 32¹

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32-30 الروم

الدين هو التعاقد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها على نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم على ذلك وهو التعاقد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة على منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } 1 { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } 2 { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } 3 { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ } 4 { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } 5 { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } 6 { الكافرون 1-6 } وقال تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76

وقال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } التوبة 29 والدين الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرهم بطاعة الله كما قال النبي في الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 397-399

الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لا ينعف صاحبه وقد قال سبحانه { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } البينة 5 وقال تعالى { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ } البقرة 193 وقال تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } التوبة 36 وقال تعالى { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ ابْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 161 وقال تعالى { قُلْ لَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } التوبة 122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى { وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } المائدة 54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران 19 وقال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وقال تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران 83 وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى 13 وقال تعالى { إِنَّ الدِّينَ قَرَفُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه واقتربت أحوالهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود 7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى { وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به وهذه الأصول الثلاثة وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح هي الموجبة للسعادة في كل ملة كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ أَمْنًا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 62 والشرع ما جاءت به الرسل وهو الأصل الرابع ذم الله التفرق والاختلاف في الكتاب والسنة فإن هذه الأصول الأربعة متلازمة والتفرق في ذلك

بالأمر في بعضه والنهي عن بعض هو من التفرق والاختلاف الذي ذمه الكتاب والسنة من المختلفين وقال تعالى { وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } البقرة 176 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام 159 وقال تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النَّبِيُّاتُ } آل عمران 105 ولهذا غضب النبي لما اختلفوا في القراءة وقال كلاهما محسن

وقال إن القرآن نزل علي سبعة أحرف فافرقوا منه ما تيسر وكذلك غضب لما تنازعوا في القدر وأخذوا يعارضون بين الآيات معارضة تفضي إلي الإيمان ببعض دون بعض وهذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله لله كما قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } {31} الروم 30-31 فإقامة وجهة الدين حنيفا وعبادة الله وحده لا شريك له وذلك يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به أن يكون الدين كله لله ثم قال الله تعالى { وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا } {32} الروم 31-32 وذلك أنه إذا كان الدين كله لله حصل الإيمان والطاعة لكل ما أنزله وأرسل به رسله وهذا يجمع كل حق ويجمع عليه كل حق وإذا لم يكن كذلك فلا بد أن يكون لكل قول ما يمتازون به مثل معظم مطاع أو معبود لم يأمر الله بعبادته وطاعته ومثل قول ودين ابتدعه لم يأذن الله به ولم يشرعه فيكون كل من الفريقين مشركا من هذا الوجه وأيضا ففي قلوب بني آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه وبذلك تصلح حياتهم ويدوم شملهم وحاجتهم إلي التآله أعظم من حاجتهم إلي الغذاء فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم ويفقد التآله تفسد النفس ولن يصلحهم إلا تآله الله وعبادته وحده لا شريك له وهي الفطرة التي فطروا عليها كما قال النبي في الحديث المتفق عليه كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي فيما يروي عن ربه أنه قال إنني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا لكن أكثر الشرك في بني آدم بإيجاد إله آخر مع الله ودان بذلك كثير منهم في أنواع كثيرة فصار كل طائفة من بني آدم لا بد لهم من دين لهذين الأمرين حاجة نفوسهم إلي الإله الذي هو محبوب مطلوب لذاته ولأنه ينفع ويضر ولحاجتهم إلي التزام ما يحبونه من الحاجات ويدفعونه من المضرات وهم مشركون في المحبة للأمر المنزلة أعيانها وأنواعها فهم مشركون في محبة الإله الذي يعبدونه وتعظيمه ومحبة من يبلغ عنه ما يختص به ومحبة أوامره ونواهيهم مشركين في محبة غير ذلك و مشركون أيضا في محبة جنس ما التزموه من الواجبات والمحرمات العامة التي هي جلب المنفعة لهم جميعا ودفع المضرة عنهم جميعا فهذه المحبة هي المحبة الدينية كحب الدين الذي هم عليه حقا كان أو باطلا وكذلك محبة ما يعين علي ذلك ويوصل إليه لأجل ذلك فهي أيضا محبة دينية يقول بعض المتفلسفة إن المقصود بالدين مجرد المصلحة الدنيوية وليس المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم لكن هذا قد يكون المقصود في أديان من لم يؤمن بالله ورسوله من اتباع الملوك المتفلسفة ونحوهم مثل قوم نوح ونمرود وجنكيزخان وغيرهم فإن كل طائفة من بني آدم محتاجون إلي التزام واجبات وترك محرمات يقوم بها معاشهم وحياتهم الدنيوية وربما جعلوا مع ذلك ما به يستولون به علي غيرهم من

الأصناف ويقهرونه كفعل الملوك الظالمين مثل جنكيز خان فإذا لم يكن مقصود الدين والناموس الموضوع إلا جلب المنفعة في الحياة الدنيا ودفع المضرة فيها فليس لهؤلاء في الآخرة من خلاق ثم إن كان مع ذلك جعلوه ليستولوا به علي غيرهم من بني آدم ويقهرونهم كفعل فرعون وجنكيز خان ونحوهما فهؤلاء من أعظم الناس عذاباً في الآخرة كما قال تعالى { نُنَلُّوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {3} إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } {4} القصص 4 وقد قص الله سبحانه قصة فرعون في غير موضع من القرآن وكان هو وقومه علي دين لهم من دين الملوك كما قال تعالى في قصة يوسف { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76 وهذا الملك كان فرعون يوسف وكان قبل فرعون موسى وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك وهؤلاء المتفلسفة الصابئة المبتدعة من المشائين ومن سلك مسلكهم من المنتسبين إلي الملل في المسلمين واليهود والنصارى يجعلون الشرائع والنواميس والديانات من هذا الجنس لوضع قانون تتم به مصلحة الحياة الدنيا ولهذا لا يأمرهم فيها بالتوحيد وهو عبادة الله وحده ولا بالعمل للدار الآخرة ولا ينهاون فيها عن الشرك بل يأمرهم فيها بالعدل والصدق والوفاء بالعهد ونحو ذلك من الأمور التي لا تتم مصلحة الحياة الدنيا إلا بها ويشرعون التأله للمخلصين والمشركين¹

ان الله فطر عباده على الحق

قال تعالى { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 والله تعالى فطر العباد على الإقرار به ومحبته وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء أخرجاه في الصحيحين وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وقال تعالى { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} وهذه ملة إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } النساء 125 وقوله أسلم وجهه أي أخلص قصده وعمله لله وهو محسن في عمله فيكون الله هو معبوده بالعمل الصالح ولهذا كان عمر بن

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-47

الخطاب رضي الله عنه يقول اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا¹

قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } ق37 فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين اما رجل رأى الحق بنفسه فقبله فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعو فذلك صاحب القلب او رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤديه فهذا اصغى { أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } ق37 اي حاضر القلب ليس بغائبه كما قال مجاهد او أوتي العلم وكان له ذكرى وتبين قوله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } يونس42 { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } 42 { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } 43 { يونس 42-43 } وقوله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } الأنعام25 ثم إذا كان حق القلب ان يعلم الحق فان الله هو الحق المبين { فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } يونس32 إذ كان كل ما يقع عليه لمحة ناظر او يجول في لفظة خاطر فالله ربه ومنشئه وفاطره ومبدئه لا يحيط علما إلا بما هو من آياته البينة في ارضه وسماؤه واصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل أي ما من شيء من الأشياء إذا نظرت إليه من جهة نفسه إلا وجدته الى العدم وما هو فقير إلى الحي القيوم فإذا نظرت إليه وقد تولته يد العناية بتقدير من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى رأيته حينئذ موجودا مكسوا حل الفضل والاحسان فقد استبان ان القلب إنما خلق لذكر الله سبحانه ولذلك قال بعض الحكماء المتقدمين من أهل الشام اظنه سليمان الخواص رحمه الله قال الذكر للقلب بمنزلة الغذاء للجسد فكما لا يجد الجسد لذة الطعام مع السقم فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذكر مع حب الدنيا أو كما قال فإذا كان القلب مشغولا بالله عاقلا للحق متفكرا في العلم فقد وضع في موضعه كما ان العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها إما إذا لم يصرف إلى العلم ولم يوع فيه الحق فقد نسي ربه فلم يوضع في موضع بل هو ضائع ولا يحتاج ان نقول قد وضع في موضع غير موضعه بل لم يوضع اصلا فإن موضعه هو الحق وما سوى الحق باطل فإذا لم يوضع في الحق لم يبق إلا الباطل والباطل ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء احرى أن لا يكون موضعا والقلب هو نفسه لا يقبل الا الحق فإذا لم يوضع فيه فإنه لا يقبل غير ما خلق له سنة الله { وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } الفتح23 وهو مع ذلك ليس بمتروك مخلى فإنه لا يزال في أودية الأفكار وأقطار الأمانى لا يكون على حال التي تكون عليها العين والأذن من الفراغ والتخلي فقد وضع في غير موضع لا مطلق ولا معلق موضوع لا موضع له وهذا من العجب فسبحان ربنا العزيز الحكيم وإنما تنكشف للانسان هذه الحال عند رجوعه إلى الحق اما في الدنيا عند الانابة أو عند المنقلب إلى الآخرة فيرى سوى الحال التي كان عليها وكيف كان قلبه ضالا عن الحق هذا إذا صرف في الباطل فأما لو ترك القلب وحالته التي فطر عليها فارغا عن كل ذكر وخاليا من كل فكر لقد كان يقبل العلم الذي لا جهل فيه ويرى الحق الذي لا ريب فيه فيؤمن بربه وينيب إليه فإن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء لا تحس فيها

¹الصفدية ج: 2 ص: 263

من جدعاء { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } الروم 30 وإنما يحول بينه وبين الحق في غالب الحال شغله بغيره من فتن الدنيا ومطالب الجسد وشهوات النفس فهو في هذه الحال كالعين الناضرة إلى وجه الأرض لا يمكنها أن ترى مع ذلك الهلال أو هو يميل إليه فيصده عن اتباع الحق فيكون كالعين التي فيها قذى لا يمكنها رؤية الأشياء ثم الهوى قد يعرض له قبل معرفة الحق فيصده عن النظر فيه فلا يتبين له الحق كما قيل حبك الشيء يعمي ويصم فيبقي في ظلمة الأفكار وكثيرا ما يكون ذلك كبيرا يمنعه عن أن يطلب الحق { فَأَلْذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } النحل 22 وقد يعرض الهوى بعد أن عرف الحق فيجده ويعرض عنه كما قال سبحانه فيهم { سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِجْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } الأعراف 146¹

الرسول بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها

قال تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 الروم 30-32 حب الله تعالى هذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول ابو هريرة رضى الله عنه اقرأوا ان شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } الروم 30 اخرجه البخارى ومسلم فإنه سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده فاذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له عابدا له وحده لكن تفسد فطرته من مرضه كابويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه كلها تغير فطرته التي فطره عليها وان كانت بقضاء الله وقدره كما يغير البدن بالجدع ثم قد يعود الى الفطرة اذا يسر الله تعالى لها من يسعى فى اعادتها الى الفطرة والرسول صلى الله عليهم وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها واذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين لم يبتل بحب غيره اصلا²

يحب الإيمان والعمل الصالح الذى ينفعه ويبيغض الكفر والفسوق الذى يضره بل ويحب الله وعبادته وحده ويبيغض عبادة ما دونه كما قال الخليل { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ } 75 { أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ } 76 { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } 77 { الشعراء 75-77 وقال تعالى { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ } الممتحنة 4 فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرؤا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله وقال الخليل { إِنِّي بَرَاءُ

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 311-314 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 337

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 135 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 26

مَّمَّا تَعْبُدُونَ {26} إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ {27} الزخرف 26-27 والبراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب وهذا لأن حقيقة التوحيد أن لا يحب إلا الله ويحب ما يحبه الله فلا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لآلهتهم وحب النصراني للمسيح وحب أهل الأهواء رؤوسهم فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره لم يمكن أن تستوى إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقا ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريدا لجميع الحوادث بل قد أمره الله بإرادة أمور وكراهة أخرى والرسول صلوات الله عليهم وسلامه بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها وقد قال النبي كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} الروم 30 وفي الحديث الصحيح عن النبي يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم ينزل به سلطانا والحنيفية هي الإستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيء لا في الحب ولا في الذل فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل وذلك لا يستحقه إلا الله وحده وكذلك الخشية والتقوى لله وحده والتوكل على الله وحده والرسول يطاع ويحب فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه قال تعالى {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور 52 وقال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} التوبة 59 وهذه حقيقة دين الإسلام والرسول بعثوا بذلك كما قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الشورى 13 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52} المؤمنون 51-52 فهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به فلا بد أن يكون مريدا محبا لما أمره الله بإرادته ومحبه كارها مبغضا لما أمره الله بكراهته وبغضه¹

ومن أحكم العلوم حتى احاط بغاياتها رده ذلك إلى تقرير الفطر على بداياتها وإنما بعثت الرسل لتكميل الفطرة لا لتغييرها {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} الروم 30²

أن الله خلق عباده لعبادته التي تجمع محبته وتعظيمه فإذا كان في القلب ما يجد حلاوته من الإيمان والتوحيد له احتاج إلي أن يستبدل بذلك ما يهواه فيتخذ إلهه هو فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 465

²مجموع الفتاوى ج: 31 ص: 105

دون الله وهم لهم عدو بنس للظالمين بدلا ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر الناس عليها قال تعالى **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** {الروم 30} وقال تعالى **{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً}** {116} إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً {117} لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً {118} ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله {119} النساء 116-119 قال تعالى **{لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}** {الروم 30} ونفس ما خلقه الله لا تبديل له لا يمكن أن توجد المخلوقات علي غير ما يخلقه الله عليها ولا أن تخلق على غير الفطرة التي خلقها الله عليها لكن بعض الخلق قد يغير بعضها كما قال النبي كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء

ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم **{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** {الروم 30} قالوا يا رسول الله أرأيت من يموت من أطفال المشركين وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي صحيح البخاري أيضا عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أطفال المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين¹

الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى

قال تعالى **{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** {30} **{ مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {31} **{ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** {32} {الروم 30-32}

فإن الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى **{فَأَنبَأَهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** {الحج 46} وقد قال تعالى **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** {30} **{ مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** {31} {الروم 30-31} وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة إقرءوا إن شئتم **{فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}** {الروم 30} و الفطرة تستلزم معرفة الله و محبته و تخصيصه بأنه أحب الأشياء إلى العبد و هو التوحيد و هذا معنى قول لا إله إلا الله كما جاء مفسرا كل مولود يولد على هذه الملة و روى على ملة الإسلام وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى **إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين و حرمت عليهم ما أحللت لهم و أمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا** فأخبر أنه خلقهم حنفاء و ذلك يتضمن معرفة الرب و محبته و توحيده فهذه الثلاثة تضمنتها الحنيفية و هي معنى قول لا إله إلا الله فإن في هذه الكلمة الطيبة التي هي **{ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}** {إبراهيم 24} فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يكون مألوها و هذا أعظم ما يكون من المحبة و فيها أنه لا إله إلا هو ففيها المعرفة و المحبة و التوحيد و كل مولود يولد على الفطرة وهي الحنيفية التي خلقهم عليها و لكن أبواه يفسدان ذلك فيهودانه وينصرانه ويمجسانه ويشركانه

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 80 و منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 307-309

كذلك يجهمانه فيجعلانه منكرا لما في قلبه من معرفة الرب و محبته وتوحيده ثم المعرفة يطلبها بالدليل والمحبة ينكرها بالكلمة والتوحيد المتضمن للمحبة ينكره من لا يعرفه وإنما ثبت توحيد الخلق والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد وهذا الشرك فهما يشركانه ويهودانه وينصرانه و
بمجسانه¹

الله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة

قال تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 ومحبته الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل وقال لما ذكر قصص الأنبياء { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } {الذاريات 56} فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا كما قال تعالى { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } {6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } {7} فصلت 6-7 أي لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } النساء 48²

والنفس بطبعها متحولة فانها حية و الارادة و الحركة الارادية من لوازم الحياة و لهذا قال النبي صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح أصدق الأسماء حارث و همام فكل آدمي حارث و همام أي عامل كاسب و هو همام أي يهم و يريد فهو متحرك بالارادة وقد جاء في الحديث مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة و للقلب أشد تقلبا من القدر إذا استجمعت غلينا فلما كانت الارادة و العمل من لوازم ذاتها فاذا هداها الله علمها ما ينفعها و ما يضرها فأرادت ما ينفعها و تركت ما يضرها والله سبحانه قد تفضل على بني آدم بأمرين هما أصل السعادة أحدهما أن كل مولود يولد على الفطرة كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو نصرانه أو مجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30 قال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 344-345

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 28-29

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {الروم 30} وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً فالنفس بفطرتها إذا تركت كانت مقرة لله بالالهية محبة له تعبده لا تشرك به شيئاً ولكن يفسدها ما يزين لها شياطين الانس والجن بما يوحى بعضهم إلى بعض من الباطل قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} {172} أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} {173} الأعراف 172-173 وتفسير هذه الآية مبسوط في غير هذا الموضع الثاني أن الله تعالى قد هدى الناس هداية عامة بما جعل فيهم بالفطرة من المعرفة وأسباب العلم وبما أنزل إليهم من الكتب وأرسل إليهم من الرسل قال تعالى {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} {1} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} {2} {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} {3} {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} {4} {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} {5} {العلق 1-5} وقال تعالى {الرَّحْمَنُ} {1} {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} {2} {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} {3} {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} {4} {الرحمن 1-4}

أن يقال إن ما يبتهل به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقاً لله فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له وفطره عليه فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له ودله على الفطرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {الروم 30} فهو لما لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه وما أمر به من معرفة الله وحده وعبادته وحده عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي قال تعالى للشيطان {أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً} {الإسراء 63} إلى قوله {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً} {الإسراء 65}

القلب ان لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه والا كان مشركاً

قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 30-32} وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان في القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 294-296 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 66

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 332 والحسنة والسيئة ج: 1 ص: 92

فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون لله الا ما جمع الوصفين ان يكون لله وان يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف110 فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد ان يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة112 وقال النبي صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد وقال النبي انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وهذا الأصل هو اصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه ارسل الله الرسل وانزل الكتب واليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه امر وفيه رغب وهو قطب الدين الذى تدور عليه رحاه والشرك غالب على النفوس وهو كما جاء فى الحديث وهو فى هذه الأمة احفى من دبيب النمل وفى حديث آخر قال ابو بكر يارسول الله كيف ننجو منه وهو اخفى من دبيب النمل فقال النبي لأبى بكر الا اعلمك كلمة اذا قلتها نجوت من دقة وجلة قل اللهم انى اعوذ بك ان اشرك بك وانا اعلم واستغفر لك لما لا اعلم وكان عمر يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك ولا تجعل لأحد فيه شيئا وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها وعبوديتها له وإخلاص دينها كما قال شداد بن اوس يابقايا العرب ان اخوف ما اخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قيل لأبى داود السجستاني وما الشهوة الخفية قال حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبي انه قال ما ذنبان جائعان ارسلنا زريبة غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه قال الترمذى حديث حسن صحيح فبين ان الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لا ينقص عن فساد الذنبيين الجائعين لزريبة الغنم وذلك بين فان الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك ان القلب اذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شىء احب اليه من ذلك حتى يقدمه عليه وبذلك يصرف عن اهل الاخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف24 فان المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره اذ ليس عند القلب لا احلى ولا الذ ولا اطيب ولا ألين ولا انعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له واخلاصه الدين له وذلك يقتضى انجذاب القلب الى الله فيصير القلب منيبا الى الله خائفا منه راغبا راهبا كما قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف24 اذ المحب يخاف من زوال مطلوبة وحصول

مرغوبة فلا يكون عبد الله ومحبة الا بين خوف ورجاء قال تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } الإسراء57 واذا كان العبد مخلص له اجتباه ربه فيحي قلبه واجتذبه اليه فينصرف عنه ما يصاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ذلك بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فانه فى طلب واردة وحب مطلق فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن اى نسيم مر بعطفه اماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى اسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق وتارة يستعبده الدرهم والدينار وامثال ذلك من الأمور التى

تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ الهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ومن لم يكن خاصا لله عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله احب اليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا والا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين اخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه الا الله وهذا امر ضرورى ولا حيلة فيه فالقلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه والا كان مشركا قال تعالى **{ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }** {الروم 30} الى قوله **{ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }** {الروم 32} وقد جعل الله سبحانه ابراهيم وآل ابراهيم ائمة لهؤلاء الحنفاء المخلصين اهل المحبة لله وعبادته واخلاص الدين له كما جعل فرعون وآل فرعون ائمة المشركين المتبعين اهواءهم قال تعالى فى ابراهيم **{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ }** {72} **{ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }** {73} {الأنبياء 72-73} وقال فى فرعون وقومه **{ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ }** {41} **{ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ }** {42} {القصص 41-42} ولهذا يصير اتباع فرعون اولا الى ان لا يميزوا بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما قدر الله وقضاه بل ينظرون الى المشيئة المطلقة الشاملة ثم فى آخر الأمر لا يميزون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود هذا وجود هذا ويقول محققوهم الشريعة فيها طاعة ومعصية والحقيقة فيها معصية بلا طاعة والتحقيق ليس فيه طاعة ولا معصية وهذا تحقيق مذهب فرعون وقومه الذين انكروا الخالق وانكروا تكليمه لعبده موسى وما ارسله به من الأمر والنهى وما ابراهيم وآل ابراهيم الحنفاء والأنبياء فهم يعلمون انه لا بد من الفرق بين الخالق والمخلوق ولا بد من الفرق بين الطاعة والمعصية وان العبد كلما ازداد تحقيقا ازدادت محبته لله وعبوديته له وطاعته له واعراضه عن عبادة غيره ومحبة غيره وطاعة غيره وهؤلاء المشركون الضالون يسوون بين الله وبين خلقه والخليل يقول **{ قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ }** {75} **{ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ }** {76} **{ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ }** {77} {الشعراء 75-77} ¹

حقيقة الحنيفية ان تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك

قال تعالى **{ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }** {30} **{ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** {31} **{ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ }** {32} {الروم 30-32}

وقد قررنا في مواضع من القواعد الكبار أنه لا يجوز أن يكون غير الله محبوبا مرادا لذاته كما لا يجوز أن يكون غير الله موجودا بذاته بل لا رب إلا الله ولا إله غيره والإله هو المعبود الذي يستحق أن يحب لذاته ويعظم لذاته كمال المحبة والتعظيم وكل مولود يولد على الفطرة فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعم وملبوس ومنظور وملمس يجد من نفسه وإن قلبه يطلب شيئا سواه ويحب أمرا غيره

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 215-218

يتأله ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الاجناس ولهذا قال الله تعالى في {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} الرعد 28 وفي الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله قال اني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما احللت لهم وأمرتهم ان يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} الروم 30 وأيضا فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فانه هو المستحق له على الكمال وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال وانكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة انكار لكونه إلهام معبودا كما ان انكار محبته لعبد يستلزم انكار مشيئته وهو يستلزم انكار كونه ربا خالقا فصار انكارها مستلزما لانكار كونه رب العالمين وكونه إله العالمين وهذا هو قول اهل التعطيل والجحود ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ان أعظم الوصايا ان تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة ابراهيم التي هي اصل شريعه التوراة والانجيل والقرآن وانكار ذلك هو مأخوذ عن المشركين والصابئين أعداء ابراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك من متفلسف ومتكلم ومتفقه ومبتدع أخذه عن هؤلاء وظهر ذلك في القرامطة الباطنية من الاسماعيلية ولهذا قال الخليل امام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ} {75} أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ} {76} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} {77} الشعراء 75-77 وقال ايضا {لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ} الأنعام 76 وقال تعالى {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ} {88} إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} {89} الشعراء 88-89 وهو السليم من الشرك¹

أهل الضلال غيروا الفطرة في العلم والارادة جميعا وخالفوا العقل والنقل

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32

قال الامام مالك بن انس والله قد فطر العباد عربهم وعجمهم على أنهم اذا دعوا الله توجهت قلوبهم الى العلو ولا يقصدونه تحت أرجلهم ولهذا قال بعض العارفين ما قال عارف قط يا الله الا وجد في قلبه قبل أن يتحرك لسانه معنى يطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة وذكر من بعد كلام طويل الحديث كل من مولود يولد على الفطرة ولأهل الحلول والتعطيل في هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما أجمع سلف الأمة وأئمتها وما فطر الله عليه عباده وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة فان هذه الادلة كلها متفقة على أن الله

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 74 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 71 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 71

فوق مخلوقاته عال عليها قد فطر الله على ذلك العجائز والصبيان والاعراب في الكتاب كما فطرهم على الاقرار بالخالق تعالى وقد قال في الحديث الصحيح كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا ان شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } الروم 30 وهذا معنى قول عمر بن عبدالعزيز عليك بدين الاعراب والصبيان في الكتاب و عليك بما فطرهم الله عليه فان الله فطر عباده على الحق والرسول بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها¹

ولو أن رجلا أراد أن يخاطب الشمس والقمر فانه لا يخاطبه الا من الجهة العليا مع أن الشمس والقمر قد تشرق وقد تغرب فتنحرف عن سمت الرأس فكيف بمن هو فوق كل شيء دائما لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى وكما أن الحركة كحركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق وهو الخط المستقيم فالطلب الارادى الذى يقوم بقلوب العباد كيف يعدل عن الصراط المستقيم القريب الى طريق منحرف طويل والله تعالى فطر عباده على الصحة والاستقامة الا من اجتالته الشياطين فأخرجته عن فطرته التى فطر عليها فان القاصد يطلب مقصوده بأقرب طريق لا سيما اذا كان مقصوده معبوده الذى يعبده ويتوكل عليه واذا توجه اليه على غير الصراط المستقيم كان سيره منكوسا معكوسا فان الشخص اذا كان يحب النبي محبة تامة ويقصده أو يحب غيره ممن يحب سواء كانت محبته محمودة أو مذمومة متى كانت المحبة تامة وطلب المحبوب طلبه من أقرب طريق يصل اليه بخلاف ما اذا كانت المحبة مترددة مثل أن يحب ما تكره محبته في الدين فتبقى شهوته تدعوه الى قصده وعقله ينهاه عن ذلك فتراه يقصده من طريق بعيد كما تقول العامة رجل الى قدام ورجل الى خلف وكذلك اذا كان في دينه نقص وعقله يأمره بقصد المسجد أو الجهاد أو غير ذلك من القصودات التى تحب في الدين وتكرهها النفس فانه يبقى قاصدا لذلك من طريق بعيد متباطئا في السير وهذا كله معلوم بالفطرة وأما من جهة الشريعة فان الرسل صلوات الله عليهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديل الفطرة وتغييرها قال في الحديث المتفق عليه كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء وقال الله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30 فجاءت الشريعة فى العبادة والدعاء بما يوافق الفطرة بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركن والصابئين المتفلسفة وغيرهم فانهم غيروا الفطرة فى العلم والارادة جميعا وخالفوا العقل والنقل كما قد بسطناه فى غير هذا الموضوع²

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 260

²مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 569-576

جميع الرسل بعثوا بدين الاسلام

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

لما بعث الله خاتم المرسلين وفضل النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم إمام التوحيد الذي بعث الله به الرسل قبله وأظهره وخلصه من شوائب الشرك فظهر التوحيد بسببه ظهورا فضله الله به وفضل به امته على سائر من تقدم فان الانبياء جميعهم وأمهم كانوا مسلمين مؤمنين موحدين لم يكن قط دين يقبله الله غير الاسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} {الزخرف 45} وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} {الأنبياء 25} وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} {النحل 36} وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انا معشر الانبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا إنه ليس بيني وبينه نبي

وقد أخبر الله في القرآن عن جميع الانبياء وأمهم من نوح الى الحواريين أنهم كانوا مسلمين مؤمنين كما قد بسط في موضع آخر وقد قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 فالمرسلون صلوات الله عليهم أجمعين أولهم وآخرهم بعثوا بدين الاسلام

وهو عبادة الله وحده لا شريك له فإن هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وكذلك الإسلام العام فذم الذين تفرقوا على الأنبياء فأمن هؤلاء ببعض وهؤلاء ببعض وهم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً¹

قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } {13} وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجْلِ مُسَمَّى لَاقْتَضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ } {14} فَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } {15} الشورى 13-15 فقد أخبرنا أنه شرع لنا من الدين ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ثم أخبر عن تفرق الذين أتوا الكتاب كتفرق اليهود

¹الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 290-292 و الصلفية ج: 2 ص: 306

والنصارى وتفرق فرق اليهود وفرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية وهذا يتناول أهواء أهل الكتاب كما يتناول أهواء المشركين وقد صرح بذلك في قوله تعالى {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَابِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} البقرة 120¹

دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم

قال تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة ونهى عن الشرك عن الشرك والظلم والفواحش كما أمرت ونهت الرسل قبله والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره وأما السور المدنية ففيها هذا وفيها ما يختص به محمد من الشريعة والمنهاج فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال إنا معشر الأنبياء ديننا واحد قال الله تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} سورة الروم الآيات 30 32²

وقال تعالى في سياق تقريره للإسلام وخطابه لأهل الكتاب { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } {136} فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {137} البقرة 136-137 إلى قوله { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } {140} البقرة 140 ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحداً وإن تنوعت شرائعه قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إنا معشر الأنبياء ديننا واحد والأنبياء إخوة لعلات وإن أولى الناس بابن مريم لأننا فليس بيني وبينه نبي فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت فالدين واحد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته ولهذا شرع الله تعالى لبني

¹الجواب الصحيح ج: 3 ص: 55-56

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 342 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 358

إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة فكان الاجتماع يوم السبت واجبا إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحرّم الاجتماع يوم السبت فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلما ومن لم يدخل في شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد النسخ لم يكن مسلما ولم يشرع الله لنبي من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} الروم 30 ثم قال { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 { الروم 31-32 فأهل الإشراف متفرقون وأهل الإخلاص متفقون¹

الأسماء الشرعية

قال تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 { الروم 31-32 وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها ولفظ الايمان أمر به مقيدا بالايمان بالله وملانكته وكتبه ورسله وكذلك لفظ الإسلام بالإستسلام لله رب العالمين وقد بين الرسول تلك الخصائص والاسم دل عليها فلا يقال أنها منقولة ولا أنه زيد في الحكم دون الاسم بل الاسم انما استعمل على وجه يختص بمراد الشارع لم يستعمل مطلقا وهو إنما قال {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بعد أن عرفهم الصلاة بالمأمور بها فكان التعريف منصرفا الى الصلاة التي يعرفونها لم يرد لفظ الصلاة وهم لا يعرفون معناه ولهذا كل من قال في لفظ الصلاة أنه عام للمعنى اللغوي أو أنه مجمل لتردده بين المعنى اللغوي والشرعي ونحو ذلك فأقولهم ضعيفة فان هذا اللفظ انما ورد خبرا أو أمرا فالخبر كقوله { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } 9 { عِبْدًا إِذَا صَلَّى } 10 { العلق 9-10 وسورة اقرأ من أول ما نزل من القرآن وكان بعض الكفار أما أبو جهل أو غيره قد نهى النبي عن الصلاة وقال لئن رأيتني يصلي لأطأن عنقه فلما رآه ساجدا رأى من الهول ما أوجب نكوصه على عقبيه فإذا قيل { أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى } 9 { عِبْدًا إِذَا صَلَّى } 10 { العلق 9-10 فقد علمت تلك الصلاة الواقعة بلا إجمال في اللفظ ولا عموم ثم أنه لما فرضت الصلوات الخمس ليلة المعراج أقام النبي لهم الصلوات بمواقيتها صبيحة ذلك اليوم وكان جبرائيل يوم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأتون بالنبي فإذا قيل لهم {أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} عرفوا أنها تلك الصلاة وقيل أنه قبل ذلك كانت له صلاتان طرفي النهار فكانت أيضا معروفة فلم

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 456

يخاطبوا بإسم من هذه الأسماء الا ومسماه معلوم عندهم فلا اجمال فى ذلك ولا يتناول كل ما يسمى حجا ودعاء وصوما فإن هذا انما يكون اذا كان اللفظ مطلقا وذلك لم يرد¹

الشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفى الاسم إلا لانتفاء بعض واجباته

قال تعالى {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 31-32} كان جمهور العلماء على أن من ترك واجبا من واجبات الصلاة عمدا فعليه إعادة الصلاة ما دام يمكن فعلها وهو إعادتها في الوقت هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد لكن مالك وأحمد يقولان قد يجب فيها ما يسقط بالسهو ويكون سجود السهو عوضا عنه وسجود السهو واجب عندهما وأما الشافعي فيقول كل ما وجب بطلت الصلاة بتركه عمدا أو سهوا وسجود السهو عنده ليس بواجب فإن ما صحت الصلاة مع السهو عنه لم يكن واجبا ولا مبطلا والأكثرين يوجبون سجود السهو كمالك وأبي حنيفة وأحمد ويقولون قد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم والأمر يقتضي الإيجاب ويقولون الزيادة في الصلاة لو فعلها عمدا بطلت الصلاة بالاتفاق مثل أن يزيد ركعة خامسة عمدا أو يسلم عمدا قبل إكمال الصلاة ثم إذا فعله سهوا سجد للسهو بالسنة والإجماع فهذا سجود لما تصح الصلاة مع سهوة دون عمده وكذلك ما نقصه منها فإن السجود يكون للزيادة تارة وللنقص أخرى كسجود النبي صلى الله عليه وسلم لما ترك التشهد الأول ولو فعل ذلك أحد عمدا بطلت صلاته عند مالك وأحمد وأما أبو حنيفة فيوجب في الصلاة ما لا تبطل بتركه لا عمدا ولا سهوا ويقول هو مسيء بتركه كالتأمينية وقراءة الفاتحة وهذا مما نازعه فيه الأكثرين وقالوا من ترك الواجب عمدا فعليه إعادة الممكنة لأنه لم يفعل ما أمر به وهو قادر على فعله فلا يسقط عنه وقد أخرجنا في الصحيحين حديث المسيء في صلاته لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع فصل فإنك لم تصل وأمره بالصلاة التي فيها طمأنينة فدل هذا الحديث الصحيح على أن من ترك الواجب لم يكن ما فعله صلاة بل يؤمر بالصلاة والشارع صلى الله عليه وسلم لا ينفى الاسم إلا لانتفاء بعض واجباته فقوله فإنك لم تصل لأنه ترك بعض واجباتها ولم تكن صلاته تامة مقامة الإقامة المأمور بها في قوله تعالى { فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } النساء 103 فقد أمر بإتمامها ولهذا لما أمر بإتمام الحج والعمرة بقوله { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } البقرة 196 ألزم الشارع فيهما فعل جميع الواجبات فإذا ترك بعضها فلا بد من الجبران فعلم أنه إن لم يأت بالمأمور به تاما التمام الواجب وإلا فعليه ما يمكن من إعادة أو جبران وكذلك أمر الذي رآه يصلي خلف الصف وحده أن يعيد وقال لا صلاة لفذ خلف الصف وقد صححه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وابن حزم وغيرهم من علماء الحديث فإن قيل ففي حديث المسيء الذي رواه أهل السنن من حديث رفاعة بن رافع أنه جعل ما تركه من ذلك يؤاخذ بتركه فقط ويحسب له ما فعل ولا يكون كمن لم يصل قيل وكذلك نقول من فعلها وترك بعض واجباتها لم يكن بمنزلة من لم يأت بسوء منها بل يثاب على ما فعل ويعاقب على ما ترك وإنما يؤمر بالإعادة لدفع عقوبة ما ترك وترك الواجب سبب للعقاب فإذا كان يعاقب على ترك البعض لزمه أن يفعلها فإن كان له جبران أو أمكن فعله وحده وإلا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 300

فعله مع غيره فإنه لا يمكن فعله مفردا فإن قيل فإذا لم يكن فعله مفردا طاعة لم يثب عليه أولا قيل هو أولى فعله ولم يكن يعلم أنه لا يجوز أو كان ساهيا كالذي يصلي بلا وضوء أو يسهو عن القراءة والسجود المفروض فيثاب على ما فعل ولا يعاقب بنسيانته وخطئه لكن يؤمر بالإعادة لأنه لم يفعل ما أمر به أولا كالتائم إذا استيقظ في الوقت فإنه يؤمر بالصلاة لأنها واجبة عليه في وقتها إذا أمكن وإلا صلاها أي وقت استيقظ فإنه حينئذ يؤمر بها وأما إذا أمر بالإعادة فقد علم أنه لا يجوز فعل ذلك مفردا فلا يؤمر به مفردا فإن قيل فلو تعمد أن يفعلها مع ترك الواجبات التي يعلم وجوبها قيل هذا مستحق للعقاب فإنه عاص بهذا الفعل وهذا قد يكون إثمه كإثم التارك وإن قدر أن هذا قد يثاب فإنه لا يثاب عليه ثواب من فعله مع غيره كما أمر به بل أكثر ما يقال إن له عليه ثوابا بحسبه لكن الذي يعرف أنه إذا لم يكن يعرف أن هذا واجب أو منهي عنه فإنه يثاب على ما فعله قال الله تعالى { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ } {7} وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } {8} الزلزلة 7-8 القرآن وذكر الله ودعاؤه خير وإلا فالمسلم لا يصلى إلى غير قبلة أو بغير وضوء أو ركوع أو سجود ومن فعل ذلك كان مستحقا للذم والعقاب ومع هذا فقد يمكن إذا فعل ذلك مع اعترافه بأنه مذنب لا على طريق الإستهانة والإستهزاء والإستخفاف بل على طريق الكسل أن يثاب على ما فعله كمن ترك واجبات الحج المجبورة بدم لكن لا يكون ثوابه كما إذا فعل ذلك مع غيره على الوجه المأمور به (ملاحظة التوسع في هذا الموضوع موجود في تفسير النساء 103))¹

من أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة

قال تعالى { مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 31-32 جعل الله الاسلام مبينا على أركان خمسة ومن أكدها الصلاة وهي خمسة فروض وقرن معها الزكاة فمن أكد العبادات الصلاة وتليها الزكاة ففي الصلاة عبادته وفي الزكاة الاحسان الى خلقه فكرر فرض الصلاة في القرآن في غير آيه ولم يذكرها إلا قرن معها الزكاة من ذلك قوله تعالى { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ } البقرة 43 وقال { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ } التوبة 11 وقال { وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَامَةِ } البينة 5 وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رواه مسلم من حديث عمر أن جبريل سأل النبي عن الاسلام فقال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وعنه قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقوموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا من دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ولما بعث معاذ الى اليمن قال له إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 200-204

الله حجاب فصل وجاء ذكر الصلاة في القرآن مجملا فبينه الرسول وان بيانه أيضا من الوحي لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة قال حسان بن عطية كان جبريل ينزل على النبي بالسنة يعلمه إياها كما يعلمه القرآن فقد سمي الله الزكاة صدقة وزكاة ولفظ الزكاة في اللغة يدل على النمو والزرع يقال فيه زكا إذا نما ولا ينمو إلا إذا خلص من الدغل فلهذا كانت هذه اللفظة في الشريعة تدل على الطهارة {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} الشمس 9 {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} الأعلى 14 نفس المتصدق تزكو وماله يزكو يظهر ويزيد في المعنى¹

أمر الله سبحانه وتعالى بإقامة الصلاة وذم المصلين الساهين عنها

قال تعالى {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 31 {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} 32 {الروم 31-32} أن الله سبحانه وتعالى أمر في كتابه بإقامة الصلاة وذم المصلين الساهين عنها المضيعين لها فقال تعالى في غير موضع {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} البقرة 43 وإقامتها تتضمن إتمامها بحسب الإمكان كما سيأتى فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم من بعدى ظهري وفى رواية أنتموا الركوع والسجود قال الله تعالى فى غير موضع من كتابه {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاْكِعِينَ} البقرة 43 وقال تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 وسيأتى بيان الدلالة فى هذه الآيات وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين وأخرج أصحاب السنن أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأصحاب المسانيد كمسند أحمد وغير ذلك من اصول الإسلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله دخل المسجد فدخل رجل ثم جاء فسلم على النبي فرد رسول الله عليه السلام وقال إرجع فصل فإنك لم تصل فرجع الرجل فصلى كما كان يصلى ثم سلم عليه فقال رسول الله وعليك السلام ثم قال إرجع فصل فإنك لم تصل حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرجل والذي بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى قال إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راکعا ثم إرفع حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إجلس حتى تطمئن جالسا ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية للبخارى إذا قمت إلى الصلاة فإسبغ الوضوء ثم إستقبل القبلة فكبر وإقرأ بما تيسر من القرآن ثم إركع حتى تطمئن راکعا ثم إرفع رأسك حتى تعتدل قائما ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى وتطمئن جالسا ثم إسجد حتى تطمئن ساجدا ثم إرفع حتى تستوى قائما ثم إفعل ذلك فى صلاتك كلها وفى رواية له ثم إركع حتى تطمئن راکعا ثم إرفع حتى تستوى قائما وبأقيه مثله وفى رواية وإذا فعلت هذا فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هذا فإنما إنتقصته من صلاتك وعن رفاعة بن رافع رضى الله عنه أن رجلا دخل المسجد فذكر الحديث وقال فيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا تتم صلاة لأحد من الناس حتى يتوضأ فيضع الوضوء مواضعه ثم يكبر ويحمد الله عز وجل ويثنى عليه ويقرأ بما شاء من القرآن ثم يقول الله أكبر ثم يركع حتى يطمئن راکعا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قائما ثم يسجد حتى يطمئن ساجدا ثم يقول الله أكبر ثم يرفع رأسه حتى يستوى قاعدا ثم يقول الله أكبر ثم يسجد حتى يطمئن مفاصله ثم يرفع رأسه فيكبر فإذا فعل ذلك فقد تمت صلاته وفى رواية إنها لا تتم صلاة أحدكم حتى يسبغ الوضوء كما أمر الله عز وجل

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 6-8

فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبر الله ويحمده ثم يقرأ من القرآن ما أذن له وتيسر وذكر نحو اللفظ الأول وقال ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه وربما قال جبهته من الأرض حتى تطمئن مفاصله وتسترخى ثم يكبر فيستوى قاعدا على مقعدته ويقوم صلته فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال لا تتم صلاة لأحدكم حتى يفعل ذلك رواه أهل السنن أبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن والروايتان لفظ أبي داود وفي رواية ثالثة له قال إذا قمت فتوجهت إلى القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن وبما شاء الله أن تقرأ فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتك وإمدد ظهرك وقال إذا سجدت فمكن لسجودك فإذا رفعت فاقعد على فخذك اليسرى وفي رواية أخرى قال إذا أنت قمت في صلاتك فكبر الله عز وجل ثم اقرأ ما تيسر عليك من القرآن وقال فيه فإذا جلست في وسط الصلاة فاطمئن وإفترش فخذك اليسرى ثم تسجد ثم غدا قمت فمثل ذلك حتى تفرغ من صلاتك وفي رواية أخرى قال فتوضا كما أمر الله ثم تشهد فأتهم ثم كبر فإن كان معك قرآن فإقرأ به وإلا فاحمد الله عز وجل وكبره وهله وقال فيه وإن انتقصت منه شيئا إنتقصت من صلاتك فالنبي أمر ذلك المسيء في صلاته بأن يعيد الصلاة وأمر الله ورسوله إذا أطلق كان مقتضاه الوجوب وأمره إذا قام إلى الصلاة بالطمأنينة كما أمره بالركوع والسجود وأمره المطلق على الإيجاب وأيضا قال له فإنك لم تصل فنفي أن يكون عمله الأول صلاة والعمل لا يكون منفيا إلا إذا إنتفى شيء من واجباته فأما إذا فعل كما أوجبه الله عز وجل فإنه لا يصح نفيه لإنتفاء شيء من المستحبات التي ليست بواجبة وأما ما يقوله بعض الناس إن هذا نفي للكمال كقوله لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فيقال له نعم هو لنفي الكمال لكن لنفي كمال الواجبات أو لنفي كمال المستحبات فأما الأول فحق وأما الثاني فباطل لا يوجد مثل ذلك في كلام الله عز وجل ولا في كلام رسوله قط وليس بحق فإن الشيء إذا كملت واجباته فكيف يصح نفيه وأيضا فلو جاز لجاز نفي صلاة عامة الأولين والآخرين لأن كمال المستحبات من أندر الأمور وعلى هذا فما جاء من نفي الأعمال في الكتاب والسنة وإنما هو لإنتفاء بعض واجباته كقوله تعالى {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} وقوله تعالى {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} {النور 47} وقوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} {الحجرات 15} الآية وقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ} {النور 62} الآية ونظائر ذلك كثيرة ومن ذلك قوله لا إيمان لمن لا أمانه له ولا صلاة إلا بوضوء¹

فإن الله تعالى قال {فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} {النساء 103} والموقوت قد فسره السلف بالمفروض وفسروه بماله وقت المفروض هو المقدر المحدد فإن التوقيت والتقدير والتحديد والفرض ألفاظ متقاربة وذلك وجب أن الصلاة مقدره محددة موقوتة وذلك في زمانها وأفعالها وكما أن زمانها محدود فأفعالها أولى أن تكون محدودة موقوتة وهو يتناول

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 527- 531 و القواعد النورانية ج: 1 ص: 26-34

تقدير عددها بأن جعله خمسا وجعل بعضها أربعا في الحضر وإثنتين في السفر وبعضها ثلاثا وبعضها إثنتين في الحضر والسفر وتقدير عملها أيضا ولذا يجوز عند العذر الجمع المتضمن لنوع من التقدير والتأخير في الزمان كما يجوز أيضا القصر من عددها ومن صفتها بحسب ما جاءت به الشريعة وذلك أيضا مقدر عند العذر كما هو مقدر عند غير العذر ولهذا فليس للجامع بين الصلاتين أن يؤخر صلاة النهار إلى الليل أو صلاة الليل إلى النهار وصلاتى النهار الظهر والعصر وصلاتى الليل المغرب والعشاء وكذلك اصحاب الأعدار الذين ينقصون من عددها وصفتها وهو موقون محدود ولا بد أن تكون الأفعال محدودة الإبتداء والإنتهاء فالقيام محدود بالإنتصاب بحيث لو خرج عن حد المنتصب إلى حد المنحنى الراكع بإختياره لم يكن قد أتى بحد القيام ومن المعلوم أن ذكر القيام الذى هو القراءة أفضل من ذكر الركوع والسجود ولكن نفس عمل الركوع والسجود أفضل من عمل القيام ولهذا كان عبادة بنفسه ولم يصح فى شرعنا إلا الله بوجه من الوجوه وغير ذلك من الأدلة المذكورة فى غير هذا الموضع وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن هذه الأفعال مقدره محدودة بقدر التمكن منها فالساجد عليه أن يصل إلى الأرض وهو غاية التمكن ليس له غاية دون ذلك إلا لعذر وهو من حين نحنائه أخذ فى السجود سواء سجد من قيام أو من قعود فينبغى أن يكون إبتداء السجود مقدرًا بذلك بحيث يسجد من قيام أو قعود لا يكون سجوده من إحناء فإن ذلك يمنع كونه مقدرًا محدودًا بحسب الإمكان ومتى وجب ذلك وجب الاعتدال فى الركوع وبين السجودتين وأيضا فى ذلك إتمام الركوع والسجود وأيضا فأفعال الصلاة إذا كانت مقدره وجب أن يكون لها قدر وذلك هو الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يكن لفعله قدر أصلا فإن قدر الشيء ومقداره فيه زيادة على أصل وجوده ولهذا يقال للشيء الدائم ليس له قدر فإن القدر لا يكون لأدنى حركة بل لحركة ذات إمتداد وأيضا فإن الله عز وجل أمرنا بإقامتها والإقامة أن تجعل قائمة والشيء القائم هو المستقيم المعتدل فلا بد أن تكون أفعال الصلاة مستقرة معتدلة وذلك إنما يكون بثبوت أعضائها وإستقرارها وهذا يتضمن الطمأنينة فإن من نقر نقر الغراب لم يقيم السجود ولا يتم سجوده إذا لم يثبت ولم يستقر وكذلك الراكع يبين ذلك ما جاء فى الصحيحين عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ سوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة وأخرجه من حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أتموا الصفوف فإنى أراكم من خلف ظهري وفى لفظ أقيموا الصفوف وروى البخارى من حديث حميد عن أنس قال أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقيموا صفوفكم وتراصوا فإنى أراكم من وراء ظهري وكان أحدنا يلصق منكبه بمنكب صاحبه وبدنه ببدنه فإذا كان تقويم الصف وتعديله من تمامها وإقامتها بحيث لو خرجوا عن الإستواء والإعتدال بالكلية حتى يكون رأس هذا عند النصف الأسفل من هذا لم يكونوا مصطفين ولكانوا يؤمرون بالإعادة وهم بذلك أولى من الذى صلى خلف الصف وحده فأمره النبى أن يعيد صلاته فكيف بتقويم أفعالها وتعديلها بحيث لا يقيم صلبه فى الركوع والسجود ويدل على ذلك وهو دليل مستقل فى المسألة ما أخرجه فى الصحيحين عن شعبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه عن النبى قال أقيموا الركوع والسجود فوالله إنى لأراكم من بعدى وفى رواية من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم وفى رواية للبخارى عن همام عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أنه سمع النبى يقول أتموا الركوع والسجود فوالذى نفسى بيده انى لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى وإبن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه أن نبى الله قال أتموا الركوع والسجود ولفظ إبن أبى عروبة أقيموا الركوع والسجود فإنى أراكم وذكره فهذا يبين أن إقامة الركوع والسجود توجب إتمامها كما فى اللفظ الآخر وأيضا فأمره لهم بإقامة الركوع والسجود يتضمن

السكون فيهما إذ من المعلوم أنهم كانوا يأتون بالإنحاء في الجملة بل الأمر بالإقامة يقتضى أيضا الاعتدال فيهما وإتمام طرفيهما وفي هذا رد على من زعم أنه لا يجب الرفع فيهما وذلك أن هذا أمر للمأمومين خلفه ومن المعلوم أنه لم يكن يمكنهم الإنصراف قبله وأيضا ف قوله تعالى {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} البقرة 238 أمر بالقنوت في القيام لله والقنوت دوام الطاعة لله عز وجل سواء كان في حال الإنتصاب أو في حال السجود¹

" من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة "

قال تعالى {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 31-32 وعماد الدين الذي لا يقوم إلا به هو الصلوات الخمس المكتوبات ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة وهي أول ما أوجبه الله من العبادات والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله وآخر ما يفقد من الدين فإذا ذهب الدين كله وهي عمود الدين فمتى ذهب سقط الدين قال النبي رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر ههنا فإنها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات فإنه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة وبالصبر تارة وبالنسك تارة²

ثم أهل التفرق والاختلاف

قال تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 543-548

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 430

ومن الأمور التي نهى الله عنها في كتابه الفرق والاختلاف كقوله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} آل عمران 103 إلى قوله {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {105} {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} {106} آل عمران 105-106 قال ابن عباس تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَأَسْتَأْذِنُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} {الأنعام 159} وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} {الروم 30} إلى قوله تعالى {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} {32} {الروم 30-32} وقد ذم أهل التفرق والاختلاف في مثل قوله {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ} {البينة 4} وفي مثل قوله {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} {إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} {119} {هود 118-119} وفي مثل قوله {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} {البقرة 176} وكذلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم توافق كتاب الله كالحديث المشهور عنه الذي رواه مسلم بعضه عن عبد الله بن عمرو وسائره معروف في مسند أحمد وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يتناظرون في القدر ورجل يقول ألم يقل الله كذا ورجل يقول ألم يقل الله كذا فكانما فقيء في وجهه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله ببعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا لا ليكذب بعضه بعضا انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه هذا الحديث أو نحوه وكذلك قوله المراء في القرآن كفر وكذلك ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ} {آل عمران 7} إلى قوله {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} {آل عمران 7} فقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم¹

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف في الكتاب الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض²

كل مبتدع دينا خالف به سنة الرسول لا يتبع الا دينا مبدلا او منسوخا

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} { مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} {الروم 30-32}

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 453 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 310 و درء التعارض ج: 1 ص: 48

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 341

وفى الحديث الصحيح عن النبي قال من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى
ومن عصانى فقد عصى الله ومن عصى أميرى فقد عصانى وقال إنما الطاعة فى المعروف
يعنى اذا أمر أميرى بالمعروف فطاعته من طاعته وكل من عصى الله فقد عصى الرسول فان
الرسول يأمر بما أمر الله به بل من أطاع رسولا واحدا فقد أطاع جميع الرسل ومن آمن بواحد منهم
فقد آمن بالجميع ومن عصى واحدا منهم فقد عصى الجميع ومن كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع
لأن كل رسول يصدق الآخر ويقول انه رسول صادق ويأمر بطاعته فمن كذب رسولا فقد كذب الذي
صدقه ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته ولهذا كان دين الأنبياء واحدا كما فى الصحيحين
عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي أنه قال انا معاشر الأنبياء ديننا واحد وقال تعالى
{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ
أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} {الشورى 13} وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ {52} فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {53} المؤمنون 51-53 وقال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30}
مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا
كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 30-32 ودين الأنبياء كلهم الاسلام كما أخبر الله بذلك فى
غير موضع وهو الإستسلام لله وحده وذلك انما يكون بطاعته فيما أمر به فى ذلك الوقت فطاعة كل
نبي هي من دين الاسلام اذ ذاك واستقبال بيت المقدس كان من دين الاسلام قبل النسخ ثم لما أمر
باستقبال الكعبة صار استقبالها من دين الاسلام ولم يبق استقبال الصخرة من دين الاسلام ولهذا خرج
اليهود والنصارى عن دين الاسلام فانهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله واعتاضوا عن ذلك بمبدل
أو منسوخ وهكذا كل مبتدع دينا خالف به سنة الرسول لا يتبع الا دينا مبدلا او منسوخا فكل من
خالف ما جاء به الرسول اما أن يكون ذلك قد كان مشروعا لنبي ثم نسخ على لسان محمد واما أن لا
يكون شرع قط فهذا كالأديان التى شرعها الشياطين على السنة أوليائهم قال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ
شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ} {الشورى 21} وقال {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ
لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} {الأنعام 121} وقال {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ
الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ} {الأنعام 112} ولهذا كان الصحابة اذا قال أحدهم برأيه شيئا يقول ان كان صوابا فمن الله
وان كان خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان¹

المختلفون كانوا قاصدين البغى عالمين بالحق

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 180

أن الله تعالى ذكر أن المختلفين جاءتهم البينة وجاءهم العلم وإنما اختلفوا بغيا ولهذا ذمهم الله وعاقبهم فإنهم لم يكونوا مجتهدين مخطئين بل كانوا قاصدين البغي عالمين بالحق معرضين عن القول وعن العمل به ونظير هذا قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} آل عمران 19 قال الزجاج اختلفوا للبغي لا لقصد البرهان وقال تعالى {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} يونس 93 وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} {16} {وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} {17} {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} {18} {إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} {19} {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} {20} الجاثية 16-20 فهذه المواضع من القرآن تبين أن المختلفين ما اختلفوا حتى جاءهم العلم والبيئات فاختلَفوا للبغي والظلم لا لأجل اشتباه الحق بالباطل عليهم وهذا حال أهل الاختلاف المذموم من أهل الأهواء كلهم لا يختلفون إلا من بعد أن يظهر لهم الحق ويجيبهم العلم فيبغى بعضهم على بعض ثم المختلفون المذمومون كل منهم يبغى على الآخر فيكذب بما معه من الحق مع علمه أنه حق ويصدق بما مع نفسه من الباطل مع العلم أنه باطل وهؤلاء كلهم مذمومون ولهذا كان أهل الاختلاف المطلق كلهم مذمومين في الكتاب والسنة فإنه ما منهم إلا من خالف حقا واتبع باطلا ولهذا أمر الله الرسل أن تدعوا إلى دين واحد وهو دين الإسلام ولا يتفرقوا فيه وهو دين الأولين والآخرين من الرسل وأتباعهم قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} {الشورى 13} {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} {51} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} {52} فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {53} المؤمنون 51-53 أي كتبنا اتبع كل قوم كتابا مبتدعا غير كتاب الله فصاروا متفرقين مختلفين لأن أهل التفرق والاختلاف ليسوا على الحنيفية المحضة التي هي الإسلام المحض الذي هو إخلاص الدين لله الذي ذكره الله في قوله {وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} البيئنة 5 وقال في الآية الأخرى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {30} {مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} {الروم 30-32} فنهاه أن يكون من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وأعاد حرف من ليبين أن الثاني بدل من الأول والبدل هو المقصود بالكلام وما قبله توطئة له وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} {هود 110} إلى قوله {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} {إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ} {119} {هود 118-119} فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون¹

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 263-270

ينبغي للانسان أن يعود نفسه التفقه الباطن في قلبه والعمل به

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ جَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} { الروم 30-32

وقال الله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } النساء 59 وقال تعالى { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } الحشر 10 اذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الامر منا وامرنا عند التنازع فى شىء أن نرده الى الله والى الرسول وامرنا بالاجتماع والانتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف وامرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالايمان وسمانا المسلمين وامرنا ان ندوم عليه الى الممات فهذه النصوص وما كان فى معناها توجب علينا الاجتماع فى الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا فى الدين وولاية الأمور فينا هم خلفاء الرسول قال النبى فى الحديث الصحيح إن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى قام نبى و إنه لا نبى بعدى وسيكون خلفاء ويكثرون قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال اوفوا بيعة الأول فالأول وأدوا لهم الذى لهم فان الله سائلهم عما استرعاهم وقال ايضا العلماء ورثة الأنبياء وروى عنه أنه قال وددت أنى قد رأيت خلفائى قالوا ومن خلفائك قال الذين يحيون سنتى يعلمونها الناس فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء وبذلك فسر ها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالامام احمد وغيره وهو ظاهر قد قررناه فى غير هذا الموضع فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والاجماع هى بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض وهم أهل السنة والجماعة¹

على كل مؤمن أن يحب ما أحب الله ورسوله وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله مما دل عليه فى كتابه فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل فى الدين لشخص إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لقول إلا لكتاب الله عز وجل ومن نصب شخصا كائنا من كان فوالى وعادى على موافقته فى القول والفعل فهو { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً } { الروم 32 الآية وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين مثل إتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قنوته وأصحابه هم العيار فيوالي من وافقهم ويعادى من خالفهم فينبغي للانسان أن يعود نفسه التفقه الباطن فى قلبه والعمل به فهذا

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 116- 117

زاجر وكمائن القلوب تظهر عند المحن وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة او يعتقد لها لكونها قول أصحابه ولا يناجز عليها بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله أو أخبر الله به ورسوله لكون ذلك طاعة لله ورسوله وينبغي للداعي أن يقدم فيما استدلوا به من القرآن فانه نور وهدى ثم يجعل إمام الأئمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كلام الأئمة ولا يخلو أمر الداعي من أمرين الأول أن يكون مجتهدا او مقلدا فالمجتهد ينظر في تصانيف المتقدمين من القرون الثلاثة ثم يرجح ما ينبغي ترجيحه الثاني المقلد يقلد السلف إذ القرون المتقدمة أفضل مما بعدها فاذا تبين هذا فنقول كما أمرنا ربنا {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} البقرة 136 إلى قوله {مُسْلِمُونَ} البقرة 136 ونأمر بما أمرنا به ونهى عما نهانا عنه في نص كتابه وعلى لسان نبيه كما قال تعالى { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ } الحشر 7 الآية فبنى أحكام هذا الدين على ثلاثة أقسام الكتاب والسنة والاجماع¹

لا يخالف الكتاب والسنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل ولا سمع

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 { الروم 30-32

قال الامام أحمد في خطبته في الرد على الجهمية والزنادقة الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى و يصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى و يبصرون بنوره أهل العمى فكم من قتيل لإبليس قد احيوه و كم ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس و أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين و إنتحال المبطلين و تأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة و أطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجتمعون على مخالفة الكتاب يقولون على الله و في الله و في الكتاب بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام و يخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم فنعود بالله من فتن المضلين والثانية طريقة هشام و أتباعه يحكى عنهم أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من إتصافه بالنقائص و مماثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء و اتباعهم و هو الإعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } 102 { وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا } 103 { آل عمران 102- 103 } وقال { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه وَمَا اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } البقرة 213 وقال تعالى { المص } 1 { كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } 2 { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } 3 { الاعراف 1-3 } وقال تعالى { فَمَا يَأْتِيكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } 123 { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 9

مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {124} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {125}
قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {126} طه 123-126

و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 و قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } {2} الحجرات 1-2 و قال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَزَّعْمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } {60} وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } {61} فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْضَنَا لِلَّهِ إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا } {62} أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } {63} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } {65} النساء 60-65 و قوله تعالى { وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } الأنعام 153 و قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } الأنعام 159 و قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 و قوله { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } الشورى 13 فهذه النصوص و غيرها تبين أن الله أرسل الرسل و أنزل الكتب لبيان الحق من الباطل و بيان ما اختلف فيه الناس و أن الواجب على الناس اتباع ما أنزل اليهم من ربهم و رد ما تنازعوا فيه الى الكتاب و السنة و ان من لم يتبع ذلك كان منافقا و ان من اتبع الهدى الذي جاءت به الرسل فلا يضل و لا يشقى و من أعرض عن ذلك حشر أعمى ضالاً شقيفا معذبا و أن الذين فرقوا دينهم قد برىء الله و رسوله منهم فاتبع الإمام أحمد طريقة سلفه من أئمة السنة و الجماعة المعتصمين بالكتاب و السنة المتبعين ما أنزل الله اليهم من ربهم و ذلك أن ننظر فيما وجدنا الرب قد أثبتته لنفسه في كتابه أثبتناه و ما وجدناه قد نفاه عن نفسه نفيناها و كل لفظ و جد في الكتاب و السنة بالإثبات أثبت ذلك اللفظ و كل لفظ و جد منفيها نفي ذلك اللفظ و أما الألفاظ التي لا توجد في الكتاب و السنة بل و لا في كلام الصحابة و التابعين لهم باحسان و سائر أئمة المسلمين لا إثباتها و لا نفيها و قد تنازع فيها الناس فهذه الألفاظ لا تثبت و لا تنفي إلا بعد الإستفسار عن معانيها فان وجدت معانيها مما أثبتته الرب لنفسه أثبت وان و جدت مما نفاه الرب عن نفسه نفيت وان و جدنا اللفظ أثبتت به حق و باطل أو نفي به حق و باطل أو كان مجملا يراد به حق و باطل و صاحبه أراد به بعضها لكنه عند الاطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد و غير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق اثباتها و لا نفيها كلفظ الجوهر و الجسم و التحيز و الجهة و نحو ذلك من الألفاظ التي تدخل في هذا المعنى فقل من تكلم بها نفيها أو إثباتها إلا و أدخل فيها باطلا و أن أراد بها حقا و السلف و الأئمة كرهوا هذا الكلام المحدث لاشتماله على باطل و كذب و قول على الله بلا علم و كذلك ذكر

أحمد في رده على الجهمية أنهم يفترون على الله فيما ينفونه عنه و يقولون عليه بغير علم و كل ذلك مما حرمه الله و رسوله و لم يكره السلف هذه لمجرد كونها اصطلاحية و لا كرهوا الإستدلال بدليل صحيح جاء به الرسول بل كرهوا الأقوال الباطلة المخالفة للكتاب و السنة و لا يخالف الكتاب و السنة إلا ما هو باطل لا يصح بعقل و لا سمع ولهذا لما سئل أبو العباس ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين و قال و أما توحيد أهل الباطل فهو الخوض في الجواهر و الأعراض و إنما بعث الله النبي صلى الله عليه و سلم بانكار ذلك و لم يرد بذلك أنه أنكر هذين اللفظين فإنهما لم يكونا قد أحدثا في زمنه و إنما أراد إنكار ما يعنى بهما من المعاني الباطلة فإن أول من أحدثهما الجهمية و المعتزلة و قصدهم بذلك إنكار صفات الله تعالى أو أن يرى أو أن يكون له كلام يتصف به و أنكرت الجهمية أسماءه أيضا و أول من عرف عنه إنكار ذلك الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط و قال يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا و لم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه و كلام السلف و الأئمة في ذم هذا الكلام و أهله مبسوط في غير هذا الموضوع¹

من عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد

قال تعالى { فَأَقْمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

ولهذا قيل من عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالحب فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد وذلك أن الحب الذي ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها وصاحبه إنما يحب في الحقيقة نفسه وقد اتخذ إلهه هواه فلهذا كان زنديقا ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية كالفائلين بوحدة الوجود فإن هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط ليس معه رجاء ولا خوف ولهذا يتنوعون فهم من الذين قال الله فيهم أفرأيت من اتخذ إلهه هواه سورة الجاثية 23 ولهذا يجوزون الشرك كما قال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها الآية وما بعدها إلى قوله **كل حزب بما لديهم فرحون** سورة الروم 30 32²

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 300-305

²رسالة في تحقيق الشكر ج: 1 ص: 112=113

(ناقص ن م) فصار فيه من الفواحش الظاهرة والباطنة والإثم والبغي بغير الحق والإشراك بالله ما لم ينزل به سلطانا والقول على الله بغير علم ما لا يحصيه إلا الله فإنه تنوع وتعدد وتفرق أهله فيه وصاروا شيعة لكل قوم وذوق ومشروب وطريق يفارقون به غيرهم وسبب هذا الإضراب أنه ليس من عند الله وما كان من عند غير الله وجدوا فيه اختلافا كثيرا قال تعالى { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32¹

سبب الإجماع والألفة وسبب الفرقة

قال تعالى { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

قال تعالى { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ } {الشورى 14} فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم الذى بين لهم ما يتقون فإن الله ما كان ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغيا والبغى مجاوزة الحد كما قال ابن عمر الكبر والحسد وهذا بخلاف التفرق عن إجتهد ليس فيه علم ولا قصد به البغى كتنازع العلماء السائغ والبغى إما تضييع للحق وإما تعد للحد فهو إما ترك واجب وإما فعل محرم فعلم أن موجب التفرق هو ذلك وهذا كما قال عن أهل الكتاب { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } {المائدة 14} فأخبر أن نسيانهم حظا مما ذكروا به وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به كان سببا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم وهكذا هو الواقع فى أهل ملتنا مثلما نجده بين الطوائف المتنازعة فى أصول دينها وكثير من فروعها من أهل الأصول والفروع ومثلما نجده بين العلماء وبين العباد ممن يغلب عليه الموسوية أو العيسوية حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة ليست الأخرى على شىء كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة كل منهما ينفى طريقة الآخر ويدعى أنه ليس من أهل الدين أو يعرض عنه أعراض من لا يعده من الدين فتقع بينهما العداوة والبغضاء وذلك أن الله أمر بطهارة القلب وأمر بطهارة البدن وكلا الطهارتين الطهارتين من الدين الذى أمر الله به وأوجبه قال تعالى { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {المائدة 6} وقال { فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ } {التوبة 108} وقال { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } {البقرة 222} وقال { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } {التوبة 103} وقال { أَوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ } {المائدة 41} وقال { إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ } {التوبة 28} وقال { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } {الأحزاب 33} فنجد كثيرا من المتفقهة والمتعبدة إنما همته طهارة البدن فقط ويزيد فيها

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 311

على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة القلب ما أمر به إيجابا أو استحبابا ولا يفهم من الطهارة الا ذلك ونجد كثيرا من المتصوفة والمتفكرة إنما همته طهارة القلب فقط حتى يريد فيها على المشروع اهتماما وعملا ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجابا أو استحبابا فالأولون يخرجون الى الوسوسة المذمومة في كثرة صلب الماء وتنجيس ما ليس بنجس واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتغال قلوبهم على أنواع من الحسد والكبر والغل لإخوانهم وفي ذلك مشابهة بينة لليهود وآخرون يخرجون الى الغفلة المذمومة فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلون الجهل بما تجب معرفته من الشر الذي يجب اتقائه من سلامة الباطن ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعرفة المأمور بها ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ويقيمون الطهارة الواجبة مضاهات للنصارى وتقع العدواة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذي هو مجاوزة الحد إما تفريط وتضييعا للحق وإما عدوانا وفعلا للظلم والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض وتارة يكون في حقوق الله وهما متلازمان ولهذا قال بغيا بينهم فإن كل طائفة بغت على الأخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها وقال تعالى { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ } {البينة} 4 وقال تعالى { كَانِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {البقرة} 213 وقال تعالى { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ } {الحاتية} 16 الآية وقال تعالى في موسى بن عمران مثل ذلك وقال { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } آل عمران 105 وقال { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } {الأنعام} 159 وقال { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} { الروم } 30- 32 لأن المشركين كل منهم يعبد إليها يهواه كما قال في الآية الأولى { كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } {الشورى} 13 وقال { يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } {51} { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } {52} { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {53} { المؤمنون } 51- 53 فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما أمر به باطنا وظاهرا وسبب الفرقة ترك حظ مما أمر العبد به والبغى بينهم ونتيجة الجماعة رحمة الله ورضوانه وصلواته وسعادته الدنيا والآخرة وبياض الوجوه ونتيجة الفرقة عذاب الله ولعنته وسواد الوجوه وبراءة الرسول منهم وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة فإنهم اذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين فلا تكون طاعة الله ورحمته بفعل لم يأمر الله به من إعتقاد أو قول أو عمل فلو كان القول أو العمل الذى اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله ولا سببا لرحمته وقد إحتج بذلك أبو بكر عبد العزيز فى أول التنبيه نبه على هذه النكته وقال قال فى الحديث المشهور فى السنن من رواية فقيهى الصحابة عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولات الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وفى حديث أبى هريرة المحفوظ إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتنصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم فقد جمع فى هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة

المسلمين وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التي لله ولعباده وتتنظم مصالح الدنيا والآخرة وبيان ذلك أن الحقوق قسمان حق لله وحق لعباده فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئاً كما جاء لفظه في أحد الحديثين وهذا معنى إخلاص العمل لله كما جاء في الحديث الآخر وحقوق العباد قسمان خاص وعام أما الخاص فمثل بر كل إنسان والديه وحق زوجته وجاره فهذه من فروع الدين لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه ولأن مصلحتها خاصة فردية وأما الحقوق العامة فالناس نوعان رعاة ورعية فحقوق الرعاة مناصحتهم وحقوق الرعية لزوم جماعتهم فإن مصلحتهم لا تتم إلا بإجتماعهم وهم لا يجتمعون على ضلالة بل مصلحة دينهم ودنياهم في إجتماعهم وإعتصامهم بحبل الله جميعاً فهذه الخصال تجمع أصول الدين وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تميم الدارى قال قال رسول الله الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك له والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي مناصحة ولاية الأمر ولزوم جماعتهم فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة وأما النصيحة الخاصة لكل واحد واحد منهم بعينه فهذه يمكن بعضها ويتعذر إستيعابها على سبيل التعيين¹

" أن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا "

قال تعالى { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 31-32

فعن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أهل الكتابين افرقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وقال إنه سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به هذا حديث محفوظ من حديث صفوان بن عمرو عن الأزهر بن عبد الله الحرازي وعن أبي عامر عبد الله بن يحيى عن معاوية ورواه عنه غير واحد منهم أبو اليمان وبقية وأبو المغيرة رواه أحمد وأبو داود في سننه وقد روى ابن ماجه هذا المعنى من حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك الأشجعي ويروى من وجوه أخر فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بافتراق أمة على ثلاث وسبعين فرقة واثنتان وسبعون لا ريب أنهم الذين خاضوا كخوض الذين من قبلهم ثم هذا الاختلاف الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم إما في الدين فقط وإما في الدين والدنيا ثم قد يؤول إلى الدنيا وقد يكون الاختلاف في الدنيا فقط وهذا الاختلاف الذي دلت عليه هذه الأحاديث هو مما

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 14-19

نهى الله عنه في قوله سبحانه {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران 105 وقوله {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} الأنعام 159 وقوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الأنعام 153 وهو موافق لما رواه مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وروى أيضا في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما روى منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض

وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامه وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامه وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا ورواه البرقاني في صحيحه وزاد وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى يعبد فنام من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورون لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وهذا المعنى محفوظ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه يشير إلى أن الفرقة والاختلاف لا بد من وقوعهما في الأمة وكان يحذر أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة كما روى النزال بن سبرة عن عبد الله بن مسعود قال سمعت رجلا قرأ آية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافا فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهية وقال كلا كما محسن ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا رواه مسلم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع الآخر من الحق لأن كلا القارئین كان محسنا فيما قرأه وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا ولهذا قال حذيفة لعثمان أدرك هذه الأمة لا تختلف في الكتاب كما اختلفت فيه الأمم قبلهم لما رأى أهل الشام وأهل العراق يختلفون في حروف القرآن الاختلاف الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفاد ذلك شيئين أحدهما تحريم الاختلاف في مثل هذا والثاني الاعتبار بمن كان قبلنا والحذر من مشابهتهم¹

الأحزاب هم أصناف الأمم الذين تحزبوا

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 32-35

قال تعالى { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32

والأحزاب هم أصناف الأمم الذين تحزبوا وصاروا أحزاباً كما قال تعالى { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ } غافر 5 وقد ذكر الله طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها وقد قال تعالى عن مكذبي محمد { جُنُدٌ مِمَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ } ص 11 وهم الذين قال فيهم { فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32 وقال عن أحزاب النصارى { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } مريم 37 الآيات¹

قال تعالى { مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 31-32

لطائف لغوية

1- قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 أن أكثر استفهات القرآن أو كثيراً منها إنما هي استفهام انكار معناه الذم النهي إن كان انكاراً شرعياً أو معناه النفي والسلب إن كان انكاراً وجوداً ووقوعاً كما في قوله { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78 قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 الآية وكذلك قوله { اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } النمل 29²

2- قال تعالى { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } الروم 28 وقال تعالى { تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ } الروم 28 أي كخيفة بعضكم بعضاً وقوله تعالى { لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً } النور 12 وقوله { فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } البقرة 54 وقوله { نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ } آل عمران 61³

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 75-76

² مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 67

³ مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 458

3- قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32
 و الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان اى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين الله أي يعبد الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له¹

4- قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32
 وأما قول بعض الفقهاء ان الوجه مشتق من المواجهة فلا دليل عليه بل قد عارضه من قال هو مشتق من الوجاهة وكلاهما ضعيف وإنما المواجهة مشتق من الوجه كما أن المشافهة مشتق من الشفة والمناظرة بمعنى المقابلة مشتقة من النظر والمعانية من العين وأما اشتقاق الوجه الذى هو المتوجه من الوجه الذى هو التوجه فهذا اشبه لأن توجهه هو فعله المختص به الذى لا يفتقر فيه الى غيره بخلاف المواجهة فإنها تستدعى اثنين والانسان هو حارث همام وهمه هو توجهه وإنما يتوجه بهذا العضو الى أى شيء أراده وتوجه اليه ومن هذا الباب قوله تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } البقرة 112 وقول الخليل ونبينا والمؤمنين فى الصلاة { وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 79 وقوله { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } الروم 30²

5- قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} الروم 30-32
 وكان النبى يقول لأصحابه قولوا أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين والحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات قال محمد ابن كعب مستقيما وقال عطاء مخلصا وقال آخرون متبعا فهو مستقيم القلب الى الله دون ما سواه قال الله تعالى { فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } فصلت 6 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } الأحقاف 13 قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فلم يلتفتوا عنه يمينه ولا يسرة فلم يلتفتوا بقلوبهم الى ما سواه لا بالحب ولا بالخوف ولا بالرجاء ولا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 430

بالسؤال ولا بالتوكل عليه بل لا يحبون الا الله ولا يحبون معه أندادا ولا يحبون الا اياه لا لطلب منفعة ولا لدفع مضرة ولا يخافون غيره كائننا من كان ولا يسألون غيره ولا يتشرفون بقلوبهم الى غيره¹

6- قال تعالى {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} {32} الروم 31-32 فإن الصلاة أيضا تعم الصلاة المفروضة والتطوع وقد يدخل فيها كل ذكر الله إما لفظا وإما معنى قال ابن مسعود رضي الله عنه ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق وقال معاذ بن جبل مدارس العلم التسبيح²

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 33

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 1

الروم 33-45

{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتَبُونَ {36} أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {37} فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {38} وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لَيْرَبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ {39} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {40} ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {41} قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ {42} فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ {43} مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ {44} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ {45}

نم الله سبحانه حزين

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْتَبُونَ {36} } الروم 33-36 ولما كان الأمر كما أخبر الله به في قوله { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } النساء 79 أوجب هذا أن لا يطلب العبد الحسنات و الحسنات تدخل فيها كل نعمة إلا من الله و أن يعلم أنها من الله و حده فيستحق الله عليها الشكر الذي لا يستحقه غيره و يعلم أنه لا إله إلا هو كما قال تعالى { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } النحل 53 فهذا يوجب على العبد شكره و عبادته وحده حده ثم قال { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ تَجَارُونَ } النحل 53 و هذا إخبار عن حالهم و الجوار يتضمن رفع الصوت و الانسان إنما يجار إذا أصابه الضر و أما في حال النعمة فهو ساكن إما شاكرا و إما كفورا { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرُّ فَالْيَهُ تَجَارُونَ } {53} ثم إذا كَشَفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {54} النحل 53-54 وهذا المعنى قد ذكره الله في

غير موضع يذم من يشرك به بعد كشف البلاء عنه و إسباغ النعماء عليه فيضيف العبد بعد ذلك الانعام الى غيره و يعبد غيره تعالى و يجعل المشكور غيره على النعم كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} الروم 33-34 و قال تعالى { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } {63} قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } {64} الأنعام 63-64 و قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } {الزمر 8} وقوله { نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ } {الزمر 8} أي نسي الضر الذي كان يدعو الله لدفعه عنه كما قال في سورة الأنعام { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {40} بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } {41} الأنعام 40-41 فذم الله سبحانه حزبين حزبا لا يدعونه في الضراء و لا يتوبون اليه و حزبا يدعونه و يتضرعون اليه و يتوبون اليه فاذا كشف الضر عنهم أعرضوا عنه و أشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه فهذا الحزب نوعان كالمعطلة و المشركة حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعو الله و لم يتضرعوا اليه و لم يتوبوا اليه كما قال { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } {42} قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {43} الأنعام 42-43 و قال تعالى { وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ } {المؤمنون 76} و قال تعالى { أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ } {التوبة 126} و قال تعالى { وَلَنَذِيقَنَّ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {السجدة 21} و حزب يتضرعون اليه في حال الضراء و يتوبون اليه فاذا كشفها عنهم أعرضوا عنه كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {يونس 12} و قال تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } {فصلت 51} و قال تعالى { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّيْنَاكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } {الإسراء 67} و قال في المشركين ماتقدم { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } {53} ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {النحل 53-54} والممدوح هو القسم الثالث و هم الذين يدعونه و يتوبون اليه و يثبتون على عبادته و التوبة اليه في حال السراء فيعبدونه و يطيعونه في السراء و الضراء و هم أهل الصبر و الشكر كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام فقال تعالى { وَذَا النُّونِ إِذ ذُهِبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } {87} فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ } {88} الانبياء 87-88¹

الدعاء قصد المدعو والتوجه اليه

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوَّ

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 370 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 120

يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {35} وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ {36} الروم 33-36 و الدعاء قصد المدعو و التوجه إليه إما على وجه المسألة و إما على وجه العبادة المحضة لأن دعاء الشيء هو طلبه و إرادته سواء طلب لذاته أو للأمر منه و من ذلك قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر 60 فإنه فسر بالمسألة و بالعبادة و قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} الروم 33¹

لفظ الذوق مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 و لفظ الذوق و ان كان قد يظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب و السنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في الاحساس بالملائم و المنافر كما ان لفظ الاحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل و بالباطن و اما في اللغة فأصلة الرؤية كما قال { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ } مريم 98 و المقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } النحل 112 فجعل الخوف و الجوع مذوقا و اضاف اليهما اللباس ليشعر انه لبس الجائع و الخائف فشمله و احاط به احاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الالم لا لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع و قال تعالى { إِنَّكُمْ لَأَذَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } الصافات 38 و قال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ مِنَ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ } الدخان 49 و قال تعالى { ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } القمر 48 و قال { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ } الدخان 56 و قال تعالى { لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا } {24} إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا } {25} النبأ 24-25 و قال { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ } السجدة 21 و قد قال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا و بالاسلام ديناً و بمحمد نبياً فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم و المنافر كثير²

أخبر الله بالضلال و العذاب لمن ترك إتباع ما أنزله و إن كان له نظر و اجتهاد

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 فذكر سبحانه أنه يجزى الصادق عن آياته مطلقاً سواء كان مكذباً أو لم يكن سوء العذاب بما كانوا

¹ شرح العمدة ج: 4 ص: 28

² الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

يصدقون بيين ذلك أن كل من لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه أو ارتاب فيما جاء به فكل مكذب بما جاء به فهو كافر وقد يكون كافراً من لا يكذبه إذا لم يؤمن به ولهذا أخبر الله في غير موضع من كتابه بالضللال والعذاب لمن ترك إتباع ما أنزله وإن كان له نظر وجدل واجتهاد في عقليات وأمور غير ذلك وجعل ذلك من نعوت الكفار والمنافقين والسلطان هو الحجة المنزلة من عند الله كما قال تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون سورة الروم 35¹

يصف أهل الشرك بالفرية ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون } {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 كما قرن الله بين الشرك والكذب في غير موضع كقوله { وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } {30} حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ } {31} الحج 30-31 وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عدلت شهادة الزور الإشراف بالله مرتين ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } {الأعراف 152} وقال تعالى { وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } {74} وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } {75} القصص 74-75 وهذا الحق لله كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قال الله ورسوله أعلم قال حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً يا معاذ أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال الله ورسوله أعلم قال حقه عليه أن لا يعذبهم وقال تعالى { وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } {هود 50} ومثل هذا في القرآن متعدد يصف أهل الشرك بالفرية ولهذا طالبهم بالبرهان والسلطان كما في قوله { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } {المؤمنون 117} وقال { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } {32} وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون } {35} الروم 30-35 وقوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا } {32} الروم 31-32 لأن التوحيد هو دين الله الذي بعث به الأولين والآخرين كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } {الأنبياء 25} وقال تعالى { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ } {الزخرف 45} وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } {النحل 36} وقد ثبت في

¹ ادرء التعارض ج: 1 ص: 57

الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله يرضى لكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتمسوا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تتاصحوا من ولاة الله أمركم¹

القول بلا علم حرام بالنص والإجماع

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَنَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 أن القول بلا علم حرام بالنص و الإجماع قال تعالى { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } {الإسراء 36} وقال { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {الأعراف 33} وقال { هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } {آل عمران 66} وقال { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ } {الحج 3} وقال { الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا } {غافر 35} والسلطان الذي أتاهم هو الحجة الآتية من عند الله كما قال { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {الروم 35} وقال { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ } {156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } {157} {الصافات 156-157} وقال { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى } {النجم 23} فما جاءت به الرسل عن الله فهو سلطان فالقرآن سلطان و السنة سلطان لكن لا يعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء به إلا بالنقل الصادق عن الله فكل من احتج بشيء منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم فعليه أن يعلم صحته قبل أن يعتقد موجهه و يستدل به و إذا احتج به على غيره فعليه بيان صحته و إلا كان قائلا بلا علم²

طالبهم بالدليل الشرعي على أن الله شرع ان يعبد غيره

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَنَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } {النجم 23} والاسماء التي انكرها الله على المشركين بتسميتهم أو ثنائهم آلهة فاثبتوا لها صفة الالهية التي توجب استحقاقها أن تعبد وهذا المعنى لا يجوز إثباته الا بسلطان وهو الحجة وكون الشيء معبودا تارة يراد به أن الله أمر بعبادته فهذا لا يثبت إلا بكتاب منزل وتارة يراد به أنه متصف بالربوبية والخلق المقتضى لاستحقاق العبودية فهذا يعرف بالعقل ثبوته وانتفاؤه ولهذا قال تعالى

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 163-164

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 60-61

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنَّتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أُنَارَةٌ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {الأحقاف4 وقال في سورة فاطر {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا {فاطر40 فطالبهم بحجة عقلية عيانية وبحجة سمعية شرعية فقال { أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ {فاطر40 ثم قال { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ {فاطر40 كما قال هناك { أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ {الأحقاف4 فالكتاب المنزل والاثارة ما يؤثر عن الانبياء بالرواية والاسناد وقد يقيد في الكتاب فهذا بالرواية وفسر بالخط وهذا مطالبة بالدليل الشرعي على أن الله شرع ان يعبد غيره فيجعل شفيعا او يتقرب بعبادته الى الله وبيان انه لا عبادة اصلا الا بامر من الله فهذا قال تعالى {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ {المؤمنون117 كما قال في موضع اخر {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {30} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {31} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ {32} وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {35} الروم30-35 والسلطان الذي يتكلم بذلك الكتاب المنزل كما قال { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ {156} فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {157} الصافات 156-157 وقال {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ {غافر156}

لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب منزل

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {35} وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ {36} الروم33-36 وقد بين في غير موضع ان السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل من عند الله وهو الهدى الذي جاءهم من عند الله كما قال تعالى { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ {الروم35} وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة أو ما يسميه مكاشفات ومواجد وأذواق من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان هذه حال الكفار الذين قال فيهم ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا سورة غافر 4

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 426

فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقاً ومن المعلوم أن الذي يجادل في جميع آيات الله لا يجادل بسطان¹

{ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } أَوْ أَنْ اللَّهُ لَمْ يَهْلِكْ أَحَدًا وَلَمْ يَعْذِبْهُ إِلَّا بِالذَّنْبِ

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } {36} الروم 33-36 وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه والقسط بيده الأخرى يقبض ويبسط فبين أنه سبحانه يحسن ويعدل ولا يخرج فعله عن العدل والإحسان ولهذا قيل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ولهذا يخبر أنه تعالى يعاقب الناس بذنوبهم وأن إنعامه عليهم إحسان منه كما في الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقد قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء 79 أي ما أصابك من نعم تحبها كالنصر والرزق فإله أنعم بذلك عليك وما أصابك من نقم تكرهها فبذنوبك وخطاياك فالحسنات والسيئات هنا أراد بها النعم والمصائب

كما قال تعالى { وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ } الأعراف 168 وكما قال تعالى { إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ } التوبة 50 وقوله تعالى { إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا } آل عمران 120 ومثل هذا قوله تعالى { وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ } الروم 36 فأخبر أن ما يصيب به الناس من الخير فهو رحمة منه أحسن بها إلى عباده وما أصابهم به من العقوبات فبذنوبهم²

قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } النساء 79 فهذه الآية بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء وهي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضاً من الله أنعم بهما الله على العبد وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد

¹ الاستقامة ج: 1 ص: 22 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 199

² منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 139-141

غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال تعالى {وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} {الروم 36}¹

والقرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحدا ولم يعذبه إلا بذنب {وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} {الروم 36}²

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي انفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} {الشورى 30} وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} {آل عمران 155} وقال {أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ} {آل عمران 165} وقال {أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ} {الشورى 34} وقال {وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} {الشورى 48}³

في كل موضع ما يبين المراد باللفظ

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} {35} وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} {36} {الروم 33-36} قال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} {79} النساء 79 وأما القرآن فالمراد منه هذا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ليس المراد الطاعات والمعاصي وهذا كقوله تعالى {إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُوا وَتَنْفُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} {آل عمران 120} وكقوله {إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُّصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} {50} {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {51} {التوبة 50-51} الآية ومنه قوله تعالى { وَبَلَّوْنَا هُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {الأعراف 168} كما قال تعالى { وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} {الأنبياء 35} اي بالنعم والمصائب وهذا بخلاف قوله {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا} {الأنعام 160} وأمثال ذلك فان المراد بها الطاعة

¹الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 31 و مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 247

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 161

³مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 138

والمعصية وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى اشكال بل هو مبين وذلك انه اذا قال ما اصابك وما مسك ونحو ذلك كان من فعل غيرك بك كما قال {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} النساء 79 وكما قال تعالى {إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} {50} التوبة 50 وقال تعالى {وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ} الشورى 48 وإذا قال {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ} الأنعام 160 كانت من فعله لانه هو الجائى بها فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به¹

يحمد ويذم على مساعي القلوب وأعمالها

قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} {33} { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} {34} { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} {35} { وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} {36} { الروم 33-36 } وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والارادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله تعالى {وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} { الروم 36} ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقتدرن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل²

{ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {الروم 37}

اذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير

قال تعالى {36} { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {37} { فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {38} {الروم 37-38} عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك اسم الفقير اذا أطلق دخل فيه المسكين واذا أطلق لفظ المسكين تناول الفقير واذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله { وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوَثُّوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} {البقرة 271} وقوله { فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ} {المائدة 89} والثاني كقوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ} {التوبة 60} وهذه الأسماء التي تختلف دلالتها بالاطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة يكونان اذا أفرد أحدهما أعم من الآخر كاسم الايمان و المعروف مع العمل ومع الصدق

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 117

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 184

و المنكر مع الفحشاء ومع البغى ونحو ذلك وتارة يكونان متساويين فى العموم والخصوص كلفظ الايمان و البر و التقوى ولفظ الفقير و المسكين فأياها أطلق تناول ما يتناوله الآخر¹

فى الحديث الصحيح أنه قال ليس المسكين هذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذى لا يجد غنا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافا فهم كانوا يعرفون المسكين وأنه المحتاج وكان ذلك مشهورا عندهم فيمن يظهر حاجته بالسؤال فيبين النبى صلى الله عليه وسلم أن الذى يظهر حاجته بالسؤال والناس يعطونه تزول مسكنته باعطاء الناس له والسؤال له بمنزلة الحرفة وهو وإن كان مسكينا يستحق من الزكاة اذا لم يعط من غيرها كفايته فهو إذا وجد من يعطيه كفايته لم يبق مسكينا وانما المسكين المحتاج الذى لا يسأل ولا يعرف فيعطى فهذا هو الذى يجب أن يقدم فى العطاء فانه مسكين قطعاً وذاك مسكنته تندفع بعطاء من يسأله²

{ وَأَوْلَانِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }

قال تعالى {36} **أَوْلَم يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** {37} **فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَانِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** {38} **الرُّومُ 37-38** (**ناقص ن م**) والحق المبين أن كمال الانسان ان يعبد الله علما وعملا كما امره ربه وهؤلاء هم عباد الله وهم المؤمنون والمسلمون وهم اولياء الله المتقون وحزب الله المفلحون وجند الله الغالبون وهم اهل العلم النافع والعمل الصالح وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها كملوا القوة النظرية العلمية والقوة الارادية العملية كما قال تعالى **{ وَأَوْلَانِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الرُّومُ 38**³

التقوى كما فسرها الاولون والآخرين فعل ما امرت به وترك ما نهيت عنه كما قال طلق بن حبيب لما وقعت الفتنة اتقوها بالتقوى قالوا وما التقوى قال ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وقد قال تعالى فى اكبى سورة فى القرآن { الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ {3} البقرة 1-3 الى اخرها فوصف المتقين بفعل المأمور به من الإيمان والعمل الصالح من اقام الصلاة وايتاء الزكاة وقال { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 وقال { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 301

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 97

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {البقرة 177} وهذه الآية عظيمة جليله القدر من أعظم آي القرآن واجمعه لامر الدين وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن خصال الايمان فنزلت وفي الترمذى عن فاطمة بنت قيس عنه أنه قال ان فى المال حقا سوى الزكاة وقرأ هذه الآية وقد دلت على امور أحدها انه اخبر ان الفاعلين لهذه الامور هم المتقون وعامة هذه الامور فعل مأمور به الثانى انه أخبر ان هذه الامور هى البر واهلها هم الصادقون يعنى فى قوله آما وعامتها امور وجودية هى افعال مأمور بها فعلم أن المأمور به أدخل فى البر والتقوى والايمان من عدم المنهى عنه وبهذه الاسماء الثلاثة استحقت الجنة كما قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ {14} الانططار 13-14 } وقال { أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ {ص 28} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ {القمر 54} وقال { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ {السجدة 18} وهذه الخصال المذكورة فى الآية قد دلت على وجوبها لأنه اخبر ان اهلها هم الذين صدقوا فى قولهم وهم الْمُتَّقُونَ والصدق واجب والايمان واجب ايجاب حقوق سوى الزكاة وقوله { فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا {المزمل 20} وقوله لبنى اسرائيل { لئن أقمتم الصلوة وأنيتم الزكاة وأمنتهم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً المائدة 12 } وقوله { لئن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون { آل عمران 92} وقوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ {النساء 36} وقوله { وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ {الإسراء 26} فى سبحان والروم {فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ {الروم 38} فاتيان ذى القربى حقه صلة الرحم والمسكين اطعام الجائع وابن السبيل قرى الضيف وفى الرقاب فكاك العانى واليتيم نوع من اطعام الفقير وفى البخارى عن النبي عودوا المريض واطعموا الجائع وفكوا العانى وفى الحديث الذى أفتى به أحمد لو صدق السائل ما أفلح من رده¹

اسم الوجه مذکور فى تقرير ألوهيته لا فى تقرير الوجدانية

قال تعالى { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {37} فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {38} {الروم 37-38} اسم الوجه فى الكتاب والسنة إنما يذكر فى سياق العبادة له والعمل له والتوجه إليه فهو مذکور فى تقرير ألوهيته وعبادته وطاعته لا فى تقرير وجدانية كونه خالقاً ورباً وذلك المعنى هو العلة الغائية وهذا هو العلة الفاعلية والعلة الغائية هى المقصودة التى هى أعلى

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 132-134

وأشرف بل هي علة فاعلية للعلة الفاعلية ولهذا قدمت في مثل قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفتاحة 5} وفي مثل قوله {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} {هود 123} ¹

المراباة حرام بالكتاب والسنة والاجماع

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {39} {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} {40} {الروم 39-40}

فمن اصول الشرائع التي بها قيام مصلحة العالم فان الله لما قسم خلقه الى غنى وفقير ولا تتم مصلحتهم الا بسد خلة الفقراء وحرم الربا الذي يضر الفقراء فكان الامر بالصدقة من جنس النهي عن الربا ولهذا جمع الله بين هذا وهذا في مثل قوله تعالى {يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَّاءَ وَيَرْبِي الصَّدَقَاتِ} {البقرة 276} وفي مثل قوله تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {الروم 39} وقد ذكر الله في آخر البقرة احكام الاموال وهي ثلاثة اصناف عدل وفضل وظلم فالعدل البيع والظلم الربا والفضل الصدقة فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم ودم المربين وبين عقابهم وابع البيع والتداين الى اجل مسمى ²

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {الروم 39} المراباة حرام بالكتاب والسنة والاجماع وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه ولعن المحلل والمحلل له قال الترمذي حديث صحيح فالاثان ملعونان وان كان أصل الربا في الجاهلية أن الرجل يكون له على الرجل المال المؤجل فاذا حل الأجل قال له أتقضى أم تربي فان وفاه وإلا زاد هذا في الأجل وزاد هذا في المال فيتضاعف المال والأصل واحد وهذا الربا حرام باجماع المسلمين وأما اذا كان هذا هو المقصود ولكن توسلوا بمعاملة أخرى فهذا تنازع فيه المتأخرون من المسلمين وأما الصحابة فلم يكن بينهم نزاع أن هذا محرم فانما الأعمال بالنيات والآثار عنهم بذلك كثيرة مشهورة والله تعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاجين و أكل المال بالباطل وهو موجود في المعاملات الربوية وأما اذا حل الدين وكان الغريم معسرا لم يجز باجماع المسلمين أن يقلب بالقلب لا بمعاملة ولا غيرها بل يجب إنظاره و إن كان موسرا كان عليه الوفاء فلا حاجة الى القلب لا مع يساره ولا مع إعساره والواجب على ولاة الأمور بعد تعزيز المتعاملين بالمعاملة الربوية بأن يأمرؤا المدين أن يؤدي رأس

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 30

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 554

المال ويسقطوا الزيادة الربوية فان كان معسرا وله مغلات يوفي منها وفي دينه منها بحسب الامكان والله أعلم¹

ان الله يحق الربا كما يربى الصدقات

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {39} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن دَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {40} الروم 39-40

أن الله حرم في كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل و ذم الأحابار و الرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل و ذم اليهود على أخذهم الربا و قد نهوا عنه و أكلهم أموال الناس بالباطل و هذا يعم كل ما يؤكل بالباطل في المعاوضات و التبرعات و ما يؤخذ بغير رضا المستحق و الاستحقاق و أكل المال بالباطل في المعاوضة نوعان ذكرهما الله في كتابه هما الربا و الميسر فذكر تحريم الربا الذي هو ضد الصدقة في آخر سورة البقرة و سورة آل عمران و الروم و المدثر و ذم اليهود عليه في سورة النساء و ذكر تحريم الميسر في سورة المائدة و أما الربا فتحريمه في القرآن أشد و لهذا قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } {278} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ {279} البقرة 278-279 و ذكره النبي صلى الله عليه و سلم في الكبائر كما خرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه و ذكر الله أنه حرم على الذين هادوا طيبات أحلت لهم بظلمهم و صدهم عن سبيل الله و أخذهم الربا و اكلهم أموال الناس بالباطل و أخبر سبحانه أنه يحق الربا كما يربى الصدقات و كلاهما أمر مجرب عند الناس و ذلك أن الربا أصله إنما يتعامل به المحتاج و إلا فالموسر لا يأخذ ألفا حالة بألف و مائتين مؤجلة اذا لم يكن له حاجة لتلك الألف و إنما يأخذ المال بمثله و زيادة الى أجل من هو محتاج إليه فتقع تلك الزيادة ظلما للمحتاج بخلاف الميسر فإن المظلوم فيه غير مفترق ولا هو محتاج الى العقد و قد تخلو بعض صورته عن الظلم إذا و جد في المستقبل المبيع على الصفة التي ظناها و الربا فيه ظلم محقق للمحتاج و لهذا كان ضد الصدقة فإن الله لم يدع الأغنياء حتى أوجب عليهم إعطاء الفقراء فإن مصلحة الغنى و الفقير في الدين و الدنيا لا تتم إلا بذلك فاذا أربى معه فهو بمنزلة من له على رجل دين فمنعه دينه و ظلّمه زيادة أخرى و الغريم محتاج الى دينه فهذا من أشد أنواع الظلم و لعظمته لعن النبي صلى الله عليه و سلم آكله و هو الآخذ و موكله و هو المحتاج المعطى للزيادة و شاهده و كاتبه لا عانتهم عليه ثم إن النبي صلى الله عليه و سلم حرم أشياء مما يخفى فيها الفساد لافضائها الى الفساد المحقق كما حرم قليل الخمر لأنه يدعو الى كثيرها مثل ربا الفضل فإن الحكمة فيه قد تخفى اذ العاقل لا يبيع درهما بدرهمين إلا لاختلاف الصفات مثل كون الدرهم صحيحا و الدرهمين مكسورين أو كون الدرهم مصوغا أو من نقد نافق و نحو ذلك و لذلك خفيت حكمة تحريمه على ابن عباس و معاوية و غيرهما فلم يروا به بأسا حتى أخبرهم الصحابة الأكابر كعبادة بن الصامت و أبي سعيد و غيرهما بتحريم النبي صلى الله عليه و سلم لربا الفضل فأصول مالك في البيوع أجود من أصول

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 418

غيره فإنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب الذي كان يقال هو أفقه الناس في البيوع كما كان يقال عطاء أفقه الناس في المناسك و إبراهيم أفقههم في الصلاة و الحسن أجمعهم لذلك كله و لهذا و افق أحمد كل واحد من التابعين في أغلب ما فضل فيه لمن إستقرأ ذلك من أجوبته و الامام أحمد موافق لمالك في ذلك في الأغلب فإنهما يحرمان الربا و يشددان فيه حق التشديد لما تقدم من شدة تحريمه و عظم مفسدته و يمنعان الاحتيال عليه بكل طريق حتى يمنعا الذريعة المفضية إليه و إن لم تكن حيلة و إن كان مالك يبالغ في سد الذرائع ما لا يختلف قول أحمد فيه أو لا يقوله لكنه يوافق بلا خلاف عنه على منع الحيل كلها و جماع الحيل نوعان إما أن يضموا الى أحد العوضين ما ليس بمقصود أو يضموا الى العقد عقدا ليس بمقصود فالأول مسألة مد عوجة و ضابطها أن يبيع ربويا بجنسه و معهما أو مع أحدهما ما ليس من جنسه مثل أن يكون غرضهما بيع فضة بفضة متفاضلا و نحو ذلك فيضم الى الفضة القليلة عوضا آخر حتى يبيع ألف دينار في منديل بألفي دينار فمتى كان المقصود بيع الربوي بجنسه متفاضلا حرمت مسألة مد عوجة بلا خلاف عند مالك و أحمد و غيرهما و إنما يسوغ مثل هذا من جوز الحيل من الكوفيين و إن كان قدماء الكوفيين يحرمون هذا و أما إن كان كلاهما مقصودا كمد عوجة و درهم بمد عوجة و درهم أو مدين أو درهمين ففيه روايتان عن أحمد و المنع قول مالك و الشافعي و الجواز قول أبي حنيفة و هي مسألة اجتهاد و أما إن كان المقصود من أحد الطرفين غير الجنس الربوي كبيع شاة ذات صوف أو لبن بصوف أو لبن فأشهر الروايتين عن أحمد الجواز و النوع الثاني من الحيل أن يضموا الى العقد المحرم عقدا غير مقصود مثل أن يتواطأ على أن يبيعه الذهب بخرزه ثم يبتاع الخرز منه بأكثر من ذلك الذهب أو يواطأ ثالثا على أن يبيع احدهما عرضا ثم يبيعه المبتاع لمعامله المرابي ثم يبيعه المرابي لصاحبه و هي الحيلة المثلثة أو يقرن بالقرض محاباة في بيع أو إجارة أو مساقاة و نحو ذلك مثل أن يقرضه ألفا و يبيعه سلعة تساوي عشرة بمائتين أو يكره دارا تساوي ثلاثين بخمسة و نحو ذلك فهذا و نحوه من الحيل لا تزول به المفسدة التي حرم الله من أجلها الربا و قد ثبت عن النبي صلى الله عليه و سلم من حديث عبدالله بن عمرو أنه قال لا يحل سلف و بيع و لا شرطان في بيع و لا ربح ما لم يضمن و لا يبيع ما ليس عندك قال الترمذي حديث حسن صحيح و هو من جنس حيل اليهود فانهم إنما استحلوا الربا بالحيل و يسمونه المشكند و قد لعنهم الله على ذلك و قد روي ابن بطة باسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل و في الصحيحين عنه أنه قال لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوا فباعوها و أكلوا ثمنها و في السنن عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال من أدخل فرسا بين فرسين و هو لا يأمن أن يسبق فليس قمارا و من أدخل فرسا بين فرسين و قد أمن ان يسبق فهو قمار و قال صلى الله عليه و سلم فيما رواه أهل السنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده البيعان بالخيار ما لم يتفرقا و لا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقبله و دلائل تحريم الحيل من الكتاب و السنة و الاجماع و الاعتبار كثيرة ذكرنا منها نحا من ثلاثين دليلا فيما كتبناه في ذلك و ذكرنا ما يحتج به من يجوزها كيمين أيوب و حديث تمر خبير و معارض السلف و ذكرنا جواب ذلك و من ذرائع ذلك مسألة العينة و هو أن يبيعه سلعة الى أجل ثم يبتاعها منه بأقل من ذلك فهذا مع التواطؤ يبطل البيعين لأنها حيلة و قد روي أحمد و ابو داود باسنادين جيدين عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا تبايعتم بالعينة و اتبعتم أذناب البقر و تركتم الجهاد في سبيل الله أرسل الله عليكم ذلا لا يرفعه عنكم حتى تراجعوا دينكم و إن لم يتواطأ فانهما يبطلان البيع الثاني سدا للذريعة و لو كانت عكس مسألة العينة من غير تواطؤ ففيه روايتان عن أحمد و هو أن يبيعه حالا ثم يبتاع منه بأكثر مؤجلا و أما مع التواطؤ فربما محتال عليه

و لو كان مقصود المشتري الدرهم و ابتاع السلعة الى أجل ليبيعتها و يأخذ ثمنها فهذا يسمى التورق ففي كراهته عن احمد روايتان و الكراهة قول عمر بن عبدالعزيز و مالك فيما أظن بخلاف المشتري الذي غرضه التجارة أو غرضه الانتفاع أو القنية فهذا يجوز شراؤه الى أجل بالاتفاق ففي الجملة أهل المدينة و فقهاء الحديث مانعون من أنواع الربا منعا محكما مراعين لمقصود الشريعة و أصولها و قولهم في ذلك هو الذي يؤثر مثله عن الصحابة و تدل عليه معاني الكتاب و السنة¹

الظالمون يمنعون الزكاة ويأكلون الربا

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {39} { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {40} { الروم 39-40

فان تحريم الربا أشد من تحريم القمار لأنه ظلم محقق والله سبحانه وتعالى لما جعل خلقه نوعين غنيا وفقيرا اوجب على الأغنياء الزكاة حقا للفقراء ومنع الأغنياء عن الربا الذي يضر الفقراء وقال تعالى {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} البقرة 276 وقال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } { الروم 39

فالظالمون يمنعون الزكاة ويأكلون الربا وأما القمار فكل من المتقاملين قد يقمر الآخر وقد يكون المقمور هو الغني او يكونان متساويين في الغنى والفقير فهو أكل مال بالباطل فحرمه الله لكن ليس فيه من ظلم المحتاج وضرره ما في الربا ومعلوم ان ظلم المحتاج أعظم من ظلم غير المحتاج ومعلوم أن أهل المدينة حرموا الربا ومنعوا التحيل على استحلاله وسدوا الذريعة المفضية اليه فأين هذا ممن يسوغ الاحتيال على أخذه بل يدل الناس على ذلك وهذا يظهر بذكر مثل ربا الفضل وربا النساء أما ربا الفضل فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة واتفق جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة على أنه لا يباع الذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والزبيب بجنسه إلا مثلا بمثل إذ الزيادة على المثل أكل مال بالباطل وظلم فاذا أراد المدين أن يبيع مائة دينار مكسور وزنه مائة وعشرون دينارا يسوغ له مبيع الحيل أن يضيف إلى ذلك رغيف خبز او منديل يوضع فيه مائة دينار ونحو ذلك مما يسهل على كل مرب فعله لم يكن لتحريم الربا فائدة ولا فيه حكمة ولا يشاء مرب ان يبيع نوعا من هذا بأكثر منه من جنسه إلا أمكنه أن يضم إلى القليل ما لا قدر له من هذه الأمور وكذلك إذا سوغ لهما أن يتواطأ على أن يبيعه إياه بعرض لا قصد للمشتري فيه ثم يبتاعه منه بالثمن الكثير أمكن طالب الربا أن يفعل ذلك ومعلوم أن من هو دون الرسول إذا حرم شيئا لما فيه من الفساد وأذن ان يفعل بطريق لا فائدة فيه لكان هذا عيبا وسفها فان الفساد باق ولكن زادهم غشا وإن كان فيه كلفة فقد كلفهم ما لا فائدة فيه فكيف يظن هذا بالرسول صلى الله عليه وسلم بل معلوم ان الملوك لو نهوا عما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم واحتال المنهي على ما نهى عنه بمثل هذه الطريق لعدوه لاعبا مستهزئا بأوامرهم وقد عذب الله أهل الجنة الذين احتالوا على أن لا

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 22-32

يتصدقوا وعذب الله القرية التي كانت حاضرة البحر لما استحلوا المحرم بالحيلة بان مسخهم قرده وخنازير وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا ما حرم الله بأدنى الحيل وقد بسطنا الكلام على قاعدة ابطال الحيل وسد الذرائع في كتاب كبير مفرد وقررنا فيه مذهب أهل المدينة بالكتاب والسنة واجماع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وكذلك ربا النساء فان أهل تقيف الذين نزل فيهم القرآن ان الرجل كان يأتي إلى الغريم عند حلول الأجل فيقول اتقضى أم تربي فان لم يقضه والا زاده المدين في المال وزاده الطالب في الأجل فيضاعف المال في المدة لأجل التأخير وهذا هو الربا الذي لا يشك فيه باتفاق سلف الأمة وفيه نزل القرآن والظلم والضرر فيه ظاهر والله سبحانه وتعالى أحل البيع وأحل التجارة وحرم الربا فالمبتاع يبتاع ما يستنفع به كطعام ولباس ومسكن ومركب وغير ذلك والتاجر يشتري ما يريد أن يبيعه ليربح فيه وأما أخذ الربا فانما مقصوده ان يأخذ دراهم بدراهم إلى أجل فيلزم الآخر اكثر مما اخذ بلا فائدة حصلت له لم يبيع ولم يتجر والمربي أكل مال بالباطل بظلمه ولم ينفع الناس لا بتجارة ولا غيرها بل ينفق دراهمه بزيادة بلا منفعة حصلت له ولا للناس فاذا كان هذا مقصودهما فبأي شيء توصلوا إليه حصل الفساد والظلم مثل أن تواطأ على ان يبيعه ثم يبتاعه فهذه بيعتان في بيعة وفي السنن عن النبي أنه قال من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا مثل أن يدخل بينهما محلا يبتاع منه أحدهما ما لا عرض له فيه ليبيعه أكل الربا لموكله في الربا ثم الموكل يرده إلى المحلل بما نقص من الثمن وقد ثبت عن النبي أنه لعن أكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه ولعن المحلل والمحلل له ومثل ان يضما إلى الربا نوع قرض وقد ثبت عن النبي لا يحل سلف وبيع ولا شرطان في بيع ولا ربح ما لم يضمن ولا يبيع ما ليس عندك ثم ان النبي نهى عن المزابنة والمحاكلة وهو اشتراء الثمر والحب بخرص وكما نهى عن بيع الصبرة من الطعام لا يعلم كيلها بالطعام المسمى لان الجهل بالتساوي فيما يشترط فيه التساوي كالعلم بالتفاضل والخرص لا يعرف مقدار المكال انما هو حزر وحس وهذا متفق عليه بين الأئمة ثم انه قد ثبت عنه انه ارخص في العرايا يبتاعها اهلها بخرصها تمرا فيجوز ابتياع الربوي هنا بخرصه واقام الخرص عند الحاجة مقام الكيل وهذا من تمام محاسن الشريعة كما انه في العلم بالزكاة وفي المقاسمة أقام الخرص مقام الكيل فكان يخرص الثمار على اهلها يحصى الزكاة وكان عبدالله بن رواحة يقاسم اهل خيبر خرصا بامر النبي¹

الإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {39} { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } {40} { الروم 39-40

وبسبب الكلام في مسألة الايمان تنازع الناس هل في اللغة أسماء شرعية نقلها الشارع عن مسماها في اللغة أو أنها باقية في الشرع على ما كانت عليه في اللغة لكن الشارع زاد في أحكامها لا في معنى الاسماء وهكذا قالوا في إسم الصلاة و الزكاة و الصيام و الحج

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 347

إنها باقية في كلام الشارع على معناها اللغوي لكن زاد في أحكامها ومقصودهم ان الايمان هو مجرد التصديق وذلك يحصل بالقلب واللسان وذهبت طائفة ثالثة الى أن الشارع تصرف فيها تصرف أهل العرف فهي بالنسبة الى اللغة مجاز وبالنسبة الى عرف الشارع حقيقة والتحقيق أن الشارع لم ينقلها ولم يغيرها ولكن استعملها مقيدة لا مطلقة كما يستعمل نظائرها مثل الزكاة هي اسم لما تزكو به النفس وزكاة النفس زيادة خيرها وذهاب شرها والإحسان الى الناس من أعظم ما تزكو به النفس كما قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 وكذلك ترك الفواحش مما تزكو به قال تعالى { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا } النور 21 وأصل زكاتها بالتوحيد واخلاص الدين لله قال تعالى { وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ } {6} الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ {7} فصلت 6-7 وهي عند المفسرين التوحيد وقد بين النبي مقدار الواجب وسماها الزكاة المفروضة فصار لفظ الزكاة اذا عرف باللام ينصرف اليها لأجل العهد¹

فإن الزكاة وإن كانت قد صارت حقيقة شرعية في الزكاة المفروضة فإنها اسم لكل نفع للخلق من نفع بدني أو مالي²

النية عمل القلب وهي أصل العمل

قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبًّا لَّيْرُبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } {39} {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {40} الروم 39-40

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته وإستعانته في القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبي إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 وقال النبي لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } البقرة 255 فالعبادة والإستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 299

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 36

والإستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والإستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له فالعبادة متعلقة بألوهيته والإستعانة متعلقة بربوبيته والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبي ولا غيره بل أكبر الكبائر الإشراف بالله وأن تجعل له ندا وهو خلقك والشرك أن تجعل لغيره شركا أو نصيبا في عبادتك وتوكلك وإستعانتك وكذلك الزكاة العامة من الصدقات كلها والخاصة لا يتصدق إلا الله كما قال تعالى { وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ } الروم¹39

من أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية

قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الروم 40 ومن أعظم الأصول معرفة الإنسان بما نعت الله به نفسه من الصفات الفعلية كقوله في هذه السورة { الَّذِي خَلَقَ } {1} { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } {2} العلق 1-2 و الخلق مذكور في مواضع كثيرة و كذلك غيره من الأفعال و هو نوعان فعل متعد إلى مفعول به مثل خلق فإنه يقتضى مخلوقا وكذلك رزق كقوله { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ } الروم²40

فقد تضمن العلو الذي ينعت به نفسه في كتابه أنه متعال عما لا يليق به من الشركاء و الأولاد فليس كمثلته شيء و هذا يقتضى ثبوت صفات الكمال له دون ما سواه و أنه لا يماثله غيره في شيء من صفات الكمال بل هو متعال عن أن يماثله شيء و تضمن أنه عال على كل ما سواه قاهر له قادر عليه نافذة مشيئته فيه و أنه عال على الجميع فوق عرشه فهذه ثلاثة أمور في إسمه العلى و إثبات علوه على ما سواه و قدرته عليه و قهره يقتضى ربوبيته له و خلقه له و ذلك يستلزم ثبوت الكمال و علوه عن الأمثال يقتضى أنه لا مثل له في صفات الكمال و هذا و هذا يقتضى جميع ما يوصف به في الإثبات و النفي ففي الإثبات يوصف بصفات الكمال و في النفي ينزه عن النقص المناقض للكمال و ينزه عن أن يكون له مثل في صفات الكمال كما قد دلت على هذا و هذا سورة الإخلاص { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } {1} { اللَّهُ الصَّمَدُ } {2} { الإخلاص 1-2 } وتعالیه عن الشركاء يقتضى إختصاصه بالإلهية و أنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده كما قال { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {الإسراء 42} أي و إن كانوا كما يقولون يشفعون عنده بغير إذنه و يقربونكم إليه بغير إذنه فهو الرب و الإله دونهم وكانوا يبتغون إليه سبيلا بالعبادة له و التقرب إليه و الأمر بتسبيحه يقتضى أيضا تنزيهه عن كل عيب و سوء و إثبات صفات الكمال له فإن التسبيح يقتضى التنزيه و التعظيم و التعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضى ذلك تنزيهه و تحميده و تكبيره و توحيده قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا ابن نفيل الحراني ثنا النضر ابن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال إسم يعظم الله به و يحاشي

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 75

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 372

به من السوء و قال حدثنا أبو سعيد الأشج ثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال سبحان قال تنزيه الله نفسه من السوء و عن الضحاك عن ابن عباس في قوله {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} الإسراء 1 قال عجب و عن أبي الأشهب عن الحسن قال سبحان إسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه و قد جاء عن غير و احد من السلف مثل قول ابن عباس أنه تنزيه نفسه من السوء و روي في ذلك حديث مرسل و هو يقتضي تنزيه نفسه من فعل السيئات كما يقتضي تنزيهه عن الصفات المذمومة و نفي النقائص يقتضي ثبوت صفات الكمال و فيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران إسم يعظم الله به و يحاشى به من السوء و روى عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عثمان بن عبدالله بن موهب عن موسى بن طلحة قال سئل النبي صلى الله عليه و سلم عن التسبيح فقال إنزاهه عن السوء و قال حدثنا الضحاك ابن مخلد عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس سبحان الله قال تنزيهه حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم قال جاء رجل إلى ابن عباس فقال لا إله إلا الله نعرفها أنه لا إله غيره و الحمد لله نعرفها أن النعم كلها منه و هو المحمود عليها و الله أكبر نعرفها أنه لا شيء أكبر منه فما سبحان الله فقال ابن عباس و ما ينكر منها هي كلمة رضىها الله لنفسه و أمر بها ملائكته و فزع إليها الأخيار من خلقه¹

ضرب الأمثال لله بيان أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله

قال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } الروم 40 فان وصفه سبحانه وتعالى بالاستواء الى السماء وهى دخان كوصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ووصفه باللاتيان والمجىء في مثل قوله تعالى { **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ** } البقرة 210 وقوله { **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** } الأنعام 158 وقوله { **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** } الفجر 22 وكذلك قوله تعالى { **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ** } الأعراف 54 وقوله { **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيِّدٍ** } الذاريات 47 وقوله { **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } الروم 40 وقوله { **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ** } السجدة 5 وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه التي تسميها النحاة أفعالا متعدية وهى غالب ما ذكر في القرآن أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصب المفعول به بل لا تتعدى اليه الا بحرف الجر كالاستواء الى السماء وعلى العرش والنزول الى السماء الدنيا ونحو ذلك فان الله وصف نفسه بهذه الأفعال ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية في مثل قوله { **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ** } ص 71 وقوله { **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** } النساء 164 وقوله تعالى { **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا** } الأعراف 22 وقوله { **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** } القصص 65 ونحو ذلك مما وصف به نفسه في كتابه وما صح عن رسوله فان القول في جميع ذلك من جنس واحد ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله في النفي والاثبات والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين فقال الله تعالى (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** } 1 { **اللَّهُ**

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 124-126

الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ {4} فبين أنه لم يكن أحد كفوا له وقال تعالى { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } مريم 65 فأنكر أن يكون له سمي وقال تعالى { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا } البقرة 22 وقال تعالى { فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } النحل 74 وقال تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفو والسمي والمثل والند وضرب الأمثال له بيان أن لا مثل له في صفاته ولا أفعاله¹

الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب

قال تعالى { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } الروم 41 قال تعالى { **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا** } النساء 79 فهذه الآية بيان أن الإنسان هو فاعل السيئات وأنه يستحق عليها العقاب والله ينعم عليه بالحسنات عملها وجزائها فإنه إذا كان ما أصابهم من حسنة فهو من الله فالنعم من الله سواء كانت ابتداء أو كانت جزاء وإذا كانت جزاء وهي من الله فالعمل الصالح الذي كان سببها هو أيضا من الله أنعم بهما الله على العبد وإلا فلو كان هو من نفسه كما كانت السيئات من نفسه لكان كل ذلك من نفسه والله تعالى قد فرق بين النوعين في الكتابة والسنة كما في الحديث الصحيح الإلهي عن الله يا عبادي إنما هي أعمالكم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وقال تعالى { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } الروم 41²

و القرآن يبين في غير موضع أن الله لم يهلك أحدا و لم يعذبه الا بذنب فقال هنا { **وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ** } النساء 79 و قال لهم في شأن احد { **أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** } آل عمران 165 و قال تعالى { **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** } الشورى 30 و قال تعالى في سورة الشورى أيضا { **وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ** } الشورى 48 الروم 41³

كل شر في العالم سببه مخالفة الرسول والدعوة إلى غير الله

قال تعالى { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } الروم 41 وقوله تعالى { **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** } الأعراف 56 قال أكثر المفسرين لا تفسدوا فيها بالمعاصي والداعي إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 323

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 31

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 425 و الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 161

وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله مفسد فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم الفساد في الأرض بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله ومخالفة أمره قال الله تعالى { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** } الروم 41 قال عطية في الآية ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث بمعاصيكم وقال غير واحد من السلف إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره أو مطاع متبع غير الرسول صلى الله عليه وسلم هو أعظم الفساد في الأرض ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود والدعوة له هو لا لغيره والطاعة والإتباع لرسول الله وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بالتوحيد ونهى عن فسادها بالشرك به ومخالفة رسول الله عليه وسلم ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسلط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول والدعوة إلى غير الله ومن تدبر هذا حق التدبير وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموماً وخصوصاً ولا حول ولا قوة إلا بالله¹

السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع

قال تعالى { **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ** } الروم 42 وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع و السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال { **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** } الحشر 2 وقال { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى { **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ** } آل عمران 137²

قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذته بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاءوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقى الله سبحانه آثار المكذبين

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 24

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 23

لنعتبر بها ونتعظ لئلا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى { إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } {34} وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } {35} العنكبوت 34- 35 وقال تعالى { ثُمَّ دَمَّرْنَا الْأَخْرِينَ } {136} وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } {137} وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {138} الصافات 136-138 أي تمرّون عليهم نهاراً بالصباح وبالليل ثم قال { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } الصافات 138 وقال تعالى في مدائن قوم لوط { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ } {74} إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ } {75} وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ } {76} الحجر 74-76 يعني مدائنهم بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } يوسف 109 وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ } {190} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } {191} الشعراء 190-191 فختم القصة باسمين من اسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم برحمته¹

إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزما لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه

قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ } الروم 43 وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له في قوله { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ } الروم 43 وذكر توجيه الوجه له في قوله إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض لأن الوجه إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب والقلب هو الملك فإذا توجه الوجه نحو جهة كان القلب متوجها إليها ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب فكان إسلام الوجه وإقامته وتوجيهه مستلزما لإسلام القلب وإقامته وتوجيهه وذلك يستلزم إسلام كله لله وتوجيهه كله لله وإقامة كله لله وبسط الكلام على ما يناسب ذلك²

وأما قول بعض الفقهاء أن الوجه مشتق من المواجهة فلا دليل عليه بل قد عارضه من قال هو مشتق من الوجاهة وكلاهما ضعيف وإنما المواجهة مشتق من الوجه كما أن المشافهة مشتق من الشفة والمناظرة بمعنى المقابلة مشتقة من النظر والمعانية من العين وأما اشتقاق الوجه الذي هو المتوجه من الوجه الذي هو التوجه فهذا أشبه لأن توجهه هو فعله المختص به الذي لا يفتقر فيه إلى غيره بخلاف المواجهة فإنها تستدعي اثنين والإنسان هو حارث همام وهمه هو توجهه وإنما يتوجه بهذا العضو إلى أي شيء أرادته وتوجه إليه ومن هذا الباب قوله تعالى { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } البقرة 112 وقول الخليل ونبينا والمؤمنين في الصلاة { وَجَّهْتُ

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 97-98

²النبوات ج: 1 ص: 75

وَجَهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ { الأنعام 79 وقوله } فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ { الروم 43¹

الباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال

قال تعالى { فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } { الروم 43 وقال تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } { 111 } بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } { البقرة 111-112 } وقوله { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } { النساء 125 } فقد انكر أن يكون دين أحسن من هذا الدين وهو اسلام الوجه لله مع الاحسان وأخير ان كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يخزنون أثبتت هذه الكلمة الجامعة والقضية العامة ردا لم زعم من زعمه أن لا يدخل الجنة الا متهود او متنصر وهذا الوصفان وهما اسلام الوجه لله والاحسان هما الأصلان المتقدمان وهما كون العمل خالصا لله صوابا موافقا للسنة والشريعة وذلك ان اسلام الوجه لله هو متضمن للقصد ونية الله كما قال بعضهم استغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ إسلام الوجه واقامة الوجه كقوله تعالى { وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } { الأعراف 29 } وقوله } فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } { الروم 30 } وتوجيه الوجه كقول الخليل { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } { الأنعام 79 } وكذلك كان النبي يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وفي الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم مما يقول اذا أوى الى فراشه اللهم اسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك فالوجه يتناول المتوجه اليه ويتناول المتوجه نحوه كما يقال أى وجه تريد أى وجهة وناحية تقصد وذلك أنهما متلازمان فحيث توجه الإنسان توجه وجهه ووجهه مستلزم لتوجهه وهذا فى باطنه وظاهره جميعا فهذه أربعة أمور والباطن هو الأصل والظاهر هو الكمال والشعار فاذا توجه قلبه الى شئ تبعه وجهه الظاهر فاذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه الى الله فهذا اصلاح ارادته وقصده فاذا كان مع ذلك محسنا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وهو قول عمر رضى الله عنه اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا والعمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات وهو ما أمر الله به والذي أمر الله به هو الذى شرعه الله وهو الموافق لسنة الله وسنة رسوله فقد أخبر الله تعالى انه من أخلص قصده لله وكان محسنا فى عمله فانه مستحق للثواب سالم من العقاب ولهذا كان أئمة السلف يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل ابن عياض فى قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } { هود 7 } قال أخلصه وأصوبه فليل يا أبا على ما اخلصه وأصوبه فقال ان العمل اذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل واذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وقد روى ابن شاهين واللالكائى عن سعيد بن جبیر قال لا يقبل قول وعمل الا بنية ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة ورويا عن الحسن البصرى مثله

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 430

ولفظه لا يصلح مكان يقبل وهذا فيه رد على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا فأخبر أنه لا بد من قول وعمل اذ الايمان قول وعمل لا بد من هذين كما قد بسطناه في غير هذا الموضوع وبيننا أن مجرد تصديق القلب واللسان مع البغض والاستكبار لا يكون ايمانا باتفاق المؤمنين حتى يقترن بالتصديق عمل وأصل العمل عمل القلب وهو الحب والتعظيم المنفى للبغض والاستكبار ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل الا بنية وهذا ظاهر فان القول والعمل اذا لم يكن خالصا لله تعالى لم يقبله الله تعالى ثم قالوا ولا يقبل قول وعمل ونية الا بموافقة السنة وهي الشريعة وهي ما أمر الله به ورسوله لأن القول والعمل والنية الذي لا يكون مسنونا مشروعا قد أمر الله به يكون بدعة ليس مما يحبه الله فلا يقبله الله ولا يصلح مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب ولفظ السنة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات وفي الإعتقادات وان كان كثير ممن صنف في السنة يقصدون الكلام في الاعتقادات وهذا كقول ابن مسعود وأبي بن كعب وابي بن كعب وابي الدرداء رضى الله عنهم اقتصاد في سنة خير من اجتهاد من اجتهاد في بدعة وأمثال ذلك والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد وآله الطاهرين وأصحابه أجمعين¹

أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي

قال تعالى { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } {44} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } {45} الروم 44-45 والمقصود هنا أن الثواب والعقاب إنما يكون على عمل وجودي بفعل الحسنات كعبادة الله وحده وترك السيئات كترك الشرك أمر وجودي وفعل السيئات مثل { مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } {44} الروم 44 فأما عدم الحسنات والسيئات فجزاؤه عدم الثواب والعقاب وإذا فرض رجل آمن بالرسول مجملا وبقي مدة لا يفعل كثيرا من المحرمات ولا سمع أنها محرمة فلم يعتقد تحريمها مثل من آمن ولم يعلم أن الله حرم الميتة والدم ولحم الخنزير ولا علم أنه حرم نكاح الأقارب سوى أربعة أصناف ولا حرم بالمصاهرة أربعة أصناف حرم على كل من الزوجين أصول الآخر وفروعه فإذا آمن ولم يفعل هذه المحرمات ولا اعتقد تحريمها لأنه لم يسمع ذلك فهذا لا يثاب ولا يعاقب ولكن إذا علم التحريم فاعتقده أثيب على اعتقاده وإذا ترك ذلك مع دعاء النفس إليه أثيب ثوابا آخر كالذي تدعوه نفسه إلى الشهوات فينهاها كالصائم الذي تشتهي نفسه الأكل والجماع فينهاها والذي تشتهي نفسه شرب الخمر والفواحش فينهاها فهذا يثاب ثوابا آخر بحسب نهيه لنفسه وصبره على المحرمات واشتغاله بالطاعات التي ضدها فإذا فعل تلك الطاعات كانت مانعة له عن المحرمات وإذا تبين هذا فالحسنات التي يثاب عليها كلها وجودية نعمة من الله تعالى وما أحبته النفس من ذلك وكرهته من السيئات فهو الذي حبب الإيمان إلى المؤمنين وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان²

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 175-178

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 59

الصادق في قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب

قال تعالى { مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } {44} لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } {45} الروم 44-45 أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرب به الأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب وحيث عطف عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يكتفى بإيمان القلب بل لابد معه من الأعمال الصالحة ثم للناس في مثل هذا قولان منهم من يقول المعطوف دخل في المعطوف عليه أولا ثم ذكر بإسمه الخاص تخصيصا له لئلا يظن أنه لم يدخل في الأول وقالوا هذا في كل ما عطف فيه خاص على عام كقوله { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ } محمد 2¹

فخص الإيمان بما نزل على محمد بعد قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا } {محمد 2} وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين وقوله { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } البقرة 238 وقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 والصلاة والزكاة من العبادة فقوله { آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 277 كقوله { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } البينة 5 فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لابد منه ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضا من تمام الدين لابد منه فلا يظن الظان اكتفاه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح فعلى قول هؤلاء يقال الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان وعطف عليه عطف الخاص على العام إما لذكره خصوصا بعد عموم وإما لكونه إذا عطف كان دليلا على أنه لم يدخل في العام وقيل بل الأعمال في الأصل ليست من الإيمان فإن أصل الإيمان هو ما في القلب ولكن هي لازمة له فمن لم يفعلها كان إيمانه منتفيا لأن إنتفاء اللازم يقتضى انتفاء الملزوم لكن صارت بعرف الشارع داخلة في إسم الإيمان إذا أطلق كما تقدم في كلام النبي فإذا عطف عليه ذكرت لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد فكان ذكرها تخصيصا وتنصيحا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل وقد بين سبحانه في غير

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 204

موضع أن الصادق في قوله آمنت لأبد أن يقوم بالواجب وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على إنتفائه
عن سواهم¹

قال تعالى {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ} التوبة 33 فالهدى
كمال العلم ودين الحق كمال العمل كقوله {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} الروم 45²

أن القلب له عمل مع التصديق والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر وكلاهما مستلزم للباطن و
المرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الايمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي
التصديق فهذا ضلال بين ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن
لا ينفك عنه وإنتفاء الظاهر دليل إنتفاء الباطن فبقى النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من
مسمى الايمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الايمان و التحقيق أنه تارة يدخل في
الاسم وتارة يكون لازما للمسمى بحسب افراد الاسم واقتترانه فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى
الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل وان كان لازما له وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في
قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} البقرة 82 فقد يقال إسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن
كان لازما له وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام وبكل حال فالعمل تحقيق
لمسمى الإيمان وتصديق له ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره
الإيمان كله تصديق فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل واللسان يصدق ما في القلب والعمل يصدق
القول كما يقال صدق عمله قوله ومنه قول النبي العيانان تزنيان وزناهما النظر والاذنان تزنيان
وزناهما السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي
والفرج يصدق ذلك أو يكذبه³

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدَّاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } {33} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } {34} أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْ
يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } {35} وَإِذَا أَدَّاهُمْ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 199

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 59

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 556

إِذَا هُمْ يَفْتَنُونَ {36} الروم 33-36 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹

2- قال تعالى { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35 والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } الأعراف 71 وقال ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو الحجة ذكره البخارى في صحيحه و السلطان فى قوله { وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } الإسراء 80 فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما فى قوله { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ } الروم 35²

والسلطان هو الكتاب المنزل من عند الله وهو الهدى الذي جاءهم من عند الله³

3- قال تعالى { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } الروم 41 أن الكسب هو الفعل الذى يعود على فاعله بنفع أو ضرر كما قال تعالى { لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 فبين سبحانه أن كسب النفس لها أو عليها والناس يقولون فلان كسب مالا أو حمدا أو شرفا كما أنه ينتفع بذلك⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316 و مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 13

³مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 199

⁴مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 387

الروم 46-60

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {46} وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } {47} اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {48} وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ } {49} فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {50} وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } {51} فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } {54} وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } {55} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {56} فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {57} وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } {60}

لفظ الذوق مستعمل في الإحساس بالملائم والمنافر

قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {الروم 47} ولفظ الذوق وان كان قد يظن انه في الاصل مختص بذوق اللسان فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على انه اعم من ذلك مستعمل في الاحساس بالملائم والمنافر كما ان لفظ الاحساس في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس بل وبالباطن واما في اللغة فأصلة الرؤية كما قال { هَلْ نُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ } {مريم 98} و المقصود لفظ الذوق قال تعالى { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } {النحل 112} فجعل الخوف والجوع مذوقا واذاف اليهما اللباس ليشعر انه ليس الجائع والخائف فشمله واحاط به احاطة اللباس باللباس بخلاف من كان الالم لا لا يستوعب مشاعره بل يختص ببعض المواضع وقال تعالى { إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ } {الصافات 38} وقال تعالى { ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } {الدخان 49} وقال

تعالى {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} القمر 48 وقال {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ} الدخان 56 وقال تعالى {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا} {24} {إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا} {25} النبأ 24-25 وقال {وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ} {السجدة 21} وقد قال النبي ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فاستعمال لفظ الذوق في ادراك الملائم والمنافر كثير¹

الله جعل على نفسه حقا لعباده المؤمنين

قال تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم 47 أن الله جعل على نفسه حقا لعباده المؤمنين كما قال تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم 47 وكما قال تعالى { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل وهو رديفه يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليه أن لا يعذبهم فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق وقد اتفق العلماء على وجوب ما يجب بوعد الله الصادق وتنازعا هل يوجب الله بنفسه على نفسه ويحرم بنفسه على نفسه على قولين ومن جوز ذلك احتج بقوله سبحانه { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } الأنعام 54 وبقوله في الحديث القدسي الصحيح إني حرمت الظلم على نفسي الخ والكلام على هذا مبسوط في موضع آخر وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى والتحرير بالقياس على خلقه فهذا قول القدرية وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شيء وربهم ومليكه وأنه ما شاء كان وما شاء لم يكن وأن العباد لا يوجبون عليه شيئا ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب قال إنه كتب على نفسه الرحمة وحرم الظلم على نفسه لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير فهو الخالق لهم وهو المرسل إليهم الرسل وهو الميسر لهم الإيمان والعمل الصالح ومن توهم من القدرية والمعتزلة ونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس ما يستحقه الأجير على المستأجر فهو جاهل في ذلك وإذا كان كذلك لم تكن الوسيلة إليه إلا بما من به من فضله وإحسانه والحق الذي لعباده هو من فضله وإحسانه ليس من باب المعاوضة ولا من باب ما أوجبه غيره عليه فإنه سبحانه يتعالى عن ذلك وإذا سئل بما جعله سببا للمطلوب من التقوى والأعمال الصالحة التي وعد أصحابها بكرامته وأنه يجعل لهم مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون فيستجيب دعاءهم ومن أدعية عباده الصالحين ومن شفاعة ذوي الوجهة عنده فهذا سؤال وتسبب بما جعله هو سببا وأما إذا سئل بشيء ليس هو سببا للمطلوب فإما أن يكون إقساماً به عليه فلا يقسم على الله بمخلوق وإما أن يكون سؤالاً بما لا يقتضي المطلوب فيكون عديم الفائدة فالأنبياء والمؤمنون لهم حق على الله بوعد الصادق لهم وبكلماته التامة ورحمته لهم أن ينصرهم ولا يخذلهم وأن يمنعهم ولا يعذبهم وهم وجهاء عنده يقبل من شفاعتهم ودعائهم ما لا يقبله من دعاء غيرهم فإذا قال الداعي أسألك بحق فلان وفلان لم يدع ربه وهو لم

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 334

يسأله باتباعه لذلك الشخص ومحبته وطاعته بل بنفس ذاته وما جعله له ربه من الكرامة فهو لم يسأله بسبب يوجب المطلوب وحينئذ يقال أما نفس التوسل والتوجه إلى الله ورسوله بالأعمال الصالحة التي أمر بها كدعاء الثلاثة الذين أوا إلى الغار بأعمالهم الصالحة وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم فهذا مما لا نزاع فيه بل هو من الوسيلة التي أمر الله بها في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} المائدة 35 وقوله سبحانه {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} الإسراء 57 فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو طلب ما يتوسل به أي يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه سواء كان على وجه العبادة والطاعة وامتثال الأمر أو كان على وجه السؤال له والاستعاذة به رغبة إليه في جلب المنافع ودفع المضار ولفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا هو الدعاء بمعنى العبادة والدعاء بمعنى المسألة وإن كان كل منهما يستلزم الآخر لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجاته وتفريج كربته فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع وإن كان ذلك من العبادة والطاعة ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من الرزق والنصر والعافية مطلقاً ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عز وجل ومعونته ومحبته والتنعيم بذكره ودعائه ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدراً عنده من تلك الحاجة التي همته وهذا من رحمة الله بعباده يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية وقد يفعل العبد ابتداء ما أمر به لأجل العبادة لله والطاعة له ولما عنده من محبته والإنابة إليه وخشيته وامتثال أمره وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية وقد قال تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر 60 وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أهل السنن أبو داود وغيره الدعاء هو العبادة ثم قرأ قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} غافر 60 وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين قيل ادعوني أي اعبدوني وأطيعوا أمري استجب دعاءكم وقيل سلوني أعطكم وكلا النوعين حق¹

الحق الذي على الله هو أحقه على نفسه

قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْنَبْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} الروم 47

إننا فرضنا إننا نعلم بالعقل حسن بعض الأفعال وقبحها لكن العقل لا يقول إن الخالق كالمخلوق حتى يكون ما جعله حسناً لهذا أو قبيحاً له جعله حسناً للآخر أو قبيحاً له كما يفعل مثل ذلك القدرية لما بين الرب والعبد من الفروق الكثيرة وإن فرضنا أن حسن الأفعال وقبحها لا يعلم إلا بالشرع فالشرع قد دل على أن الله قد نزه نفسه عن أفعال وأحكام لا يجوز أن يفعلها تارة بخبره مثنياً على نفسه بأنه لا يفعلها وتارة بخبره أنه حرمها على نفسه وهذا يبين هذه المسألة فنقول الناس لهم في أفعال الله باعتبار ما يصلح منه ويجوز وما لا يجوز منه ثلاثة أقوال طرفان ووسط فالطرف الواحد طرف القدرية وهم الذين حجروا عليه أن يفعل إلا ما ظنوا بعقلهم أنه الجائز له حتى وضعوا له شريعة التعديل والتجوز فأوجبوا عليه بعقلهم أموراً كثيرة وحرموا عليه بعقلهم أموراً كثيرة لا بمعنى أن

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 409-411 زيارة القبور ج: 1 ص: 40

العقل أمر له وناه فإن هذا لا يقوله عاقل بل بمعنى أن تلك الأفعال مما علم بالعقل وجوبها وتحريمها ولكن أدخلوا في ذلك المنكرات ما بنوه على بدعتهم في التكذيب بالقدر وتوابع ذلك والطرف الثاني طرف الغلاة في الرد عليهم وهم الذين قالوا لا ينزه الرب عن فعل من فعال ولا نعلم وجه امتناع الفعل منه إلا من جهة خبره أنه لا يفعله المطابق لعلمه بأنه لا يفعله وهؤلاء منعوا حقيقة ما أخبر به من أنه كتب على نفسه الرحمة وحرّم على نفسه الظلم قال الله تعالى {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ {الأنعام} 54 وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله لما قضى الخلق كتب على نفسه كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي ولم يعلم هؤلاء أن الخبر المجرد المطابق للعلم لا يبين وجه فعله وتركه إذ العلم يطابق المعلوم فعلمه بأنه يفعل هذا وأنه لا يفعل هذا ليس فيه تعرض لأنه كتب هذا على نفسه وحرّم هذا على نفسه كما لو أخبر عن كائن من كان أنه يفعل كذا ولا يفعل كذا لم يكن في هذا بيان لكونه محمودا ممدوحا على فعل هذا وترك هذا ولا في ذلك ما يبين قيام المقتضى لهذا والمانع من هذا فإن الخبر المحض كاشف عن المخبر عنه ليس فيه بيان ما يدعو إلى الفعل ولا إلى الترك بخلاف قوله كتب على نفسه الرحمة وحرّم على نفسه الظلم فإن التحريم مانع من الفعل وكتابتها على نفسه داعية إلى الفعل وهذا بين واضح إذ ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل وهو كتابة التقدير كما قد ثبت في الصحيح أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء فإنه قال كتب على نفسه الرحمة ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون ولكان قد حرّم على نفسه كل ما لم يفعله من الإحسان كما حرّم الظلم وكما أن الفرق ثابت في حقنا بين قوله { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ } البقرة 178 وبين قوله { وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ } القمر 52 وقوله { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا } الحديد 22 وقوله فيبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فهكذا الفرق أيضا ثابت في حق الله ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } الروم 47 وقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح يامعاذ أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه ألا يعذبهم ومنه قوله في غير حديث كان حقا على الله أن يفعل به كذا فهذا الحق الذي عليه هو أحقه على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن وكلمته السابقة كقوله { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ } طه 129 وقوله { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ } السجدة 13 { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا لِأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } آل عمران 195 { وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ } يونس 19 وقوله { لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ } الأعراف 18 و { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } إبراهيم 13 { فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا لِأَكْفُرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } آل عمران 195 { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ } الأعراف 6 ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب والمعنى بخلاف القسم المتضمن للخبر المحض ولهذا قال الفقهاء اليمين إما أن توجب حقا أو منعا أو تصديقا أو تكديبا وإذا كان معقولا في الإنسان أنه يكون أمرا مأمورا كقوله { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } يوسف 53 وقوله { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } النازعات 40 مع أن العبد له أمر وناه فوجهه والرب الذي ليس فوقه أحد لأن يتصور أن يكون هو الأمر الكاتب على نفسه الرحمة

والناهي المحرم على نفسه الظلم أولى وأحرى وكتابته على نفسه ذلك تستلزم إرادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكرهته له وإرادته ومحبته للفعل لوجب وقوعه منه وبغضه له وكرهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه¹

ليس للمخلوق على الله حق بالقياس والإعتبار على خلقه

فمن الناس من يقول للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل وقاس المخلوق على الخالق كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم ومن الناس من يقول لا حق للمخلوق على الخالق بحال لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعري وغيرهما ممن ينتسب إلى السنة ومنهم من يقول بل كتب الله على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم كما قال في الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا وقال تعالى { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } { الأنعام 54 } وقال تعالى { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } { الروم 47 } وفي الصحيحين عن معاذ عن النبي أنه قال يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً يا معاذ أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجبه على نفسه مع إخباره وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به كما روى أن الله تعالى قال لداود وأي حق لأبائك على فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والإعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه ألم أفعل كذا يمن عليه بما يفعله معه وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما في قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } { الجاثية 15 } ومن قال بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه فإن الله صادق لا يخلف الميعاد وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته²

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 413 و مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 148-150

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 213-215 مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 340

ليس لمخلوق على الله حق إلا ما أحقه هو على نفسه المقدسة

قال تعالى { **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 فهو حق أحقه سبحانه على نفسه لا أن أحدا من الخلق يوجب عليه حقا ولا يحرم عليه شيئا¹

قول الجمهور إن الله عليم حكيم رحيم قائم بالقسط وإنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما نطقت بذلك نصوص الكتاب والسنة وكما يشهد به الاعتبار حسا وعقلا وذلك واقع منه بحكمته ورحمته وبحكم أنه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم لا بأن الخلق يوجبون عليه ويحرمون ولا بأنه يشبه المخلوق فيما يجب ويحرم بل كل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وليس لمخلوق عليه حق إلا ما أحقه هو على نفسه المقدسة كقوله { **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } الأنعام 54 وقوله { **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 وذلك بحكم وعده وصدقه في خبره وهذا متفق عليه بين المسلمين وبحكم كتابة على نفسه وحكمته ورحمته وهذا فيه تفصيل ونزاع مذكور في غير هذا الموضوع²

وقال طائفة بل هو أوجب على نفسه وحرم على نفسه كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله تعالى { **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } الأنعام 54 وقوله { **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 وقوله في الحديث الإلهي الصحيح يا عبادي أي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما وأما أن العباد يوجبون عليه ويحرمون عليه فممتنع عند أهل السنة كلهم ومن قال إنه أوجب على نفسه أو حرم على نفسه فهذا الوجوب والتحریم يعلم عندهم بالسمع وهل يعلم بالعقل على قولين لأهل السنة³

تظاهرت النصوص بأن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة والقدر تضمن علمه بما سيكون ومشيئته لوجود ما قدره و علم أن سيخلقه و القول قد يكون خبرا وقد يكون فيه معنى الطلب الحض و المنع بالقسم و إما لكتابتة على نفسه كقوله { **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } الأنعام 54 وقوله { **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 وقوله يا عبادي إنني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا و أما قوله { **وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** } الزمر 71 فهذا مختص بالكفار وهو الوعيد المتضمن الجزاء على الأعمال كما قال تعالى لإبليس { **لَأْمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** } ص 85 و قوله { **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى** } طه 129 أي إن عذابهم له أجل مسمى إما يوم القيامة وإما في الدنيا كيوم بدر وإما عقب الموت وقد ذكر في الآية الأقوال الثلاثة فلولا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 505

²منهاج السنة النبوية ج: 6 ص: 397

³منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 452

كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لكان العذاب لازماً أي لازماً لهم فإن مقتضى له قائم تام وهو كفرهم¹

نَصْرُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَاقِعٌ لِامْحَالَةِ وَاجِبٌ بِحُكْمِ إِيجَابِهِ وَوَعْدِهِ

قال تعالى { **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُواهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 وهو سبحانه مع غناه عن العالمين خلقهم و أرسل إليهم رسولا يبين لهم ما يسعدهم و ما يشقيهم ثم أنه هدى عباده المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فمن عليهم بالإيمان والعمل الصالح فخلقه بفضله وإرساله الرسول بفضله و هدايته لهم بفضله و جميع ما ينالون به الخيرات من قواهم و غير قواهم هي بفضله فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله و إن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم على نفسه الظلم و وعد بذلك كما قال { **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** } الأنعام 54 و قال تعالى { **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** } الروم 47 فهو واقع لامحالة واجب بحكم إيجابه و وعده لأن الخلق لا يوجبون على الله شيئا أو يحرمون عليه شيئا بل هم أعجز من ذلك و أقل من ذلك و كل نعمة منه فضل و كل نقمة منه عدل كما في الحديث المتقدم إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها فمن و جد خيرا فليحمد الله و من و جد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه و في الحديث الصحيح سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة ف قوله أبوء لك بنعمتك علي و أبوء بذنبي إعتراف بإنعام الرب و ذنب العبد كما قال بعض السلف أنى أصبح بين نعمة تنزل من الله علي و بين ذنب يصعد مني إلى الله فأريد أن أحدث للنعمة شكرا و للذنب إستغفارا²

لم يخبر الله في كتابه بمخلوق إلا من مادة

وقال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } 48 { **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** } 49 { **فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } 50 { **وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ**

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 595

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 72- 73

يَكْفُرُونَ {51} الروم 48-51 لما صار كثير من أهل النظر كالرازي وأمثاله ليس عندهم إلا قول الجهمية والقدرية والفلاسفة تجدهم في تفسير القرآن وفي سائر كتبهم يذكرون أقوالا كثيرة متعددة كلها باطلة لا يذكرون الحق مثل تفسيره للهِلال وقد قال تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} البقرة 189 فذكر قول أهل الحساب فيه وجعله من أقوال الفلاسفة وذكر قول الجهمية الذين يقولون إن القادر المختار يحدث فيه الضوء بلا سبب أصلا ولا لحكمة وكذلك إذا تكلم في المطر يذكر قول أولئك الذين يجعلونه حاصلا عن مجرد البخار المتصاعد والمنعقد في الجو وقول من يقول إنه أحدثه الفاعل المختار بلا سبب ويذكر قول من يقول إنه نزل من الأفلاك وقد يرجح هذا القول في تفسيره ويجزم بفساده في موضع آخر وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أئمة المسلمين بل سائر أهل العلم من المسلمين من السلف والخلف يقولون إن المطر نزل من السحاب ولفظ السماء في اللغة والقرآن اسم لكل ما علا فهو اسم جنس للعالي لا يتعين في شيء إلا بما يضاف إلى ذلك وقد قال {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ} الحج 15 وقال {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} الأنعام 99 وقال {أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ} الملك 16 والمراد بالجميع العلو ثم يتعين هنا بالسقف ونحوه وهنا بالسحاب وهناك بما فوق العالم كله فقوله {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} الأنعام 99 أي من العلو مع قطع النظر عن جسم معين لكن قد صرح في موضع آخر بنزوله من السحاب كما في قوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} 68 {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ} 69 {الواقعة 68-69} والمزن السحاب وقوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} النور 43 والودق المطر وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} الروم 48 فأخبر سبحانه أنه يبسط السحاب في السماء وهذا مما يبين أنه لم يرد بالسماء هنا الأفلاك فإن السحاب لا يبسط في الأفلاك بل الناس يشاهدون السحاب يبسط في الجو وقد يكون الرجل في موضع عال إما على جبل أو على غيره والسحاب يبسط أسفل منه وينزل منه المطر والشمس فوقه والرازي لا يثبت على قول واحد بل هو دائما ينصر هنا قولاً وهناك ما يناقضه لأسباب تقتضي ذلك وكثير من الناس يفهمون من القرآن ما لا يدل عليه وهو معنى فاسد ويجعلون ذلك يعارض العقل وقد بينا في مصنف مفرد درء تعارض العقل والنقل وذكرنا فيه عامة ما يذكرون من العقليات في معارضة الكتاب والسنة وبيننا أن التعارض لا يقع إلا إذا كان ما سمي معقولا فاسدا وهذا هو الغالب على كلام أهل البدع أو أن يكون ما أضيف إلى الشرع ليس منه إما حديث موضوع وإما فهم فاسد من نص لا يدل عليه وإما نقل إجماع باطل ومن هذا كثير من الناس ذم الأحكام النجومية ولا ريب أنها مذمومة بالشرع مع العقل وأن الخطأ فيها أضعاف الصواب وأن من اعتمد عليها في تصرفاته وأعرض عما أمر الله به ورسوله خسر الدنيا والآخرة لكن قد يردونها على طريقة الجهمية ونحوهم بأن يدعوا أنه لا أثر لشيء من العلويات في السفليات أصلا إما على طريقة الجهمية لكن تلك لا تنفي العادات الإقترائية وإن لم تثبت سببا ومسببا وحكمة وإما بناء على نفي العادة في ذلك ثم قد ينازعون في استدارة الأفلاك ويدعون شكلا آخر وقد بينا في جواب المسائل التي سئلت عنها في ذلك أن الأفلاك مستديرة عند علماء المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان كما ثبت ذلك عنهم بالأسانيد المذكورة في موضعها بل قد نقل إجماع المسلمين على ذلك غير واحد من علماء المسلمين الذين هم من أخبر الناس بالمنقولات كأبي الحسين بن المنادى أحد أكابر الطبقة الثانية من أصحاب الإمام أحمد وله نحو أربعمئة مصنف وأبي محمد بن حزم الأندلسي وأبي الفرج بن الجوزي وقد دل ذلك على الكتاب والسنة كما قد بسط في الإحاطة وغيرها وكذلك المطر معروف عند السلف والخلف بأن الله تعالى يخلقه من الهواء ومن البخار المتصاعد لكن خلقه للمطر

من هذا كخلق الإنسان من نطفة وخلق الشجر والزرع من الحب والنوى فهذا معرفة بالمادة التي خلق منها ونفس المادة لا توجب ما خلق منها باتفاق العقلاء بل لا بد مما به يخلق تلك الصورة على ذلك الوجه وهذا هو الدليل على القادر المختر الحكيم الذي يخلق المطر على قدر معلوم وقت الحاجة إليه والبلد الجزر يسوق إليه الماء من حيث أمطر كما قال { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ } السجدة 27 فالأرض الجزر لا تمطر ما يكفيها كأرض مصر لو أمطرت المطر المعتاد لم يكفها فإنها أرض إبليز وإن أمطرت كثيراً مثل مطر شهر خربت المساكن فكان من حكمة الباري ورحمته أن أمطر مطراً أرضاً بعيدة ثم ساق ذلك الماء إلى أرض مصر فهذه الآيات يستدل بها على علم الخالق وقدرته ومشينته وحكمته وإثبات المادة التي خلق منها المطر والشجر والإنسان والحيوان مما يدل على حكمته ونحن لا نعرف شيئاً قط خلق إلا من مادة ولا أخبر الله في كتابه بمخلوق إلا من مادة وكذلك كون كسوف الشمس وغيره سبباً لبعض الحوادث هو مما دلت عليه النصوص الصحيحة ففي الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله عز وجل يخوف الله بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وقد ثبت عنه في الصحاح أنه صلى صلاة الكسوف بركوع زائد في كل ركعة وأنه طولها تطويلاً لم يطوله في شيء من صلوات الجماعات وأمر عند الكسوف بالصلاة والذكر والدعاء والعتاقة والصدقة والإستغفار وقوله يخوف الله بهما عباده كقوله تعالى { وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا } الإسراء 59 ولهذا كانت الصلوات مشروعة عند الآيات عموماً مثل تناثر الكواكب والزلزلة وغير ذلك والتخويف إنما يكون بما هو سبب للشر المخوف كالزلزلة والرياح العاصف وإلا فما وجوده كعدمه لا يحصل به تخويف فعلم أن الكسوف سبب للشر ثم قد يكون عنه شر ثم القول فيه كالقول في سائر الأسباب هل هو سبب كما عليه جمهور الأمة أو هو مجرد اقتران عادة كما يقوله الجهمية وهو صلى الله عليه وسلم أخبر عند أسباب الشر بما يدفعها من العبادات التي تقوي ما انعقد سببه من الخير وتدفع أو تضعف ما انعقد سببه من الشر كما قال إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض¹

يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب

وقال تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } {48} وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لَمُبْلِسِينَ } {49} فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {50} وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ } {51} {الروم 48-51} أهل السنة وجمهورهم فيقولون بما دل عليه الشرع والعقل قال الله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } الأعراف 57 وقال

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 440-446

{ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } البقرة 164 وقال { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } المائدة 16 وقال { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا } البقرة 26 سورة البقرة ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة يخبر الله تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب¹

إن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن أى فى مواضع كثيرة جدا وقد بسطت الكلام فى الرد على من أنكر قدرة الرب فى غير موضع كما قد كتبناه على الأربعين والمحصل وفى شرح الأصبهانية و غير ذلك وتكلمنا على ما ذكره الرازى وغيره فى مسألة كون الرب قادرا مختارا وما وقع فيها من التقصير الكثير مما ليس هذا موضعه والمقصود هنا الكلام بين أهل الملل الذين يصدقون الرسل فنقول هنا مسائل المسألة الأولى قد أخبر الله أنه على كل شيء قدير و الناس فى هذا على ثلاثة أقوال طائفة تقول هذا عام يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين وكذلك دخل فى المقدر كما قال ذلك طائفة منهم ابن حزم و طائفة تقول هذا عام مخصوص يخص منه الممتنع لذاته فإنه وإن كان شيئا فإنه لا يدخل فى المقدر كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره وكلا القولين خطأ والصواب هو القول الثالث الذى عليه عامة النظار وهو أن الممتنع لذاته ليس شيئا ألبتة وأن كانوا متنازعين فى المعدوم فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه فى الخارج ولا يتصوره الذهن ثابتا فى الخارج ولكن يقدر اجتماعهما فى الذهن ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنع فى الخارج إذ كان يمتنع تحققه فى الأعيان وتصوره فى الأذهان إلا على وجه التمثيل بأن يقال قد تجتمع الحركة والسكون فى الشيء فهل يمكن فى الخارج أن يجتمع السواد والبياض فى محل واحد كما تجتمع الحركة والسكون فيقال هذا غير ممكن فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه وأما نفس اجتماع البياض والسواد فى محل واحد فلا يمكن ولا يعقل فليس بشيء لا فى الأعيان ولا فى الأذهان فلم يدخل فى قوله وهو على كل شيء قدير المسألة الثانية أن المعدوم ليس بشيء فى الخارج عند الجمهور وهو الصواب وقد يطلقون أن الشيء هو الموجود فيقال على هذا فيلزم أن لا يكون وقادرا إلا على موجود وما لم يخلقه لا يكون قادرا عليه وهذا قول بعض أهل البدع قالوا لا يكون قادرا إلا على ما أراده دون ما لم يرده و يحكى هذا عن تلميذ النظام والذين قالوا إن الشيء هو الموجود من نظار المثبتة كالأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة أحمد وغير أحمد كالقاضي أبى يعلى وابن الزاغوني وغيرهما يقولون أنه قادر على الموجود فيقال أن هؤلاء أثبتوا ما لم تثبته الآية فالآية أثبتت قدرته على الموجود وهؤلاء قالوا هو قادر على الموجود والمعدوم والتحقيق أن الشيء إسم لما يوجد فى الأعيان ولما يتصور فى الأذهان فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شيء فى التقدير والعلم والكتاب وأن لم يكن شيئا فى الخارج و منه قوله { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82 و لفظ الشيء فى الآية يتناول هذا وهذا فهو على كل شيء ما وجد وكل ماتصوره الذهن موجودا إن تصور أن يكون

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 114

موجودا قدير لا يستثنى من ذلك شيء ولا يزداد عليه شيء كما قال تعالى {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة 4 وقال {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ} الأنعام 65 وقد ثبت في الصحيحين أنها لما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك فلما نزل {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} الأنعام 65 الآية قال هاتان أهون فهو قادر على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} المؤمنون 18 قال المفسرون لقادرون على أن نذهب به حتى تموتوا عطشا وتهلك مواشيكم وتخرب أراضيكم ومعلوم أنه لم يذهب به وهذا كقوله {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} الواقعة 68 إلى قوله {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} الواقعة 82 وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أجاجا وهو لم يفعله ومثل هذا {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} السجدة 13 {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ} يونس 99 {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا مَا أَفْتَلْنَا} البقرة 253 فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها فلو لم يكن قادرا عليها لكان إذا شاءها لم يمكن فعلها المسألة الثالثة أنه على كل شيء قدير فيدخل في ذلك أفعال العباد وغير أفعال العباد وأكثر المعتزلة يقولون أن أفعال العبد غير مقدورة المسألة الرابعة أنه يدخل في ذلك أفعال نفسه وقد نطقت النصوص بهذا وهذا كقوله تعالى {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْلِقَ مِثْلَهُمْ} يس 81 {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} القيامة 40 {بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ} القيامة 4 ونظائره كثيرة والقدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ} المؤمنون 12 {أَيَحْسَبُ أَنْ لَّنْ يَفْقِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} البلد 5 وجاءت منصوصا عليها في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله {فَأَمَّا نُدْهِبُنَّ بِكَ فَأِنَّا مِنْهُمْ مُمْتَنِقُمُونَ} الزخرف 41 فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة وقوله {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ} ق 45 و {لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} الغاشية 22 ونحو ذلك وهو يدل بمفهومه على أن الرب هو الجبار عليهم المسيطر وذلك يستلزم قدرته عليهم وقوله {فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} الأنبياء 87 على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة دليل على أن الله قادر عليه وعلى أمثاله وكذلك قول الموصي لأهله لئن قدر الله على ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين فلما حرقوه أعاده الله تعالى وقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك يارب فغفر له وهو كان مخطئا في قوله لئن قدر الله على ليعذبني كما يدل عليه الحديث وأن الله قدر عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه وقد يستدل بقوله {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} المرسلات 20 إلى قوله {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} المرسلات 23 على قول من جعله من القدرة فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإن كان سبحانه قادرا أيضا على خلقه فالقدرة على خلقه قدرة عليه والقدرة عليه قدرة على خلقه وجاء أيضا الحديث منصوصا في مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي مسعود لما رآه يضرب عبده الله أقدر عليك منك على هذا فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد وأنه أقدر عليه منه على عبده وفيه إثبات قدرة العبد¹

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 12-7

فإن ما تعلقت به المشيئة تعلقت به القدرة فإن ما شاء الله كان ولا يكون شيء إلا بقدرته وما تعلقت به القدرة من الموجودات تعلقت به المشيئة فإنه لا يكون شيء إلا بقدرته ومشيئته وما جاز أن تتعلق به القدرة جاز أن تتعلق به المشيئة وكذلك بالعكس ومالا فلا ولهذا قال {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 والشيء في الأصل مصدر شاء يشاء شيئاً كمال ينال نيلاً ثم وضعوا المصدر موضع المفعول فسموا المشيء شيئاً كما يسمى المنيل نيلاً فقالوا نيل المعدن وكما يسمى المقدر قدرة والمخلوق خلقاً فقوله {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} البقرة 20 أي على كل ما يشاء فمنه ما قد شيء فوجد ومنه ما لم يشأ لكنه شيء في العلم بمعنى أنه قابل لأن يشاء وقوله {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ} البقرة 20 يتناول ما كان شيئاً في الخارج والعلم أو ما كان شيئاً في العلم فقط بخلاف مالا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحق تعالى وصفاته أو الممتنع لنفسه فإنه غير داخل في العموم ولهذا إتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء¹

تارة يستدل في بيان امكان المعاد بخلق النبات

وقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} {48} وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنَّ قَبْلَهُ لِمُبْلِيسِينَ} {49} فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {50} وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} {51} الروم 48-51 وليس كل ما فرضه الذهن أمكن وجوده في الخارج وهذا الذي يسمى الامكان الذهني فان الامكان على وجهين ذهني وهو ان يعرض الشيء على الذهن فلا يعلم امتناعه بل يقول يمكن هذا لا لعلمه بإمكانه بل لعدم علمه بامتناعه مع ان ذلك الشيء قد يكون ممتنعا في الخارج و خارجي وهو ان يعلم امكان الشيء في الخارج وهذا يكون بأن يعلم وجوده في الخارج او وجود نظيره او وجوده ما هو ابعد عن الوجود منه فاذا كان الابدع عن قبول الوجود موجودا ممكن الوجود فالأقرب الى الوجود منه أولى وهذه طريقة القرآن في بيان امكان المعاد فقد بين ذلك بهذه الطريقة فتارة يخبر عن اماتهم ثم احياهم كما اخبر عن قوم موسى الذين قالوا {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} البقرة 55 قال {فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} {55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {56} البقرة 55-56 وعن {الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حُدْرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} البقرة 243 وعن {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} البقرة 259 وعن ابراهيم اذ قال {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ} البقرة 260 القصة وكما اخبر عن المسيح أنه كان يحيى الموتى باذن الله وعن اصحاب الكهف أنهم بعثوا بهد ثلاثمائة سنة وتسع سنين وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الاولى فان الاعادة اهون من الابتداء كما في قوله {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ} الحج 5 الآية وقوله {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} يس 79 {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} الإسراء 51 {وَهُوَ الَّذِي بَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 383

{ الروم 27 } وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والارض فإن خلقهما اعظم من اعادة الانسان كما فى قوله { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ } { الأحقاف 33 } وتارة يستدل على امكانه بخلق النبات كما فى قوله { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا } { الأعراف 57 } الى قوله { كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ } { الأعراف 57 } فقد تبين ان ما عند أئمة النظار اهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الالهية فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق وما هو ابلغ واكمل منها على احس وجه مع تنزهه عن الاغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء فان خطأهم فيها كثيرا جدا ولعل ضلالهم اكثر من هداهم وجهلهم أكثر من علمهم ولهذا قال ابو عبد الله الرازي فى آخر عمره فى كتابه اقسام الذات لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عيلا ولا تروى غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الاثبات { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه 5 { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ } فاطر 10 وقرأ فى النفى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الشورى 11 { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } طه 110 ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى¹

العلم الحقيقي الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه

قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّةَ الدَّاعِيَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} {الروم 52-53}

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ فى القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال فى مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمى الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهى وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

ايجاب علم القلب حركة القلب

قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّةَ الدَّاعِيَةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} {الروم 52-53}

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 224-225

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

أن المسمع وإن كان أصله نفس السمع الذى يشبه الإدراك لكن اذا كان المسموع طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول واذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته فى مسماه نفيا وإثباتا فيقال فلان يسمع لفلان أى يطيعه فى أمره أو يصدقه فى خبره وفلان لا يسمع ما يقال له أى لا يصدق الخبر ولا يطيع الأمر كما بين الله السمع عن الكفار فى غير موضع كقوله { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ } البقرة 171 وقوله { وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُ الدُّعَاءَ } الأنبياء 45 وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله ايجاب الاحساس الحركة وايجاب علم القلب حركة القلب فان الشعور بالملائم يوجب الحركة اليه والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه فحيث انتفى موجب ذلك دل على إنتفاء مبدئه ولهذا قال تعالى { إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ } الأنعام 36 ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة أى يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعانى السمع الذى لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم¹

الموتى لا يجب أن ينفى عنهم جميع السماع المعتاد كالكفار

قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} الروم 52-53

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فقال يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربي حقا فسمع عمر رضى الله عنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يسمعون وقد جيفوا فقال الذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا فى قليب بدر وقد أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر فقال هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا وقال انهم ليسمعون الآن ما أقول فذكر ذلك لعائشة فقالت وهم ابن عمر انما قال رسول الله انهم ليعلمون الآن أن الذى قلت لهم هو الحق ثم قرأت قوله تعالى { إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى } النمل 80 حتى قرأت الآية وأهل العلم بالحديث والسنة اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر وإن كانا لم يشهدا بدر فإن أنسا روى ذلك عن أبى طلحة وأبو طلحة شهد بدر كما روى أبو حاتم فى صحيحه عن أنس عن أبى طلحة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش ففذفوا فى طوى من أطواء بدر وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم فى عرصتهم ثلاث ليال فلما كان اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها فحركها ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا ما نراه ينطق الا لبعض حاجته حتى قام على شفاء الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنما قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ما تكلم من أجساد ولا أرواح فيها فقال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم قال قتادة أحياهم الله حتى سمعهم توبيخا وتصغيرا ونقمة وحسرة وتنديما وعائشة تأولت

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 194-199

فيما ذكرته كما تأولت أمثال ذلك والنص الصحيح عن النبي مقدم على تأويل من تأول من أصحابه وغيره وليس في القرآن ما ينفى ذلك فإن قوله {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} {النمل 80} إنما أراد به السماع المعتاد الذي ينفع صاحبه فإن هذا مثل ضرب للكفار والكفار تسمع الصوت لكن لا تسمع سماع قبول بفقته واتباع كما قال تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ} {البقرة 171} فهكذا الموتى الذين ضرب لهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع السماع المعتاد أنواع السماع كما لم ينف عن الكفار بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به وأما سماع آخر فلا ينفى عنهم وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعالمهم إذا ولوا مدبرين فهذا موافق لهذا فكيف يدفع ذلك ومن العلماء من قال ان الميت في قبره لا يسمع ما دام ميتا كما قالت عائشة واستدللت به من القرآن واما اذا أحياه الله فانه يسمع كما قال قتادة أحياهم الله له وإن كانت تلك الحياة لا يسمعون بها كما نحن لا نرى الملائكة والجن ولا نعلم ما يحس به الميت في منامه وكما لا يعلم الانسان ما في قلب الآخر وان كان قد يعلم ذلك من أطلعه الله عليه¹

السمع المنفى عن الميت سمع القبول والامتثال

قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} {الروم 52-53}

يسمع الميت في الجملة كما ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال يسمع خفق نعالمهم حين يولون عنه وثبت عن النبي أنه ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقال يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبه بن ربيعة هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا فسمع عمر رضي الله عنه ذلك فقال يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا فقال والذي نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا ثم أمر بهم فسحبوا في قليب بدر وكذلك في الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر فقال هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا وقال إنهم يسمعون الآن ما أقول وقد ثبت عنه في الصحيحين من غير وجه أنه كان يأمر بالسلام على أهل القبور ويقول قولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمننا أجرهم ولا تفتننا بعدهم واغفر لنا ولهم فهذا خطاب لهم وإنما يخاطب من يسمع وروى ابن عبد البر عن النبي أنه قال ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام وفي السنن عنه أنه قال أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة على فقالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يعني صرت رميما فقال إن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء وفي السنن أنه قال إن الله وكل بقبرى ملائكة يبلغونى عن أمتى السلام فهذه النصوص وأمثالها تبين أن الميت يسمع في الجملة كلام الحي ولا يجب أن يكون السمع له دائما بل قد يسمع في حال دون حال كما قد يعرض للحي فإنه قد يسمع أحيانا خطاب من

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 297-300

يخاطبه وقد لا يسمع لعارض يعرض له وهذا السمع سمع إدراك ليس يترتب عليه جزاء ولا هو السمع المنفي بقوله {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} النمل 80 فإن المراد بذلك سمع القبول والامتثال فإن الله جعل الكافر كالميت الذي لا يستجيب لمن دعاه وكالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفقه المعنى فالميت وإن سمع الكلام وفقه المعنى فإنه لا يمكنه إجابة الداعي ولا امتثال ما أمر به ونهى عنه فلا ينتفع بالأمر والنهي وكذلك الكافر لا ينتفع بالأمر والنهي وإن سمع الخطاب وفهم المعنى كما قال تعالى {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} الأنفال 23¹

تقرير التوحيد وتقرير مقصود الرسالة

أن قوله {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} البقرة 6 كقوله {فَأِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ {53} {الروم 52-53} وقوله {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} {42} وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمِّيَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} {43} {يونس 42-43} و كل هذا فيه بيان أن مجرد دعائك و تبليغك و حرصك على هداهم ليس موجب ذلك و إنما يحصل ذلك إذا شاء الله هداهم فشرح صدورهم للإسلام كما قال تعالى {إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ} النحل 37

ففيه تعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم و بينت الآية له أن تبليغك و إن لم يهتدوا به ففيه مصالح عظيمة غير ذلك و فيه بيان أن الهدى هدى الله {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} {الكهف 17} و قد قال له {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} {القصص 56} ففيه تقرير التوحيد و تقرير مقصود الرسالة²

القلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر

و العمل له أثر في القلب من نفع وضر وصلاح قبل أثره في الخارج فصلاحتها عدل لها وفسادها ظلم لها قال بعض السلف إن للحسنة لنورا في القلب وقوة في البدن وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق وإن للسيئة لظلمة في القلب وسوادا في الوجه ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضا في قلوب الخلق وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله ياسين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وفي الحديث الصحيح مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه كمثل الحي والميت وفي الصحيح أيضا اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوا قبورا وفي الدعاء المأثور اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فینبت به النبات قال النبي صلى الله عليه وسلم إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تمسيه العرب الربيع لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذي يلي الشتاء فإن منه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار وتنبت الأوراق على الأشجار و القلب الحي

¹مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 363

²مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 591-592

المنور فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر قال تعالى
{فَأِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} {الروم: 52}

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

لفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص

قال تعالى { فَأِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} {الروم: 52-53}

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {الزمر: 29} فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة قولنا لا إله إلا الله فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } {غافر: 60} وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقيل له يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذلك قال لا إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس بطر الحق جرده ودفعه وغمط الناس ازدرأؤهم واحتقارهم³

أن للإسلام صوي ومنازا كمنار الطريق

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 9

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 454

قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} الروم 52-53

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال قيل هو الإيمان وهما إسمان لمسمى واحد وقيل هو الكلمة وهذان القولان لهما وجه سنذكره لكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الاسلام والإيمان ففسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالاصول الخمسة فليس لنا اذا جمعنا بين الاسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي وأما اذا أفرد اسم الإيمان فانه يتضمن الاسلام واذا أفرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن قد تقدم الكلام فيه وكذلك هل يستلزم الاسلام للإيمان هذا فيه النزاع المذكور وسنبينه والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبالاسلام بعث الله جميع النبيين قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 ووصف الله أنبياء بني اسرائيل بالاسلام في قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } المائدة 44 والانبياء كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالإيمان والاسلام فقال تعالى { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 و { قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } آل عمران 52 وحقيقة الفرق أن الاسلام دين و الدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي إرتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الإستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فاصله تصديق وقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بإيمان القلب وبخضوعه وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وفسر الإسلام بإستسلام مخصوص هو المباني الخمس وهكذا في سائر كلامه يفسر الإيمان بذلك النوع ويفسر الاسلام بهذا وذلك النوع أعلى ولهذا قال النبي الاسلام علانية والإيمان في القلب فان الاعمال الظاهرة يراها الناس وأما ما في القلب من تصديق ومعرفة وحب وخشية ورجاء فهذا باطن لكن له لوازم قد تدل عليه واللازم لا يدل الا اذا كان ملزوما فلهذا كان من لوازمه ما يفعله المؤمن والمنافق فلا يدل ففي حديث عبدالله بن عمرو وابي هريرة جميعا ان النبي قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم ففسر المسلم بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه وفسر المؤمن بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة اعلى من تلك فان من كان مأمونا سلم الناس منه وليس كل من سلموا منه يكون مأمونا فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون اليه خوفا ان يكون ترك أذاهم لرغبة ورهبة لا لإيمان في قلبه وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال للنبي ما الاسلام قال اطعام الطعام ولين الكلام قال فما الإيمان قال السماحة والصبر فاطعام الطعام عمل ظاهر يفعله الإنسان لمقاصد متعددة وكذلك لين الكلام وأما السماحة والصبر فخلقان في النفس قال تعالى { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

بِالْمَرْحَمَةِ {البلد 17 وهذا أعلى من ذلك وهو أن يكون صبارا شكورا فيه سماحة بالرحمة للانسان وصبر على المكاره وهذا ضد الذي خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا فان ذلك ليس فيه عند النعمة ولا صبر عند المصيبة وتمام الحديث فأى الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده قال يا رسول الله أى المؤمنين أكمل ايمانا قال أحسنهم خلقا قال يا رسول الله أى القتل اشرف قال من أريق دمه وعقر جواده قال يا رسول الله فأى الجهاد افضل قال الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله قال يا رسول الله فأى الصدقة أفضل قال جهد المقل قال يا رسول الله فأى الصلاة أفضل قال طول القنوت قال يا رسول الله فأى الهجرة افضل قال من هجر السوء وهذا محفوظ عن عبيد بن عمير تارة يروى مرسلا وتارة يروى مسندا وفى رواية أى الساعات أفضل قال جوف الليل الغابر وقوله افضل الايمان السماحة والصبر يروى من وجه اخر عن جابر عن النبي وهكذا فى سائر الأحاديث انما يفسر الاسلام بالاستسلام لله بالقلب مع الاعمال الظاهرة كما فى الحديث المعروف الذى رواه أحمد عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده أنه قال والله يا رسول الله ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعى هذه أن لا أتيك فبالذى بعثك بالحق ما بعثك به قال الاسلام قال وما الاسلام قال أن تسلم قلبك لله وان توجه وجهك إلى الله وان تصلى الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة أخوان نصيران لا يقبل الله من عبد اشرك بعد إسلامه وفى رواية قال أن تقول أسلمت وجهى لله وتخليت وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وكل مسلم على مسلم محرم وفى لفظ تقول أسلمت نفسى لله وتخليت وجهى اليه وروى محمد بن نصر من حديث خالد بن معدان عن أبى هريرة قال قال رسول الله أن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وان تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتسلم على بنى ادم اذا لقيتهم فان ردوا عليك ردت عليك وعليهم الملائكة وان لم يردوا عليك ردت عليك الملائكة ولعنتمهم ان سكت عنهم وتسليمك على أهل بيتك اذا دخلت عليهم فمن إنتقص منهن شيئا فهو سهم فى الاسلام تركه ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره¹

العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تمائل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 259- 271

وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطاة والإتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} فصلت 15 وسمى صفة المخلوق قوة فقال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} الروم 54 وليس القوة كالقوة¹

وصف الهرم بالضعف

قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} الروم 54 فالشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب و لو قدر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردا إلى أسفل سافلين فإنه سبحانه إنما يصف الهرم بالضعف كقوله {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} الروم 54 وقوله {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ} يس 68 فهو يعيده إلى حال الضعف²

ولفظ القوة قد يراد به ما كان في القدرة أكمل من غيره فهو قدرة ارجح من غيرها أو القدرة التامة ولفظ القوة قد يعم القوة التي في الجمادات بخلاف لفظ القدرة³

إثبات القوى والطبائع التي جعلها الله في الحيوان

كذلك دل الكتاب والسنة على إثبات القوى والطبائع التي جعلها الله في الحيوان وغيره كما قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} التغابن 16 وقال {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً} فصلت 15 وقال {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} الروم 54 وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبدالقيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله اللحم والأناة فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ومثل هذا كثير ليس هذا موضع بسطه⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

²دقائق التفسير ج: 3 ص: 155 ومجموع الفتاوى ج: 16 ص: 285

³مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 575

⁴منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 114

الخير كله أصله وفصله منحصر في العلم والإيمان

قال تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } {55} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {56} فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {57} الروم 55-57 فإن الخير كله أصله وفصله منحصر في العلم والإيمان كما قال سبحانه { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } {الروم 56} وقال تعالى { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } {المجادلة 11} وضد الإيمان إما الكفر الظاهر أو النفاق الباطن ونقيض العلم عدمه¹

اسم الايمان تارة يذكر مفردا غير مقرون باسم الاسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما وتارة يذكر مقرونا اما بالاسلام كقوله في حديث جبرائيل ما الاسلام وما الايمان وكقوله تعالى {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْأَحْزَابِ 35} وكذلك ذكر الايمان مع العمل الصالح وذلك في مواضع من القرآن كقوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 82 واما مقرونا بالذين اوتوا العلم كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ } {الروم 56} وقوله { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } {المجادلة 11} وحيث ذكر الذين آمنوا فقد دخل فيهم الذين اوتوا العلم فانهم خيارهم قال تعالى { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } آل عمران 7 وقال { لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ } {النساء 162}²

وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء بالعلم والايمن والاخبارات في قوله { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ } {الحج 54} دليل على أن العلم يدل على الايمان ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما يتوهمه طائفة من المتكلمة بل معهم العلم والايمن كما قال تعالى { لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ } {النساء 162}³

ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 146

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 14

³ مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 278

قال تعالى { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } {55} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {56} فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } {57} الروم 55-57 وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره والإيمان بالقدر الإيمان بأن الله تعالى عليم بما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبدا وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } {56} وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء وإذا خلق جسد الجنين قبل خلق الروح فيه بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ونحو ذلك¹

القرآن جاء بخلاصة الأدلة العقلية على أحسن وجه

قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِنَّتْهُمْ بَايَةٌ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} الروم 58-59 وذلك ان أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب إعتقادها قولاً أو قولاً وعملاً كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } {58} الروم 58 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } {10} الملك 10 وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة وأما القسم الثاني وهو دلائل هذه المسائل الأصولية فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين والمتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق فدلالته موقوفة على العلم بصدق المخبر ويجعلون ما يبني عليه صدق المخبر معقولات محضة فقد غلطوا في ذلك غلطا عظيما بل ضلوا ضلالا مبينا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد بل

¹ العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 36

الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله سبحانه وتعالى بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء وقدره ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} الروم 58 فإن الأمثال المضروبة وهي الأقيسة العقلية سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية وإن كان لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك كما سمي الله آيتي موسى براهين ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيل يستوي في الأصل و الفرع ولا بقياس شمولي تستوي أفراده فإن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء فلا يجوز أن يمثل بغيره ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها ولهذا لما سلك طوائف من المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى يقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها ولكن يستعمل في ذلك قياس الأولى سواء كان تمثيلاً أو شمولاً كما قال تعالى { وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى } النحل 60 مثل أن نعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو المحدث فالواجب القديم أولى به وكل كمال ثبت للمخلوق المرئوب المعلول المدبر فإنما استفادته من خالقه وربّه ومدبره فهو أحق به منه وأن كل نقص وعيب وجب نفيه عن شيء مامن أنواع المخلوقات والمحدثات والممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى وأنه أحق بالأمور الوجودية من كل موجود والأمور العدمية الممكن بها أحق ونحو ذلك ومثل هذه الطرق هي التي كان يستعملها السلف والأئمة في مثل هذه المطالب كما استعمل نحوها الإمام أحمد ومن قبله وبعده من أئمة أهل الإسلام وبمثل ذلك جاء القرآن في تقرير أصول الدين من مسائل التوحيد والصفات ونحو ذلك مثال ذلك أنه سبحانه لما أخبر بالمعاد والعلم به تابع للعلم بإمكانه فإن الممتنع لا يجوز أن يكون بين سبحانه وإمكانه أتم بيان ولم يسلك في ذلك ما يسلكه طوائف من أهل الكلام حيث يثبتون الإمكان الخارجي بمجرد الإمكان الذهني فيقولون هذا ممكن لأنه لو قدر وجود لم يلزم من تقديره وجوده محال فإن الشأن في هذه المقدمة فمن أين يعلم أنه لا يلزم من تقدير وجوده محال والمحال هنا أعم من المحال لذاته أو لغيره والإمكان الذهني حقيقته عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع لا يستلزم العلم بالإمكان الخارجي بل يبقى الشيء في الذهن غير معلوم الامتناع ولا معلوم الإمكان الخارجي وهذا هو الإمكان الذهني فإله سبحانه وتعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره وإن لم يعلم الذهن امتناعه بخلاف الإمكان الخارجي فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً والإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره وتارة بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه وإلا مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً } الإسراء 199¹

العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 446-447 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 296-298

قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} الروم 58-59 أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فانه موافق لصريح المعقول وان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ولكن كثيرا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية وليس في المعقول ما يخالف المنقول ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل قال معرفة الحديث والفقهاء فيه أحب إلى من حفظه أى معرفته بالتمييز بين صحيحه وسقيمه والفقهاء فيه معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفروعية أحب إلى من أن يحفظ من غير معرفة وفاقه وهكذا قال على بن المدينى وغيره من العلماء فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول أو بلفظ ثابت عن الرسول وحمله على ما لم يدل عليه فانما أتى من نفسه وكذلك العقلية الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحا لم تكن إلا حقا لا تناقض شيئا مما قاله الرسول والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده وصفاته وصدق رسله وبها يعرف امكان المعاد ففى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله فى كلام أحد من الناس بل عامة ما يأتى به حذاق النظر من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها قال تعالى { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا } الفرقان 33 وقال { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } الزمر 27 وقال { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } الحشر 21¹

أمثال القرآن

قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} الروم 58-59 الأمثال الكلية وهذه التى أشكل تسميتها أمثالا كما أشكل تسميتها قياسا حتى اعترض بعضهم قوله { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ } الحج 73 فقال ابن المثل المضروب و كذلك إذا سمعوا قوله { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } الزمر 27 يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال و قد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلا وهذه الأمثال تارة تكون صفات وهذه الأمثال تارة تكون صفات وتارة تكون أقيسة فإذا كانت أقيسة فلا بد فيها من خبرين هما قضيتان و حكمان و انه لا بد أن يكون احدهما كليا لأن الأخبار التى هي القضايا لما انقسمت الى معينة و مطلقة و كليه و جزئية و كل من ذلك انقسم الى خبر عن اثبات و خبر عن نفي فضرب المثل الذى هو القياس لا بد أن يشتمل على خبر عام و قضية كلية و ذلك هو المثل الثابت فى العقل الذى تقاس به الأعيان المقصود حكمها فلولا عمومها لما أمكن الاعتبار لجواز أن يكون المقصود حكمه خارجا عن العموم و لهذا يقال لا قياس عن قضيتين جزئيتين بل لا بد أن تكون احدهما كلية و لا قياس أيضا عن سالتين بل لا بد أن تكون احدهما موجبة و الا السلبيان لا يدخل احدهما فى الآخر لا بد فيه من خبر

¹مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 81

يعم وجملة ما يضرب من الأمثال ستة عشر لأن الأولى اما جزئية و اما كلية مثبتة أو نافية فهذه أربعة إذا ضربتها في أربعة صارت ستة عشر تحذف منهما الجزئيتين سواء كانتا موجبتين أو سالبتين أو احدهما سالبة و الأخرى موجبة فهذه ست من ستة عشر و السالبتين سواء كانتا جزئيتين أو كليتين أو احدهما دون الأخرى لكن إذا كانتا جزئيتين سالبتين فقد دخلت في الأول يبقى ضربان محذوفين من ستة عشر و يحذف منهما السالبة الكلية الصغرى مع الكبرى الموجبة الجزئية لأن الكبرى إذا كانت جزئية لم يجب أن يلاقيها السلب بخلاف الايجاب فان الايجابين الجزئيين يلتقيان و كذلك الايجاب الجزئي مع السلب الكلي يلتقيان لاندرج ذلك الموجب تحت السلب العام يبقى من الستة عشر ستة أضرب فإذا كانت احدهما موجبة كلية جاز في الأخرى الأقسام الأربعة و إذا كانت سالبة كلية جاز أن تقارنها الموجبتان لكن تقدم مقارنة الكلية لها و لا بد في الجزئية أن تكون صغرى و إذا كانت موجبة جزئية جاز أن تقارنها الكليتان و قد تقدمتا و إذا كانت سالبة جزئية لم يجز أن يقارنها الا موجبة كلية و قد تقدمت فيقر الناتج ستة و الملغى عشرة و بالاعتبارين تصير ثمانية فهذه الضروب العشرة مدار ثمانية منها على الايجاب العام و لا بد في جميع ضروبه من أحد أمرين إما ايجاب و عموم و إما سلب و خصوص ففويضان لا يفيد اجتماعهما فائدة بل إذا اجتمع النقيضان من نوعين كسالبة كلية و موجبة جزئية فتفيد بشرط كون الكبرى هي العامة فظهر أنه لا بد في كل قياس من ثبوت و عموم إما مجتمعين في مقدمة و إما مفترقين في المقدمتين و أيضا مما يجب أن يعلم أن غالب الأمثال المضروبة و الأقيسة إنما يكون الخفي فيها احدي القضيتين و اما الأخرى فجلية معلومة فضارب المثل و ناصب القياس إنما يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية فيعلم بذلك المقصود لما قاربها في الفعل من القضية السلبية و الجلية هي الكبرى التي هي أعم فإن الشيء كلما كان أعم كان أعرف في العقل لكثرة مرور مفرداته في العقل و خير الكلام ما قل و دل فلهذا كانت الأمثال المضروبة في القرآن تحذف منها القضية الجليلة لأن في ذكرها تطويلا و عيا و كذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين يعد تطويلا و اعتبر ذلك بقوله {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} الأنبياء 22 ما أحسن هذا البرهان فلو قيل بعده و ما فسدتا فليس فيهما آلهة إلا الله لكان هذا من الكلام الغث الذي لا يناسب بلاغة التنزيل و انما ذلك من تأليف المعاني في العقل مثل تأليف الأسماء من الحروف في الهجاء و الخط إذا علمنا الصبي الخط نقول با سين ميم صارت بسم فإذا عقل لم يصلح له بعد ذلك أن يقرأ تهجيا فيذهب بيهجة الكلام بل قد صار التأليف مستقرا و كذلك النحوى إذا عرف أن محمد رسول الله مبتدأ وخير لم يلف كلما رفع مثل ذلك أن يقول لأنه مبتدأ و خبر فتأليف الأسماء من الحروف لفظا و معنى و تأليف الكلم من الأسماء و تأليف الأمثال من الكلم جنس و احد ولهذا كان المؤلفون للأقيسة يتكلمون أولا في مفردات الألفاظ و المعاني التي هي الأسماء ثم يتكلمون في تأليف الكلمات من الأسماء الذي هو الخبر و القصة و الحكم ثم يتكلمون في تأليف الأمثال المضروبة الذي هو القياس و البرهان و الدليل و الآية و العلامة فهذا مما ينبغي أن يتقطن له فإن من أعظم كمال القرآن تركه في أمثاله المضروبة و أقيسته المنصوبة لذكر المقدمة الجليلة الواضحة المعلومة ثم اتباع ذلك بالأخبار عن النتيجة التي قد علم من أول الكلام أنها هي المقصود بل إنما يكون ضرب المثل بذكر ما يستفاد ذكره و ينتفع بمعرفته فذلك هو البيان هو البرهان و أما ما لا حاجة الى ذكره فذكره عي وبهذا يظهر لك خطأ قوم من البيانيين الجهال و المنطقيين الضلال حيث قال بعض أولئك الطريقة الكلامية البرهانية في أساليب البيان ليست في القرآن إلا قليلا و قال الثاني انه ليس في القرآن برهان تام فهو لاء من أجهل الخلق باللفظ و المعنى فإنه ليس في القرآن إلا الطريقة البرهانية المستقيمة لمن عقل و تدبر و أيضا فينبغي أن يعرف أن مدار ضرب المثل و نصب القياس على العموم

و الخصوص و السلب و الايجاب فإنه ما من خبر الا و هو اما عام او خاص سالب أو موجب فالمعنى خاص محصور و الجزئى أيضا خاص غير محصور و المطلق اما عام و اما فى معنى الخاص فينبغى لمن أراد معرفة هذا الباب أن يعرف صيغ النفي و العموم فإن ذلك يجيء فى القرآن على أبلغ نظام و قد يعبر فى اللغة بضرب المثل أو بالمثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة لك منه الدليل على الحكم كأمثال القرآن و هو أن يكون الرجل قد قال كلمة منظومة أو منثورة لسبب اقتضاه فشاعت فى الاستعمال حتى يصار يعبر بها عن كل ما أشبه ذلك المعنى الأول و ان كان اللفظ فى الأصل غير موضوع لها فكأن تلك الجملة المثلية نقلت بالعرف من المعنى الخاص الى العام كما تنقل الألفاظ المفردة فهذا نقل فى الجملة مثل قولهم يداك او كتا و فوك نفخ هو مواز لقولهم انت جنيت هذا لأن هذا المثل قيل ابتداء لمن كانت جنايته بالايكاء و النفخ ثم صار مثلا عاما و كذلك قولهم الصيف ضيعت اللبن مثل قولك فرطت و تركت الحزم و تركت ما يحتاج اليه و قت القدرة عليه حتى فات و اصل الكلمة قيلت للمعنى الخاص وكذلك عسى العويدا بؤسا أي أتخاف أن يكون لهذا الظاهر الحسن باطن ردىء فهذا نوع من البيان يدخل فى اللغة و الخطاب فالمتكلم به حكمه حكم المبين بالعبارة الدالة سواء كان المعنى فى نفسه حقا أو باطلا إذ قد يتمثل به فى حق من ليس كذلك فهذا تطلبه فى القرآن من جنس تطلب الألفاظ العرفية فهو نظر فى دلالة اللفظ على المعنى لا نظر فى صحة المعنى و دلالاته على الحكم و ليس هو المراد بقوله {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} الروم 58 فتدبر هذا فانه يجلو عنك شبهة لفظية و معنوية و هذه الأمثال اللغوية أنواع موجود فى القرآن منها أجناسها و هي معلنة ببلاغة لفظه و نظمه و براعة بيانه اللفظي و الذين يتكلمون فى علم البيان و إعجاز القرآن يتكلمون فى مثل هذا و من الناس من يكون أول ما يتكلم بالكلمة صارت مثلا و منهم من لا تصير الكلمة مثلا حتى يتمثل بها الضارب فيكون هذا أول من تمثل بها كقوله صلى الله عليه و سلم الآن حمى الوطيس و كقوله مسعر حرب و نحو ذلك لكن النفي بصيغة الاستفهام المضمن معنى الانكار هو نفي مضمن دليل النفي فلا يمكن مقابله بمنع و ذلك أنه لا ينفي باستفهام الانكار الا ما ظهر بيانه أو ادعى ظهور بيانه فيكون ضاربه إما كاملا فى استدلاله و قياسه و إما جاهلا كالذي قال { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } يس 78¹

ضرب الأمثال هو القياس العقلى

قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} الروم 58-59 فالحق يظهر صحته بالمثل المضروب له و الباطل يظهر فساده بالمثل المضروب له لأن الإنسان قد لا يعلم ما فى نفس محبوبه أو مكروهه من حمد و ذم إلا بمثل يضرب له فإن حبك الشيء يعمى ويصم والله سبحانه ضرب الأمثال للناس فى كتابه لما فى ذلك من البيان و الإنسان لا يرى نفسه و أعماله إلا إذا مثلت له نفسه بأن يراها فى مرآة و تمثل له أعماله بأعمال غيره ولهذا ضرب الملكان المثل لداود

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 60-65

عليه السلام بقول أحدهما { إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَأْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ } {23} قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ {24} ص 23-24 الآية وضرب الأمثال مما يظهر به الحال وهو القياس العقلي الذي يهدي به الله من يشاء من عباده قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {الزمر 27} وقال تعالى { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ } {العنكبوت 43} وهذا من الميزان الذي أنزله الله كما قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } {الشورى 17} وقال { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } {الحديد 25} ¹

ان هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما فى القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذى جاء به الرسول والقرآن مملوء من ذلك والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهى الدلائل اليقينية وقد قال الله تعالى لرسوله { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } {النحل 125} ²

ضرب لجميع الناس من كل مثل

قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} {الروم 58-59} والله تعالى قد أرسل نبيه محمداً إلى جميع العالمين وضرب الأمثال فيما أرسله به لجميعهم كما قال تعالى { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } {الروم 58} فأخبر أنه ضرب لجميع الناس فى هذا القرآن من كل مثل ولا ريب أن الألفاظ فى المخاطبات تكون بحسب الحاجات كالسلاح فى المحاربات فإذا كان عدو المسلمين فى تحصنهم وتسليحهم على صفة غير الصفة التى كانت عليها فارس والروم كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التى مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع وهو الأصلح فى الدنيا والآخرة وقد يكون الخبير بحروبهم أقدر على حربهم ممن ليس كذلك لا لفضل قوته وشجاعته ولكن لمجانسته لهم كما يكون العربى المتشبه بالعجم وهم خيار العجم أعلم بمخاطبة قومه الا عجم من العربى وكما يكون العربى المتشبه بالعجم وهم أدنى العرب أعلم بمخاطبة العرب من العجمى فقد جاء فى الحديث خيار عجمكم المتشبهون بعربكم وشرار عربكم المتشبهون بعجمكم ولهذا لما حاصر النبى الطائف رماهم بالمنجنيق وقتلهم قتالا لم يقاتل غيرهم مثله فى المزاحفة كيوم بدر وغيره وكذلك لما حوصر المسلمون عام الخندق اتخذوا من الخندق ما لم يحتاجوا إليه فى غير الحصار وقيل إن سلمان أشار عليهم بذلك فسلموا ذلك له لأنه طريق إلى فعل ما أمر الله به ورسوله وقد قررنا فى قاعدة السنة والبدعة أن البدعة فى الدين هي ما لم يشره الله ورسوله وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب فأما ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب وعلم الأمر به بالأدلة الشرعية فهو من الدين الذى شرعه الله وإن تنازع أولو الأمر فى بعض ذلك وسواء كان هذا مفعولا على عهد النبى أو لم يكن فما فعل بعده بأمره من قتال المرتدين والخوارج المارقين وفارس

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 347

² مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 162-164

وفارس والروم والترك وإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وغير ذلك هو من سنته ولهذا كان عمر بن عبدالعزيز يقول سن رسول الله سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأي من خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا فسنة خلفائه الراشدين هي مما أمر الله به ورسوله وعليه أدلة شرعية مفصلة ليس هذا موضعها فكما أن الله بين في كتابه مخاطبة أهل الكتاب وإقامة الحجة عليهم بما بينه من أعلام رسالة محمد وبما في كتبهم من ذلك وما حرفوه وبدلوه من دينهم وصدق بما جاءت به الرسل قبله حتى إذا سمع ذلك الكتابي العالم المنصف وجد ذلك كله من أبين الحجة وأقوم البرهان والمناظرة والمحاجة لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف وإلا فالظالم يجحد الحق الذي يعلمه وهو المسفست والمقرمط أو يمتنع عن الاستمتاع والنظر في طريق العلم وهو المعرض عن النظر والاستدلال فكما أن الإحساس الظاهر لا يحصل للمعرض ولا يقوم للجاحد فكذلك الشهود الباطن لا يحصل للمعرض عن النظر والبحث بل طالب العلم يجتهد في طلبه من طرقه ولهذا سمى مجتهدا كما يسمى المجتهد في العبادة وغيرها مجتهدا كما قال بعض السلف ما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيهم وقال أبي بن كعب وابن مسعود اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة وقد قال النبي إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر وقال معاذ بن جبل ويروى مرفوعا وهو محفوظ عن معاذ عليكم بالعلم فإن تعليمه حسنة وطلبه عبادة ومذكراته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة فجعل الباحث عن العلم مجاهدا في سبيل الله¹

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }

فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه وهذا كقوله { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ } غافر 51 وقوله { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ } الصافات 171 الآيتين فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر وأن جند الله الغالبون ويكون الأمر بخلاف ذلك وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به فالظن المخطيء فهم ذلك كثيرا جدا أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك وهذا مما يحصر الغلط فيه إلا الله تعالى وهذا عام لجميع الأدميين لكن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يقرون بل يتبين لهم وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه بتصديق الوعد والإيمان وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت ومن الإستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق إتصافه بصفة الوعد كما قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخَفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } { الروم 60 وقال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَّوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجِعُونَ } غافر 77 الآية والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة والله تعالى أعلم²

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 108-109

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 195

قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } الروم 60 فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته فهذا مما يجب وقوعه بحكم الوعد باتفاق المسلمين¹

قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً

قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } الروم 60 وفى الصحيح عن النبي أنه كان يقول فى خطبه خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكمال هو من كان لله اطوع وعلى ما يصيبه اصبر فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله واعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربيين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى { بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقال أخوة يوسف له { قَالُوا أَلَيْسَ لَكَ لِأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى { وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يونس 109 وفى اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لامره وقال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 25²

اليقين يحصل بثلاثة أشياء

قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } الروم 60

وأما اليقين فهو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون ماء يقن إذا استقر عن الحركة وضد اليقين الريب وهو نوع من الحركة والإضطراب يقال رابني يربيني ومنه فى الحديث أن النبي مر بظبي حاقف فقال لا يريبه أحد اليقين ينتظم منه أمران علم القلب وعمل القلب فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر ومع هذا فيكون فى قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه ولا خالق غيره وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك إما لغفلة القلب عن هذا العلم والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم يكن ضداً لأصل العلم وأما للخواطر التي تسنح فى القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك وفى الحديث المشهور الذي رواه أبو بكر عن النبي أنه قال

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 219

²الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 109 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 35

سلوا الله اليقين والعافية فما أعطى أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية فسلوهما الله فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا بخلاف غيرهم فإن الإبتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه قال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } السجدة 24 ألا ترى إلى قوله تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } آل عمران 173 فهذه حال هؤلاء وأما كيف يحصل اليقين فبثلاثة أشياء أحدها تدبر القرآن والثاني تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق والثالث العمل بموجب العلم¹ فأما اليقين الذي هو صفة العبد فذاك قد فعله من حين عبد ربه ولا تصح العبادة إلا به وإن كان له درجات متفاوتة وقال عن الكفار { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ } الجاثية 32²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } الروم 47 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة³

2- قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } الروم 48 لفظ الإصابة قد يقال أصابه بخير وأصابه بشر قال تعالى { وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } يونس 107 وقال تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } الروم 48 وقال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَنْبِئُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ } يوسف 56 وقد قال تعالى أيضاً { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَهْؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } {78} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } {79} النساء 78- 79⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 331

²الاستقامة ج: 1 ص: 419

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

⁴مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 45

3- قال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** } الروم 48 ولفظ السماء في اللغة والقرآن اسم لكل ما علا فهو اسم جنس للعالي لا يتعين في شيء إلا بما يضاف إلى ذلك وقد قال { **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ** } الحج 15 وقال { **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } الأنعام 99 وقال { **أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ** } الملك 16 والمراد بالجميع العلو ثم يتعين هنا بالسقف ونحوه وهنا بالسحاب وهناك بما فوق العالم كله فقوله { **أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } الأنعام 99 أي من العلو مع قطع النظر عن جسم معين لكن قد صرح في موضع آخر بنزوله من السحاب كما في قوله { **أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ** } {68} { **أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ** } {69} الواقعة 68-69 والمزن السحاب وقوله { **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** } النور 43 والودق المطر وقال تعالى { **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ** } الروم 48 فأخبر سبحانه أنه يبسط السحاب في السماء وهذا مما يبين أنه لم يرد بالسماء هنا الأفلاك فإن السحاب لا يبسط في الأفلاك بل الناس يشاهدون السحاب يبسط في الجو وقد يكون الرجل في موضع عال إما على جبل أو على غيره والسحاب يبسط أسفل منه وينزل منه المطر والشمس فوقه¹

4- قوله تعالى { **وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يُنزَلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ** } الروم 49 فهي من أشكل ما أورد ومما أعضل على الناس فهمها فقال كثير من أهل الأعراب والتفسير أنه على التكرير المحض والتأكيد قال الزمخشري { **مِّن قَبْلِهِ** } الروم 49 من باب التوكيد كقوله تعالى { **فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا** } الحشر 17 ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد فاستحكم بأسهم وتمادى وتمادى إبلاسه فكان الإستبشار بذلك على قدر إهتمامهم بذلك هذا كلامه وقد إشتمل على دعويين باطلتين إحداهما قوله إنه من باب التكرير والثانية تمثيله ذلك بقوله تعالى { **فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا** } الحشر 17 فإن في الأولى على حد قولك زيد في الدار أى حاصل أو كائن وأما الثانية فعمولة للخلود وهو معنى آخر غير معنى مجرد الكون فلما إختلف العاملان ذكر الحرفين فلو إقتصر على إحداهما كان من باب الحذف لدلالة الآخر عليه ومثل هذا لا يقال له تكرر ونظير هذا أن تقول زيد في الدار فيها أو ساكن فيها ونحوه مما هو جملتان مقيدتان بمعنيين وأما قوله { **مِن قَبْلُ أَنْ يُنزَلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ** } الروم 49 فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق والمعنى فيه وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين فهنا قبليتان قبيلة لنزوله مطلقا وقبيلة لذلك النزول المعين أن لا يكون متقدما على ذلك الوقت فينسوا قبل نزوله بأسا لعدمه مرثيا وبأسا لتأخره عن وقته فقبل الأولى ظرف لليأس وقبل الثانية ظرف المجيء والإنزال ففي الآية ظرفان معمولان وفعالان مختلفان عاملان فيهما وهما الإنزال والابلاس فأحد الظرفين متعلق بالابلاس والثاني متعلق بالنزول وتمثيل هذا أن تقول إذا كنت معتادا للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به قد كنت أيضا²

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 440-446

² مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 278-279

5- قال تعالى { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الروم 50 قدير منزه عن العجز والضعف¹

6- قال تعالى { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الروم 50 ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة²

7- قال تعالى { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } الروم 50 أما الأعيان القائمة بأنفسها فلا تسمى أمرا لا بمعنى المفعول به وهو المأمور به كما سمي المسيح كلمة لأنه مفعول بالكلمة وكما يسمى المقذور قدر قدرة والجنة رحمة والمطر رحمة في مثل قوله { فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } الروم 50 وفي قول النبي فيما يرويه عن ربه أنه قال للجنة أنت رحمتي ارحم بك من شئت وقوله إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ونظائر ذلك كثيرة³

8- قال تعالى { فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ } {52} وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ } {53} الروم 52-53

عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد ولفظ الضلال اذا أطلق تناول من ضل عن الهدى سواء كان عمدا أو جهلا ولزم أن يكون معذبا كقوله { إِنَّهُمْ أَلْفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ } {69} فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } {70} وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ } {71} الصافات 69- 71 وقوله { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا } {68} الأحزاب 67- 68 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 ثم يقرب بالغى والغضب كما فى قوله { مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى } النجم 2 وفى قوله { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } الفاتحة 7 وقوله { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } القمر 47⁴

9- قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } الروم 54 ولفظ القوة قد يراد به ما كان فى القدرة أكمل من غيره فهو قدرة ارجح من غيرها أو القدرة التامة ولفظ القوة قد يعم القوة التى فى الجمادات بخلاف لفظ القدرة⁵

¹ الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

³ مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 228

⁴ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 167

⁵ مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 575

10- قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ } الروم 54 عليم منزه عن الجهل قدير منزه عن العجز والضعف¹

11- قال تعالى { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ } {58} كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } {59} الروم 58-59 قوله { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ } وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم²

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 121

{ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ
الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ }

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

####